الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة -
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
قسم أصول الدين: عقيدة

نيابة العمادة المكلفة
بما بعد التدرج والبحث العلمي
والعلاقات الخارجية

الأبعاد الوظيفية للإيمان

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص : عقيدة

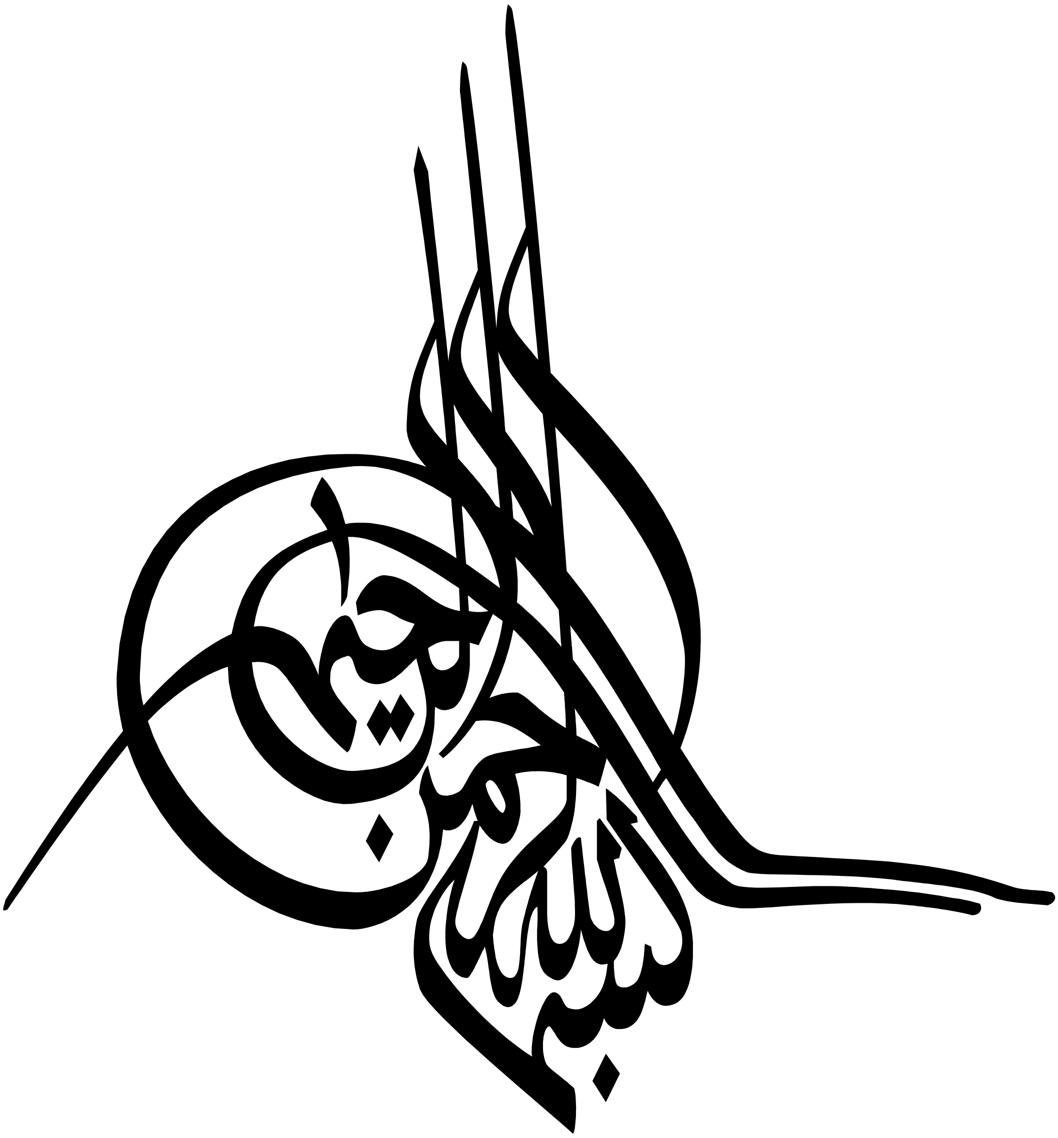
إعداد الطالبة :
سمية شباطة

إشراف الدكتور:
عمار جيدل

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
د.حسين شرفه	أستاذ محاضر	كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية- باتنة	رئيسا
أ.د.عمّار جيدل	أستاذ التعليم العالي	كلية أصول الدين - جامعة الجزائر	مقرّرا
د.لخضر شايب	أستاذ محاضر	كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية- باتنة	مناقشا
د.عبد القادر بخوش	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة-	مناقشا

السنة الجامعية :
1426-1427 هـ / 2005-2006 م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى :

من تربعت على عرش الحنان : الكريمة والدتي.

من بذل النفس والنفيس لأجلي : الكريم والدي.

من رافقتني طيلة مشواري الدّراسي شقيقتي الصغرى:الغالية خديجة

من أناروا دربي بنور العلم : أساتذتي الكرام.

إلى رب أسرتي؛ زوجي الكريم : هشام.

إلى أعمدة بيتنا الركيزة إخوتي: محمد، عمر، عبد الكريم، صلاح الدين، رابح نعيم وزوجاتم.

إلى سرج بيتنا المنيرة : أخواتي : حورية، كريمة، حياة، فاطمة الزهراءوأزواجهن.

إلى رفيقات دربي :مليكة، بسيمة، أمينة، وفاء، زهرة ،العمرية، فلة، دليلة ، ذهبية، نعناعة، صفية، آسيا، لبنى، ليلى، مسعودة، فايزة، صوريا، اسمهان، ،...

إلى أمتي الغالية ؛ عامة أفرادها قبل خاصتهم.

شكر وتقدير

أتقدّم بشكري الجزيل إلى:

شمس حياتي وقمرها: أمي الغالية ووالدي العزيز؛ اللذين زوّداني بدعواتما الخالصة، وبعنايتهما الفائقة.

أستاذي ومشرفي الكريم:عمار جيدل ، الذي تعاهد هذا البحث بالعناية والتصحيح بكلّ كرم وصبر.

معلّمتي الأولى بعد والدتي:أختي فاطمة الزهراء، التي لطالما أعانتني بتوجيهاتا القيّمة، وإرشاداتا الحكيمة.

شقيقتي الغالية:العزيزة حياة، التي تمّنت لي دوما النجاح والفلاح.

العم العزيز:محمد عروس:الذي أعانني بكتبه القيّمة.

الأخ الكريم:عبد الكريم، الذي دعّمني بتشجيعاته .

صديقاتي الوفّيات :حليمة، سعيدة، جميلة، اللواتي ساعدنني بكلّ محبة وكرم.

مقدمة

الحمد لله، الّذي حجّت الألبابَ بدائعُ حكمه، وخصمت العقولَ لطائفُ حججه، وقطعت عذر الملحدين عجائبُ صنعه، وهتفت في أسماع العالمين ألسُنُ أدلّته، شاهدة أنّه لا إله إلّا هو، الّذي لا عدْل له معادل، ولا مثل له مماثل، ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين؛سيّدنا ونبيّنا محمّد بن عبد الله،خاتم الأنبياء والمبعوثين؛سفير الله إلى خلقه،وأمينه على وحيه، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بديه إلى يوم الدين وبعد:

أوّلا:بيان الموضوع وتحديد إشكاليته:

كان الإيمان بالله تعالى-ولا يزال-، أهمّ مسألة في حياة البشريّة وأخطرها، ولهذا كانت عناية القرآن الكريم، والسّنة النّبوية الشّريفة به واضحة ومتميّزة؛ ذلك لأنّه المحور الّذي تدور حوله حياة البشريّة بأكملها،والمعلَم الّذي تتدي به لتصل إلى تحقيق خلافة الله على أرضه،وهو-كما يقول سيّد قطب-نقطة التّحول من الفوضى إلى النّظام،ومن التّيه إلى القصد،ومن التّفكك إلى الوحدة،؛فهذه البشريّة دون إيمان بالله الواحد لا تعرف لها قصدا مستقيما، ولا غاية مطّردة.

وما حاولت بحثه بالضّبط في هذه المسألة هو:الأبعاد الوظيفيّة الّتي يحقّقها الإيمان على أرض الواقع،فجمهور العلماء وإن اختلفوا في دخول العمل في مسمّى الإيمان، إلاّ أنّهم قد اتّفقوا على أنّه من مقتضياته أو آثاره، وهنا يبدو أنّه لا إشكال إلاّ في التّعبير؛فسواء قلنا بأنّ العمل جزء من الإيمان،أو هو من مقتضياته فالأمر سيّان،وعليه يمكننا القول بأنّ الإيمان يزاوج ويجمع بين التصديق بالله، وبين القبول عنه والطّاعة له؛ ذلك لأنّ تحقيق الأوّل بمعزل عن الثّاني يصبح حجّة على المرء وليست له، أمّا تحقيق الثّاني بمعزل عن الأوّل، فحاله كحال البناء على غير أساس .

كذلك لو قلنا بفصل التّصديق بالله والاعتراف به عن طاعته والسّماع له، والامتثال لأوامره،فهذا يعني أنّنا نؤسّس لفصل أرواحنا وقلوبنا واعتقاداتنا عن واقعنا وحياتنا وأفعالنا؛ فما نراه ونعتقده صحيحا أحقّ بالاتّباع نمله ونتركه،وما نراه باطلا واجب الابتعاد عنه ، نزاوله ونطّبقه، وهذا ما لا يقرّ به عاقل، ولا يقبله متّزن.

و الحقيقة أنّ الإيمان-كما قال سيّد قطب- قوّة دافعة، وطاقة مجمّعة، فما تكاد حقيقته تستقرّ في القلب، حتّى تتحرّك لتعمل، ولتحقّق ذاتا في الواقع، ولتوائم بين صورتا المضمرة، وصورتا الظاهرة، كما أنّها تستولي على مصادر الحركة في الكائن، وتدفعها في الطريق.

ولمّا حاولت إسقاط كلّ هذا على واقعنا المعيش، بدا لي جليّا كيف أنّنا-للأسف-قد فقدنا عقولنا واتّزاننا؛إذ صرنا نعتقد شيئا، ونطبّق ونجسّد على واقعنا شيئا آخر؛ نعتقد وجوب الحجاب ونتعرّى، ونعتقد وجوب الصّدق ونكذب، ونعتقد وجوب الأمانة ونخون،....، ونعتقد جبروت الله ولا نخافه، نعتقد سعة مغفرته ولا نتوب إليه، ونعتقد وجود يوم الحساب ولا نتحضّر له،...،للأسف اعتقاداتنا كلّها بواد، وأعمالنا وأفعالنا بواد آخر!

إنّ كلّ ما سبق أثار بذهني إشكالات عديدة أوّلها:

-إذا كان الإيمان مرتبط ارتباطا لازما بالعمل، فلماذا يصدمنا الواقع بضعف الإيمان، وانحصار وظيفته،وعدم فاعلّيته؟

-ثمّ إذا كانت هناك أسباب لهذا الضّعف ،أفتكون هنالك سبل معّينة تساعد على تجاوزه، ثمّ تساعد على بعث الإيمان من جديد، بحيث ينير قلب المؤمن وحياته معا.؟

-ثمّ إذا كان للإيمان أبعاد وظيفية، وآثار عملية يمكن أن يجسّدها على أرض الواقع، فهل تمسّ تلك الأبعاد كافّة مجالات الحياة الإنسانّية؟ أم أنّها تقتصر على البعض دون البعض الآخر.؟

إنّ الفصل في هذه المسائل استلزم وضع فرضيات هي كالآتي:

1-عدم تجسيد الأبعاد الوظيفّية للإيمان على أرض الواقع يعود إلى:

أ-هجر القرآن الكريم. ب-هجر الّتفكر والّنظر. جـ-هجر الذّكر.

2-السّبل الكفيلة بتحقيق الأبعاد الوظيفّية للإيمان هي:

أ-الّتعريف بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

ب-الّترغيب في ربط الإيمان بالعمل الصّالح،وذلك ببيان وعد الله تعالى لعباده المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات.

جـ-الّترهيب من تجريد الإيمان عن العمل الصّالح، وذلك ببيان وعيده تعالى لمن آمن دون أن يلتزم بالأعمال الصّالحات.

د-الدّعوة إلى اّتخاذ الّنبي-صلّى الله عليه وسلّم –قدوة حسنة.

3-الإيمان له أبعاد وظيفّية، لكن في بعض مجالات الحياة دون بعضها الآخر؛ إذ لادخل له في الاقتصاد ولا في السّياسة مثلا.

4-الإيمان كالشّمس الوضّاءة، الّتي تغمر الكون فتبعث الحياة في كلّ شيء، فالإيمان إذا تمسّ أبعاده الوظيفّية كلّ ناحية من مناحي الحياة،وتسّيرها وفق منهج رباني سليم.

ثانيا:أهمية الموضوع :

لعلّ أهمّية هذا الموضوع تكمن في كون الإيمان هو الفلاح والحياة، وأنّه لا شيء بعده سوى الضّلال والمماة، قال تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122] وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:22] .

كما أنّ الإيمان الحقيقي، الباعث على العمل البنّاء بما يرضي الله تعالى ورسوله -ﷺ- هو الّذي يشيّد صرح الحياة الدّنيا على أسس ركيزة، رصينة، تجعلها حياة مطمئنّة، طيّبة، هانئة،يشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:97]، وفي الوقت ذاته، يرفع العبد في الحياة الآخرة، ويرتقي به في سلّم الدّرجات العلا، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [العنكبوت:58]، هذا إذن خير الحياة الدّنيا والآخرة، فأيّ شيء بعده يرومون؟!.

ثالثا:أسباب اختيار الموضوع:

لعلّه يمكن تلخيصها فيما يلي:

1 - الحالة المزرية الّتي وصلت إليها أمّتنا، والواقع المخجل الّذي تعيشه، من ضعف ووهن، وذلّ وخضوع، وما كلّ هذا إلّا للهثها وسعيها الدّائم وراء زخارف الحياة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:20]، ونسيانا أو تناسيها للميثاق الّذي أقامته مع الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [المائدة:07].

لكنّك إذا ما نظرت بعين الواقع وجدت الميثاق قد انقلب –والعياذ بالله- إلى سمعنا وعصينا، ولعلّ أبلغ معبّر عن حالتنا هاته قوله -ﷺ- ((يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله، أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون

غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قلنا: وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)) .

2- انتشار مفاهيم عقدية خاطئة بين أوساط المجتمع؛ إذ تجد من الأمة من يتشدّق بقوله -ﷺ- ((مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأن مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إلا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَارِ)) وهؤلاء يتعلّقون بهذا الحديث وأمثاله دون أن يعرفوا معناه، ولا أن يفهموا مقتضاه، ويستدلّون به على أنّ الإيمان مجرّد عبارات يلوكها اللّسان، يصاحبها كسل وخمول يفتك بالأبدان، والحقيقة أنّه ما أسرّ أحد سريرة، إلّا أبداها الله على لفتات وجهه، وفلتات لسانه وحركات جوارحه. كما أنّك تجد بينهم من يفهم الإيمان على وفق هواه، فيذكّرك بأنّ الله غفور رحيم، ورحمان حليم، ودود، كريم، ...، ويتجاهل بأنّه تعالى في ذات الحين، قويّ متين، جبّار شديد العقاب ... إلخ، ولعلّهم لم ينتبهوا إلى التّلازم الّذي ساقه الله تعالى في قوله: ﴿نبئْ عِبَادِي أني أنا الْغَفُورُ الرحِيمُ (49) وَأن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)﴾ [الحجر:49-50].

3- ما نراه من استخفاف بالذّنوب والخطايا، في واقعنا المعيش، ومن شيوع روح اللاّمبالاة، وانعدام شعور الخوف والخشية من الله تعالى؛ حيث ساد بين أوساط الأمّة، التّلفظ بعبارات خطيرة جدا، ولا يعون مدى خطورتها، حيث أنّك إذا بادرت بنهي أحدهم عن منكر، أجابك بكلّ ثقة، أتراني أحرق المساجد؟ ! يبدو أنّه لن يحسّ بتقصيره، حتّى يصل إلى درجة العتوّ هاته!!.

4- تفشّي ظاهرة ضعف الإيمان، بين مختلف فئات المجتمع؛ شبابا وكهولا وشيوخا، وما ذاك إلّا لغفلتهم، وعدم تعاهد إيمانهم، بالأعمال الصّالحات.

5- ما ساد من وجهات نظر خاطئة عن ديننا الحنيف، من أنّه دين التّخلف، والكسل، وما كان هذا ليسود إلّا من جرّاء أفعالنا المخالفة، بل والمناقضة لمعتقداتنا الإسلامية الحقّة.

رابعا: أهداف البحث

1-العمل على تنبيه الأمّة إلى ما قد يضعف إيمانها ويشلّ حركيّته لتجنّبه، ثمّ تنبيهها إلى حالة الضّعف الّتي آلت إليها لتعي، ووخزها بالوعظ والتّذكرة، لتفيق من سباتها الّذي طال أمده، فتعود إلى رشدها، وتتمسّك بتعاليم دينها الحنيف، المستمدة من نور كتابه تعالى ومن سراج سنّته -ﷺ- .

2-العمل على بيان المسالك الّتي تزيد من إيمان العباد،وتساهم في تفعيله،وذلك بغرض اعتمادها، والحثّ على تقوية الإيمان وتجاوز ظاهرة ضعفه الّتي فتكت بجسد الأمّة أيّما فتك، وذلك ببيان بواعث تقوية الإيمان، والسّعي إلى تمثّلها.

3-العمل على إحداث توافق بين ما يعتقده العبد وما يفعله،وذلك بالّتأكيد على أنّ الإيمان ليس مجرّد ادّعاء، وإّنما هو تصديق حقيقي،وقول صادق يثبته العمل.

4-العمل على الّتأكيد على أنّ الإيمان منهج لقيام حياة البشر على هذه الأرض، ولقيادتنا انطلاقا من مبدأ العبودّية لله وحده.

5-إعلام العباد بقدرتهم على توظيف إيمانهم في كافّة مجالات الحياة الإنسانّية،بل وبوجوب ذلك،انطلاقا من العهد الّذي قطعوه مع الله تعالى، القاضي بالسّمع والطّاعة.

6-محاولة بيان أنّ الوصول لتحقيق خلافة الله الحقيقّية على أرضه،لا تكون إلاّ باّتباع المنهج الرّباني الّذي رسمه الله تعالى لعباده،وليس بمجرّد الّتصديق والإقرار بحقائق معّينة؛قال تعـ ـالى:﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:153]،وهذا الصّراط هو صراط الهداية إلى سعادة الدّنيا والآخرة، وهو صراط الّذين أنعم الله عليهم ممّن أطاع الله ورسوله؛قال تعالى:﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّـ ـهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِـ ـ ـ ـكَ رَفِـ ـ ـ ـ ـ ـيقاً ﴾[النساء:69]، فعلينا إذن أن نمتثل لأوامره تعالى، و نتجّنب نواهيه، وهذا لا يتحقّق إلّا بتمثّلنا حقيقة الإيمان، الّذي نظلّ نردّد انتماءنا إليه ونحن أبعد ما يكون عنه.

خامسا:خطة البحث

حاولت هيكلة البحث وفق خطة تضمّنت أربعة فصول، مسبوقة بمقدمة وتمهيد، ومختومة بخاتمة تضمّنت أهمّ الّنتائج المتوصّل إليها؛ أمّا بالّنسبة للفصل الأوّل ،فقد خصّصته للحديث عن تأرجح الإيمان بين تحقّق وظيفته وعدم تحقّقها، وقد حاولت من خلاله بيان أهمّ الأسباب الّتي تؤدّي إلى تثبيط فاعلّية الإيمان،ثمّ بيان أهمّ السّبل الّتي تساعد على تجاوز تلك الحالة،والعودة بالإيمان إلىحالة الّتزايد والّنشاط والفاعلّية.وقد تراءى لي بأنّ هذا الفصل مهمّ ليحتلّ صدارة البحث ، لأنّ من سيطّلع على الأبعاد الوظيفّية للإيمان، سيتساءل مباشرة،عن سبب اختفـ ـائها –أو بعضها-في واقع حياة المؤمن،ثمّ عن السّبل الموصلة إلى تجسيدها، لذلك وددت أن أبّينها للقارئ الكريم ليتمكّن من الاطّلاع بعدها على تلك الأبعاد صافي الذّهن.

وأمّا بالّنسبة للفصل الثّاني فقد تحدّثت فيه عن البعدان: الّنفسي والفكري للإيمان ؛وقد بّينت في الأّول تأثير الإيمان على الّنفس البشرّية، وهو يتمثّل أساسا في أّنه يكسب الّنفس صفتين هاّمتين ،لا اعتدال لحياتنا من دونهما هما:الطّمأنينة الّتي تساعد على البناء، والقوّة التي تساعد على الحفاظ على ما تمّ بناؤه.

و أمّا البعد الفكري للإيمان فقد بّينت من خلاله قوّة الإيمان في التأثير على فكر الإنسان، وتوجيهه التّوجيه الأقوم؛ إذ يعدّ الإيمان محرابا للعلم، بحيث يسمح-بل ويأمر-للفكر بالسّياحة في كافّة المجالات،إلاّ ما لا يفيده منها، كما أنّه يرفض كلّ ما من شأنه أن يعطّل هذه السّياحة أو يثّبطها، وما كل ّهذا إلاّ لأنّ العلم خير هاد للإيمان، وبهذا يتوافق الإيمان والعلم،ليكوّنا ثنائيّة متكاملة لا يمكن فصل أحد شقّيها عن الآخر.

أمّا الفصل الثّالث فتحدّثت فيه عن البعدان:الاجتماعي والأخلاقي للإيمان،وقد بّينت فيهما درجة تأثير الإيمان في هذين المجالين؛ ففي المجال الأوّل استطاع الإيمان إضفاء سمات كريمة ومتميّزة على المجتمع،لعلّه ّاتصف ببعضها من قبل، لكنّه أبدا لن يجمعها كلّها إلاّ بهدي الإيمان، الّذي يجعل المجتمع ربّانيا، يسير على نور التّوجيهات الإلهية السّامية، ثمّ تجد الإيمان يصل بين أفراده بصلة المحبّة والمودّة الخالصة، النّابعة من محّبة الله تعالى، ومحّبة رسوله-صلّى الله عليه وسلّم-ثمّ تجده يؤلّف بين أفراده، ليكون القادر منهم في خدمة العاجز، وليكون كلّ مؤمن مرآة لأخيه،ينّبهه إلى أخطائه، ويرشده إلى ما يصلح شأنه في دينه ودنياه.

وأمّا بالنّسبة للبعد الأخلاقي للإيمان،فقد حاولت أن أبيّن من خلاله كيف أنّ الإيمان يعدّ بحقّ قوّة دافعة إلى مكارم الأخلاق، عاصمة من مساوئها،ومعروف أنّ الخير كلّ الخير في هذين الأمرين؛ إذ بهما تبنى الأمم ، وتشيّد الحضارات،ومن دونهما تندثر وتتلاشى، وإن كانت باقية على قيد الحياة.

أمّا بالنّسبة للفصل الرّابع والأخير،فقد خصّصته للحديث عن البعدين:الاقتصادي والسّياسي للإيمان، وقد بّينت في الأوّل أنّ للإيمان آثارا بارزة في المجال الاقتصادي؛إذ تجده يستنهض الفرد ليعمل، ثمّ يؤثّر على العامل ليستقيم وينتج ويتقن، ثمّ يبيّن للمؤمن أنّ كلّ ما هو بحوزته ممّا أنتجه أو لم ينتجه، إّنما هو ملك لله وحده،وأّنه ليس إلاّ موكّلا عليه، لإنفاقه كيفما أراد مالكه الفعلي سبحانه وتعالى.

بقي البعد السّياسي للإيمان ،وفيه بّينت ضرورة إقامة حكم الله ،الّذي لا يزيد عن الامتثال لما أمر به الله والانتهاء عمّا نهى عنه، والرّجوع إلى كتابه وسنّة رسوله-صلّى الله عليه وسلّم- فيما استجد من أمور، وعدم تبني أيّ أمر يخالفهما، وهذا ما لا يختلف فيه مؤمنان.كما حاولت من خلال هذا المبحث بيان أنّ الإيمان بما يزرعه من مبادئ في قلب المؤمن؛ حاكما كان أو محكوما، يعدّ أصلا في تنظيم العلاقة بينهما؛ إذ يبّين لكلا الطّرفين واجباته وحقوقه،فلا يبقى لأيّ منهما حجّة على الآخر، وبهذا تستقيم أمور الحكم وتستتب، لأّنها مبنّية على المحبّة والطّاعة الخالصة لله سبحانه وتعالى شأنه.

وقد جاءت الخطّة على الوجه الآتي:

مقدمة.

تمهيد: تحليل العنوان.

الفصل الأوّل: وظيفة الإيمان بين التحقق وعدم التحقّق

المبحث الأوّل: أسباب عدم تحقّق وظيفة الإيمان

المطلب 1: الأسباب المتعلّقة بالفرد

المطلب 2: الأسباب المتعلّقة بالمجتمع

المبحث الثّاني : سبل تحقّق وظيفيّة الإيمان

المطلب 1: التّحقق بمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا

المطلب 2: التّحقق بالتّرغيب والتّرهيب

المطلب 3: التّحقق باتّخاذ القدوة الحسنة

الفصل الثّاني: البعدان: النّفسي والفكري للإيمان

المبحث الأوّل :البعد النّفسي للإيمان

المطلب 1: الإيمان وتكوين النّفس المطمئّنة

المطلب 2: الإيمان وتكوين النّفس المدافعة القويّة

المبحث الثاني: البعد الفكري للإيمان.

المطلب 1: الإيمان محراب العلم

المطلب 2: الإيمان حرب على الجهل

سادسا:المنهج المتبع :

حاولت في هذه الدّراسة اتّباع :

1- المنهج الاستقرائي: وذلك بتتّبع الأدّلة النّقلية، الّتي تناولت الموضوع، غير أنّه كان استقراء ناقصا لأنّ بعض الأدّلة تشترك في بيان نفس النّقاط، وكذا لأنّه يصعب التّحكم فيها لكثرتا.

2- المنهج التّحليلي: حيث أنّ استخراج الأبعاد الوظيفّية والآثار العلمّية للإيمان، يقتضي تحليل الأدّلة النّقلّية الواردة في باب الإيمان، ومحاولة فهمها، وكذا تحليل بعض أقوال العلماء فيها.

سابعا:الدّراسات السّابقة :

من بين الدّراسات السّابقة، الّتي تطرّقت إلى بيان الآثار العملّية للإيمان، نذكر الدّراسة الّتي قام با الإمام يوسف القرضاوي، في كتابه "الإيمان والحياة"، والّتي بّين من خلالها درجة تأثير الإيمان في حياة الفرد والمجتمع على حدّ سواء. كذلك الدّراسة التي قام با الدّكتور عبد المجيد عمر النّجار، في كتابه" الإيمان بالله وأثره في الحياة" والّتي عمد فيها إلى بيان درجة تأثير ركن الإيمان بالله على حياة الفرد والمجتمع كذلك.وأيضا دراسة حسن التّرابي التي جاءت بعنوان الإيمان:أثره في حياة الإنسان،وقد تحدّث فيه عن أثر الإيمان في نظام الحياة،وكذا فضله في مختلف جوانب الحياة الإنسانّية؛ كالسّياسّية، والاقتصادّية، والاجتماعّية...إلخ.

ثامنا:صعوبات البحث

أمّا الصّعوبات الّتي واجهتها أثناء فترة البحث، فهي لا تزيد عن الصّعوبات الّتي تعترض سبيل أيّ طالب علم، وهي سرعان ما تختفي، وتنمحي بمجرّد إنهاء البحث.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفّقت في إعداد هذا البحث المتواضع، وأن يحمل بين طيّاته بعض ما يفيد أمّتنا الإسلاميّة الكريمة.

التمهيد

من خلال هذا التمهيد، سأحاول بيان مفردات العنوان، وإيراد ما قصد بها في اللغة والاصطلاح، لنتمكن بعدها من إعطاء فكرة واضحة، عما سأتناوله في هذا البحث المعنون بـ: الأبعاد الوظيفية للإيمان.

ولنبدأ باللفظ الأول :

أولا : الأبعاد :

1- لغة : الأبعاد، جمع مفرده بعد، والبعد يأخذ معاني عديدة في اللغة، تفهم من خلال موقعها في السياق، من بين تلك المعاني نذكر ما يأتي :

أ- الْبُعْدُ : خلاف القرب، نقول: بَعُدَ الرجُلُ، وَبَعِدَ، بالكسر، بُعْدًا، وَبَعَدًا، فهو بَعِيدٌ، وبُعَادٌ،...أي تَباعَدَ، وجمعها: بُعَداءُ.

ب- الْبُعْدُ : الهَلَاكُ؛ يقال: بُعْدَكَ؛ أي يحذره شيئا من خلفه. وَبَعِدَ، بَعَدًا، وَبَعُدَ: هَلَكَ أو اغْتَرَبَ، فهو بَاعِدٌ، والْبُعْدُ : الهَلَاكُ، قال تعالى :﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[هود:95].

قال أحد الشعراء:

يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ وهُمْ يَدْفِنُونَنِي ۞ وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إلا مَكَانِيَا.

وهناك من كان يقرؤها، "بَعُدَتْ"؛ يجعل الهلاك والبعد سواء، وهما قريبان من السواء، والعرب يقول بعضهم: بَعُدَ، وبعضهم يقول، بَعِدَ، مثل: سَحُقَ وسَحِقَ، ومن الناس من يقول : بَعُدَ في المكان، وبَعِدَ في الهلاك [1].

جـ - «الْبُعْدُ : اللَّعْنُ والتَّغْرِيبُ؛ فالْبُعْدُ بالضم ثم السكون، والبِعَادُ بالكسر، هو اللَّعْنُ، ونقول: أَبْعَدَهُ الله، أي: نحاه عن الخير؛ أي: لا يرثى له فيما نزل به، وأَبْعَدَهُ : لَعَنَهُ وغَرَّبَهُ»[2].

د- الرأي والحزم : «نقول: إنه لذو بُعْدٍ، بضم فسكون، أي: لذو رأي وحزم، يقال ذلك للرجل، إذا كان نافذ الرأي؛ ذا غور وذا بعد رأي»[3].

هـ - المذهب : يقال : لا بعد له ؛ أي لا مذهب[4].

2- البعد في سياق البحث:أخذ لفظ البعد معاني عديدة، اختلفت باختلاف مستعمليه، نذكر منها:

أ- «إذا أطلق لفظ "البعد" عموما بالضم وسكون العين المهملة، فهو ضد القرب.

ب-إذا أطلق عند الصوفية ،فهو عبارة عن بعد العبد عن المكاشفة والمشاهدة.

ج-إذا أطلق في عرف العلماء عموما ،فهو امتداد بين الشيئين لا أقصر منه، أي لا يوجد بينهما أقصر من ذلك الإمتداد.

د-إذا أطلق عند المتكلمين ،فهو امتداد موهوم، ولا شيء محض، فهو عندهم، امتداد موهوم مفروض في الجسم أو في نفسه، صالح لأن ينطبق عليه الجسم، وينطبق عليه بعده الموهوم، ويسمى خلاء أيضا، وهو عند الحكماء امتداد موجود»[5].

هـ - كما قد يطلق لفظ "البعد" ،و يراد به« أقصر الخطوط الواصلة بين الشيئين»[6].

كما تجدر الإشارة إلى أن هذا اللفظ قد ورد في القرآن الكريم، وقد عرفه الفيروزبادي[1] على أنه «ضد القرب، ..وإنما هو أمر اعتباري، ويستعمل في المحسوس، وفي المعقول، ولكن استعماله في المحسوس

---

(1): لسان العرب المحيط لـ: ابن منظور. (دار الجبل ولسان العرب: بيروت – لبنان، ط : 1408هـ 1988م). ص: 231/1، 232.

(2): تاج العروس لـ: محمد مرتض الزبيدي. (مطبعة حكومة الكويت: الكويت، ط : 2: 1415هـ - 1992م). ص: 435/7

(3) : المرجع السابق.ص: 435/7.

(4) : لسان العرب المحيط لـ :ابن منظور. ص:233/1.

(5) : كشاف اصطلاحات الفنون لـ : محمد علي بن محمد التهانوي. (دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان ، ط: 1: 1418هـ-1998م).ص: 157/1

(6) : الكليات، لأبي البقاء بن موسى الحسيني الكفوي. (مؤسسة الرسالة : بيروت-لبنان، ط:2: 1413هـ-1993م). ص: 249

أكثر؛ مثاله في المعقول قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:167]. يقال:بَعُدَ، ككَرُمَ : أي تَبَاعَدَ فهو بَعِيدٌ،قال تعالى : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:83] ويقال: بَعِدَ، بَعَدًا؛ مات، والبَعَدُ أكثر ما يقال في الهلاك، والبُعْدُ، والبَعَدُ، كلاهما يقال في الهلاك، وفي ضد القرب، قال تعالى : ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظالِمِينَ﴾ [المؤمنين:41]، ويقول تعالى : ﴿بَلْ الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ:08]؛ أي الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى، تشبيها بمن ضل عن محجة الطريق بعدا متناهيا، فلا يكاد يرجى له الرجوع إليها»[2] .

أما ما أقصده بكلمة "البعد" في سياق هذا البحث فهو ضد القرب، لكن استعملناه استعمالا مجازيا، يأتي بمعنى الهدف الذي يتحول إلى أثر؛ حيث أردت معرفة ما إذا كان الإيمان يقتصر على التصديق والإقرار فقط؟ أم أنه يتعدى ذلك الحّيز ويتجاوزه، فيهدف للوصول إلى درجة العمل، وتصبح تلك الأهداف آثارا فعلية للإيمان.

ثانيا: الوظيفة:

1-لغة : تأتي لفظة "الوظيفة" في اللغة بمعان عديدة، نذكر منها :

أ- ما يقدر من الشيء : «فالوظيفة من كلّ شيء، ما يقدّر له في كلّ يوم ؛من رزق ،أو طعام ،أو علف ،أو شراب، وجمعها الوظائف والوظف»[3] .

ب- الإلزام : «يقال: وَظَفَ الشيْءَ عَلَى نَفْسِهِ، وَوَظفَهُ تَوْظِيفًا: ألزمها إياه، وقد وَظفْتُ لَهُ تَوْظِيفًا على الصّبي، كلّ يوم حفظ آيات من كتاب الله عزّ وجل»[4] .

جـ- التتابع: «يقال: جاءت الإبل على وَظِيفٍ وَاحِدٍ، إذا تبع بعضها بعضا، كأنا قطار، كلّ بعير رأسه عند ذنب صاحبه»[5] .

د- الشّرط والعهد : «يقال : الوظيفة هي الشرط والعهد»[6] .

([1]) : الفيروزبادي:مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن الفيروزبادي،اللغوي ،الشافعي،العلامة ولد سنة:729هـ،بكزرون،ونشأبها،له كتب كثيرة منها:لطائف ذوي التمييز،المقباس في تفسير ابن عباس.توفي وقد ناهز التسعين.انظر:شذرات الذهب في أخبار من ذهب لـ:ابن الفلاح عبد الحي بن العماد.(المكتب التجاري للطباعة: لبنان، د ط، د ت).ص:126/7، 131

([2]) : بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز لـ : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، (المكتبة العلمية: بيروت-لبنان).ص: 257/2

([3]) : لسان العرب المحيط لـ :ابن منظور. ص:949/6.

([4]) : المرجع نفسه.ص:949/6

([5]) : تاج العروس لـ : محمد مرتضى الزبيدي. (دار صادر : بيروت. لبنان، د ت).ص: 6./

([6]) : المرجع نفسه. ص: 6/

هـ - القوة : «يقال: الوظيف : الرجل القوي على المشي في الحزن»[1].

2- الوظيفة في سياق البحث : لم تورد كتب الاصطلاح المعروفة تعريفا للفظ "الوظيفة"، لكنها عند المولّدين يقصد بـا: «المنصب والخدمة المعينة»[2]

أما استعمالنا للفظ "الوظيفة" فكان بمعناه اللغوي، والذي مفاده؛ ما ألزم به المرء نفسه من عمل أو أُلزم به، وذلك لتوضيح ما إذا كان للإيمان وظيفة في حياة الفرد أم لا؟ بمعنى أنّ الإيمان الحقيقي يلزم الفرد بالقيام بأعمال معينة، تكون متواترة تستغرق كلّ لحظة من لحظات حياته، فهي وظيفة، متتابعة، وهي في الوقت ذاته إقامة لعهد الله وميثاقه، الذي قال فيه عزّ من قائل : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتقُوا اللهَ إِن اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدُورِ﴾ [المائدة:07].

ثالثا : الإيمان

1- لغة : «آمن به إيمانا، صدّقه»[3]، وقيل: «أصل آمن : أأمن، بمزتين لينت الثانية، ومنه "المهيمن"، وأصله "مؤأمن"، ليينت الثانية وقلبت ياء، وقبلت الأولى هاء، قال ابن بري[4]: الصواب أن يقال: أبدلت الثانية، وأما ما ذكر في "مهيمن" من أن أصله مؤأمن، لينت الهمزة الثانية، وقلبت باء لا يصح، لأنا ساكنة، وإنما تخفيفها أن تقلب ألفا لا غير[5].

«فالإيمان إذن، هو مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق...، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف:17]؛ لم يختلف أهل التفسير أن معناه : ما أنت بمصدق لنا»[6].

لكن قد يأخذ لفظ "الإيمان" معاني لغوية أخرى نذكر منها :

أ- الثقة :«يقال : ما آمنت أن أجد صحابة إيمانا : أي ما وثقت.»

ب- الإجارة : «قرئ في سورة براءة ﴿ إِنهُمْ لا إِيَمانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:12]، من قرأه بكسر الألف معناه؛ أنم إن أجاروا وأمنوا المسلمين، لم يفوا وغدروا،و الإيمان هنا الإجارة»[7].

([1]) :تاج العروس.لـ:الزبيدي.ص: 6/

([2]) : الوافي لعبد الله البستاني. (مكتبة لبنان: بيروت – لبنان، ط : 1990). ص : 710.

([3]) : القاموس المحيط لـ : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي الشيرازي. (الهيئة المصرية العامة للكتاب: مصر، ط: 1400هـ-1980م).ص: 194/4.

([4]): ابن بري: هو عبد الله بن بري عبد الجبار بن بري النحوي، المصري، وكان إماما في النحو، توفي سنة : 583هـ انظر: الكامل في التاريخ لابن أثير. (دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط: 3: 1980م)، ص : 174/9.

([5]):لسان العرب المحيط لـ::ابن منظور.ص:108/1.

([6]) : المرجع نفسه. ص:108/1.

([7]) : المرجع السابق. ص: 108/1

جـ - الأمن: "آمن إنما يقال على وجهين: أحدهما : متعديا بنفسه، يقال : آمنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله "مؤمن" [أي أنه يؤمن عباده]. والثاني غير متعد، ومعناه؛ صار ذا أمن»[1].

2- شرعا : يطلق لفظ "الإيمان" في القرآن الكريم، ويراد به معان مختلفة، نذكر منها :

أ- التصديق : قوله تعالى :﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف:17]، ويقول تعالى﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة:22].

ب: العمل:كما في قوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة:143]، وقـوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ ﴾ [المائدة:05]: "يعني بما أمر لله أن يؤمن به من الطاعات التي سماها على لسان جبريل، عليه السلام. إيمانا وإسلاما»[2].

جـ - الشريعة:كما يظهر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة:69]"إذ يوصف بالإيمان، كل من دخل في شريعته، مقرا بالله وبنبوته- صلى الله عليه وسلم- »[3].

هـ - الأمن: في قوله تعالى : ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:04].

كما يطلق لفظ "الإيمان" أيضا في القرآن الكريم ويراد به أغراض مختلفة مثل :

1- المدح : كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد:19]، فقد أطلق هنا "على سبيل المدح، ويراد إذعان النفس للحق، على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح»[4].

2: الذم : كما في قوله تعالى[5]:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:51]، فهذا "مذكور على سبيل الذم لهم، وأنه قد حصل لهم الأمن، بما لا يقع به الأمن، إذ ليس من شأن القلب، ما لم يكن مطبوعا عليه، أن يطمئن إلى الباطل»[6].

كذلك في السنة النبوية الشريفة، يذكر لفظ "الإيمان" بمعان عديدة، نذكر منها :

([1]) : معجم مفردات ألفاظ القرآن لأبي القاسم الحسين المفضل، المعروف بـ الراغب الأصفهاني. (دار الكتب العلمية: بيروت –لبنان، ط : 1.1418هـ - 1997م). ص 33.

([2]) : الإيمان لـ : محمد بن اسحاق بن يحي بن منده (مؤسسة الرسالة: بيروت-لبنان، تح : علي بن محمد بن ناصر، ط: 3: 1407هـ-1987م). 327/1.

(3): معجم مفردات القرآن للأصفهاني. ص 33.

([4]) : المرجع السابق. ص: 33-34.

([5]) : انظر معجم مفردات القرآن للأصفهاني. ص : 34

([6]) : المرجع نفسه. ص 34.

1: التصديق : كما ورد في حديث جبريل –عليه السلام- حينما سأل نبينا –صلى الله عليه وسلم. عن الإيمان، فقال، ((أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث)) [1].

2: العمل : ((الإيمان يضع وستون – أو سبعون- شعبة: أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))(2).

3: الشريعة : كما ورد في حديث وفد عبد القيس : حينما قال لهم –صلى الله عليه وسلم-، ((أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال : شهادة أن لا إله إلا الله،

وأن محمد رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان وأن يعطوا المغنم))[3].

وكنتيجة لهذا التنوع في معاني لفظ "الإيمان" في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله –صلى الله عليه وسلم-، اختلف علماء الإسلام في تحديد وبيان المفهوم الشرعي للإيمان، إذ أن كل فريق يعمد إلى اتخاذ أدلة معينة كأصل أصيل لما ينظر له، ويخضع بقية الأدلة الأخرى إلى ذلك الأصل، بطريقة من الطرق.

لكن ما نود نحن الوصول إليه هو بيان المفهوم الشرعي للإيمان الذي يميز الفرد المصدق بالله وبرسالة نبيه –صلى الله عليه وسلم- عن بقية الأفراد، ظاهرا وباطنا، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة:69]: فقد ميز المؤمنين بشريعتهم، عن اليهود والنصارى والصابئة، هذا طبعا إلى جانب تصديقهم، وهذا هو الإيمان الممدوح، المطلوب من العباد، وهو : قول باللسان وعمل بالأركان وعقد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية [4]، هذا مع الإشارة إلى تمايز مراتب هاته العناصر الثلاثة.

وأخيرا ومن خلال ما سبق نحاول الآن بيان ما أعنيه بـ : الأبعاد الوظيفية للإيمان؛

وهو : الأهداف العلمية المتتابعة التي يجسدها الإيمان على أرض الواقع، فتصبح آثارا مرئية، دالة عليه، وهي تعتبر جزءا منه.

([1]) : أخرجه البخاري في صحيحه (صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد ابن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري (تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير: بيروت، اليمامة، ط 03 : 1407هـ) كتاب : الإيمان، باب : سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان. ص: 1/ .

([2]) : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب : أمور الإيمان وقوله تعالى (ليس البر....). ص: 1/ ، وأخرجه مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) (دار الكتاب العربي: بيروت لبنان، ط:1407هـ). كتاب الإيمان، باب : بيان عدد شعب الإيمان. ص: 3/2.

([3]) : أخرجه البخاري. كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. ص:19/1. وأخرجه مسلم : كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان. ص: 188/1.

([4]) : انظر : الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة. لـ: أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل، التيمي، الأصبهاني. (تح: أحمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الرية: الرياض- السعودية، ط: 2 :1419 هـ -1999م). ص: 437/1.

الفصل الأول :

وظيفــة الإيمــان
بين التحقق وعدم التحقق

المبحث الأول : أسباب عدم تحقق وظيفة الإيمان

المبحث الثاني : سبل تحقق وظيفة الإيمان

سبق وأن عرفنا أنّ الإيمان، إّنما هو اعتقاد بالجنان، وإقرار باللّسان، وعمل بالأركان، وهذا يعني أنّ الإيمان يحمل بين طّياته، وظيفة عملية يسعى إلى تحقيقها في أرض الواقع، وظيفة تبدو جلّية، واضحة، لما لها من فاعلية في كافّة مجالات الحياة الإنسانية، دون استثناء ، بحيث تجعل من الفرد المؤمن، فردا متمّيزا عن غيره، بما يصدر عنه من أفعال وتصرّفات، لا بما يعتقده ويكّنه في قلبه من معتقدات باردة، مّيتة، لا أثر لها في حياة البشر.

فالإيمـان الحقـيقي إذن، هو "قوّة دافعة، وطاقة مجمعة، فما تكاد حقيقته تستقرّ بالقلب، حتّى تتحرّك لتعمل، ولتحقّق ذاتا في الواقع، ولتوائم بين صورتا المضمرة، وصورتا الظّاهرة"[1]، لكنّا إذا ما

---

[1] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. (دار الشروق: بيروت- لبنان والقاهرة – مصر، ط: 16: 1410هـ-1990م). ص: 3353/6.

ألقينا نظرة خاطفة على ما يجري في واقعنا اليوم، فإنّا سنلاحظ أنّ الإيمان –للأسف- ما عاد قوّة دافعة، بـل صـار قـوّة خـامدة، ولا عاد طاقة مجمعة، بل صار طاقة مبدّدة، لا تكاد تستقرّ بالقلب، لذا ما استطاعت أن تبرز وظيفتها في الواقع، ولهذا سأحاول في هذا المبحث، بيان الأسباب الّتي أدّت إلى التّنافر الواضح، والتّناقض البيّن الذي يعيشه المؤمن اليوم بين اعتقاداته وبين أعماله، والظّاهر أنّ هذا لا يكون، ولـن يكون أبدا إلاّ إذا كان هناك خلل في أحد العنصرين اللّذين لا ثالث لهما؛ وهو إمّا أن تكون تلك المعـتقدات المتمسّـك بها معتقدات متهافتة، وهذا ما أثبت –ولا يزال يثبت- الواقع عكسه. ذلك أنّ الإسـلام هو الدّين الوحيد القائم على أسس رصينة، ما استطاع أحد –ولن يستطيع- تفنيدها. أو أن يكون المعتقد في حدّ ذاته هو مكمن الخلل، وهنا مربط الفرس، فمعلوم أنّ الإنسان تعتريه أحوال مختلفة ومـتعدّدة، قـد تتحوّل إلى أسباب حائلة دون تحقّق وظيفة إيمانه، وهاته الأسباب إمّا أن تكون متعلّقة بالفـرد، باعتـباره كائـنا مستقلاّ بذاته عن غيره، وإمّا أن تكون متعلّقة بالفرد، باعتباره لبنة، تكوّن بالاشتراك مع غيرها صرح المجتمع، وبالتّالي تصير أسبابا متعلّقة بالمجتمع.

المطـلب الأول

الأسباب المتعلقة بالفرد

ما يجعل الفرد ضعيف الإيمان، لا يقوى على مواجهة الواقع، ولا على تغييره أو إصلاحه، هو أحد الأمرين –أوكلاهما-؛ أوّلهما انسياقه لشهواته وأهوائه، الّتي تجعل جلّ همّه –بل همّه كله- كيفيّة تحقيقها، والوصول إليها، وهذا طبعا يكون على حساب واجباته تجاه ربّه ونفسه، وتجاه من حوله أيضا. 0.

وثانيهما؛ ابتعاده عن كلّ ما يعكّر صفو غفلته تلك، أو يقف عائقا حيال تحقيق عبوديّته، وطاعته الخالصة لتلك الأهواء والشّهوات، الّتي ما لبثت أن أسرت دنياه، ودمّرت أخراه فتركته بلا دنيا ولا دين.

ولنبدأ بالأمر الأوّل، ولنرى كيف أنّه أضعف العزيمة، وأخمد الهمّة، وسلب الإيمان نبضه، وتركه رهينا خلف قضبان الصّدور، لا يرى ولا يرى، وحار النّاس بعدها أهو موجود حقا أم معدوم ؟! !

أولا : اتباع سبل الفساد

1 = الغفلة

من بين ما يدفع المرء إلى ارتياد الفساد، والولوغ فيه، هو غفلته وذهوله عن نفسه أولا، وعمّا يحيط به ثانيا؛ فلا هو مدرك بأنّه غارق في بحر لجيّ من المعاصي، ولا هو منتبه، أو مصغ لنداءات الهدى من حوله، وقد "كان الحسن البصري[1] رضي الله عنه يقول : واعجباه لقوم أمروا بالزّاد، ونودوا بالرّحيل وهم جلوس يضحكون ! ! ! فإنّ من كان اللّيل والنّهار مطّيته فهو يسار به ولا يشعر"[1].

وقد لعلع صوت القرآن الكريم مدّويا، ليكشف اللّثام عن هذه الحقيقة منذ مئات السّنين، وليوقظ تلك النّفوس النّائمة، ويعلي تلك الهمم الواطية، ويبعث الحركة في تلك القلوب السّاكنة، الميّتة، فقال تعالى: ﴿ اقترب للنّاس حسابهم وهم في غفلة معرضون (1) ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون (2) لاهية قلوبهم ﴾ [الأنبياء 1-3]، غير أنّ الغفلة لا تزال تغشى واقعنا، وخيوطها لا تزال تلف حياتنا، حتى كادت تخفي كلّ قبس من نور، يحاول التّسلّل إلينا؛ فقد جعلتنا الغفلة نفرّط في كلّ ما هو غال ثمين، في مقابل الحصول على كلّ ما هو فان زهيد، جعلتنا نفرّط في الشّباب، والصّحة، والغنى، وحتّى الحياة بأكملها، للحصول بعدها على أمتعة الحياة الزّائلة، الفانية، والله ربّنا يقول: ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ [النّساء : 77].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))[2]، ونحن: لا حياة لمن تنادي. ! !

2= الإفراط في اتّباع الشّهوات.

يعتبر الإفراط في اتّباع الشّهوات، والانغماس في تحقيقها، من أهمّ الأسباب الّتي تساهم في تعطيل وظيفة الإيمان وفاعلّيته؛ ذلك أنّ الإفراط في حبّها، يؤدّي إلى إضاعة مزيد من الوقت الثّمين، الّذي كان من المفروض، أن يقضى في آداء واجبات إيمانية معّينة، ومن جهة أخرى، يؤدّي إلى الوقوع في منهيات كثيرة، أمرنا بالابتعاد عنها ، نذكر كمثال على ذلك: الإفراط في حبّ المال قد يؤدّي إلى استحلال

---

[1] : هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فنّ ؛من علم وزهد وورع وعبادة. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بالمدينة، وتوفي بالبصرة سنة

110هـ. انظر وفيات الأعيان وأنباء ابنائي الزمان لـ: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. (تح: إحسان عباس، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، دط، دت) ص: 2/69-72.

[1] : تبصرة الغافل وتذكرة العاقل لـ: محمد الطيّب المريني (تح: بسام محمّد بارود، المجمع الثقافي: أبو ظبي- الإمارات العربية، ط 1: 1999). ص: 29.

[2] : أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين لـ: محمد بن عبد الله، أبي عبد الله الحاكم النيسابوري. (تح: مصطفى عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط: 1411هـ-1990م). كتاب: الرقاق، رقم: 7846-4/341.

كسبه عن طريق الرّبا، وقد يؤدي إلى الامتناع من إعطاء الزكاة، وقد يؤدي إلى السّعي المتواصل لكسبه، وإهمال بقّية الواجبات والفرائض كالصلاة، والعناية بالأهل...الخ.

وقد تعرّض القرآن الكريم، إلى مسألة حبّ الشّهوات، فقال تعالى: ﴿ زين لّناس حبّ الشهوات من الّنساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدّنيا والله عنده حسن المآب ﴾ [آل عمران: 14].

ففي هذه الآية الكريمة، بّين الله تعالى، الشّهوات الّتي يميل الإنسان إلى تحقيقها وقد استفتح تعالى بقوله: ﴿ زّين لّناس﴾، حيث صيغ الفعل بصيغة المجهول للإشارة بأنّ الّتركيب الفطري للعباد، يتضمّن الميل إلى تلك الشّهوات، وأّنها محّببة إليهم ومزّينة لهم[1]، وقد سلك القرآن الكريم مسلك الوسطية في الّتعامل مع هذه الشّهوات المرغوبة، إذ لم يعمد إلى كبتها، وإهمال شأنها، فوجودها هام جدّا لدفع عجلة الحياة نحو المستقبل، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القّيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾ [الأعراف: 32]، بمعنى "قل لهم على جهة الّتوبيخ"[2] على هذا الّتحريم، الّذي ما أنزل الله به من سلطان. كما نجده أنكر على أولئك المترهبنين الذّين غالوا في التقشّف، وإهمال الحياة؛ فقال تعالى: ﴿ رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها﴾ [الحديد: 27].

والمعنى "وابتدعوا لأنفسهم رهبانية، ما شرعناها لهم، ولكّنهم ابتغوا بها رضوان الله، فقبلها الله منهم"[1] لكّنهم ﴿ما رعوها حقّ رعايتها ﴾ ؛ "أي ما قاموا بها، ولا أدّوا حقوقها"[2].

وفي مقابل هذه الوسطية، نلاحظ أنّ القرآن الكريم ينكر على أولئك الّذين انغمسوا في الشّهوات، وانساقوا وراءها، حّتى صارت هي الحياة، وأضاعوا كلّ ما وراءها، فقال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة واّتبعوا الشهوات فسوف يلقون غّيا﴾ [مريم:59].

---

(1): انظر : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 373/1.

(2): الجواهر الحسان في تفسير القرآن عبد الرّحمان الثعالبي. (تح: أبو محمّد الغماري الإدريسي الحسيني، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط1: 1416هـ-1996م). ص: 540/1.

(1): التحرير والتنوير لـ: محمد الطاهر بن عاشور. (الدار التونسية: تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، دط، دت) ص: 423/27.

(2): تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنّان لـ: عبد الرحمان بن ناصر السعدي. (تح: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة: بيروت-لبنان، ط: 1: 1423هـ-2002م). ص: 843.

إذن فالقرآن الكريم "لا يشير إلى كبتها –أي الشّهوات- وقلّتها، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها، وتخفيف حدّتا، واندفاعها، وعلى أن يكون الإنسان مالكها، متصرّفا فيها، لا مالكة له متصرّفة فيه، وعلى تقوية روح التّسامي فيه، والتّطلع إلى ما هو أعلى"[3]، لكنّنا اليوم، قد انحرفنا عن هذا المسلك القرآني، واتّبعنا مسلكا مختلفا عنه تماما، مسلكا حذّر منه الله تعالى، وتوعّد سالكيه، ونبّه إلى عواقبه الوخيمة، الأليمة؛ إنّه مسلك الضّياع في قفار الشّهوات، وإرخاء الحبل لها، حتّى تأتي على الإيمان فلا تبقي منه شيئا إلاّ هيكله؛ إذ تسلبه فاعليته وحيويّته، وتفقده نشاطه وحركيّته، وتذيب قواه في تحقيق مآرب النّفس الكثيرة، واتّباع أهوائها، التي لا تنقضي إلاّ بانقضاء العمر.

إذن فاتّباع الشّهوات دون ضابط يضبطها، أو حتى يحدّها، أو قيد يحرسها، سوف يوقع الفرد المؤمن، من حيث لا يشعر في مطّبات خطيرة، لا تحمد عقباها، ولعلّه لم يتوقّع بلوغها يوما، ولا حتّى مقاربتها؛ ذلك أنّ الشّهوات، إنّما هي حبل من حبال الشّيطان يلفّه حول عنق المؤمن، كلّما ازداد اتّباعا لها، ازداد اختناقا، وهي سبيل من سبله، يقطعه المؤمن خطوة خطوة، حتّى يصل في نهايته إلى أدنى الدّركات، ولقد حذّر الله تعالى، عباده المؤمنين من اتّباع خطوات الشّيطان، والوثوق بها، لأنها لا تؤدي إلاّ إلى الفحشاء والمنكر، فقال عزّ من قائل: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تتّبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشّيطان فإنّه يأمر بالفحشاء والمنكر ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكنّ الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم ﴾ [النور: 21].

لنتأمّل قوله تعالى: ﴿ لا تتبعوا خطوات الشّيطان﴾، إنّه تشبيه "بيئة الشّيطان يمشي، والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشّيطان"[1]، ولعلّ في هذا التّشبيه إشارة إلى أنّ الشّيطان لا يدعو المؤمن إلى الفحشاء والمنكر مباشرة، ودفعة واحدة، وإنّما يدعوه إليها خطوة فخطوة، إلى أن يجذبه إليها، ويوقعه بين مخالبها، من دون أن يشعر، وذلك لأنّ الدّعوة إلى ذنب عظيم دفعة واحدة، سوف تقابل بردّ فعل عظيم أيضا، والأمثلة على ذلك كثيرة منها؛ أنّ الشّيطان لا يدعو إلى الزّنا مباشرة، وإنّما يدعو إلى النّظر أوّلا، ولا يدعو إلى القتل مباشرة، وإنّما يدعو إلى الغضب والعراك أوّلا، وهو لا يدعو إلى الفرقة والتّفرق مباشرة، وإنّما يدعو إلى النّميمة أوّلا، وهو لا يدعو إلى التّباغض والتّنافر مباشرة، وإنّما يدعو إلى الغيبة أوّلا، ...وهكذا.

---

[3] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 373/1.
[1] : التحرير والتنوير لـ: ابن عاشور. ص: 186/18.

ولعلّ من بين أهمّ خطوات الشّيطان ومسالكه، لاصطياد المؤمن، وقذفه في أتون المعاصي، وإبعاده وإخراجه عن رحاب طاعات الله، وسلبه حلاوة الإيمان، وسلخه منه، حتّى يصير إيمانا صوريّا، هو سبيل الشهوات.

أ/ شهـوة النّسـاء

ترى كيف يؤدي اتّباع شهوة النّساء إلى الإخلال بوظيفة الإيمان، وإلى إضعافه في نفس المؤمن؟ !

إنّ أوّل شهوة ذكرها الله تعالى في آية آل عمران، كانت: النّساء، وما أظن أنّ ذلك عبثا، وإنّما هو تنبيه إلى خطورتا، وإلى درجة تأثيرها السّلبي على الفرد المؤمن، وقد أكدّ هذا، رسولنا الكريم ﷺ بقوله : ((ما تركت بعدي في النّاس، فتنة أضرّ على الرّجال من النّساء)) [1]، وصدق الصّادق الأمين، فمعظم النّساء –إلاّ من رحم الله- بدل أن يعنّ الرّجال على طاعة الله، يعّنهم على معصيته ! ! إذ يخرجن سافرات، متكشّفات إلى الشّوارع والطّرقات، أو المدارس والجامعات، أو غيرها من الأماكن، وهنّ ذوات كيد عظيم. موجّه في غالبّيته نحو الرّجال، ولعلّ أوضح مثال على ذلك، ما ساقه لنا القرآن الكريم، من قصة امرأة العزيز، مع سّيدنا يوسف –عليه السلام- وكيف أنّها أغرته، ثم اتّهمته، ثمّ حكمت عليه بالسّجن، في لحظات قليلة متتابعة، حيث قال تعالى: ﴿واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سّيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوء ا إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم﴾ [يوسف:25]، وأيّ كيد أعظم من هذا الكيد، الّذي قضى يوسف بسببه سنين من عمره في السّجن، ثمنا لكلمة قالها: ﴿ معاذ الله﴾ [يوسف: 23].

ومن أبرز مكائد النّساء للرّجال، سحبهم كما ذكرنا من دائرة الطّاعة إلى دوامة المعصية، وكمثال على ذلك ما نلاحظه من لا فاعلية إيمان الرّجال خارج البيت، فقد تعطّلت وظيفته الّتي تقتضي غضّ البصر مثلا، والامتثال لقوله تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون ﴾ [النور: 30]، وهذا كلّه من كيد النّساء اللّواتي ما تركن للرّجال أيّ سبيل إلى تحقيق هذا الأمر. وذلك لأنّ الرّجل، أصبح يجد المرأة أمامه حيثما اتّجه، وأينما كان؛ فهو يراها حين ذهابه وإيّابه، سواء إلى عمله، أو فسحته، أو أثناء تسوّقه أو في أي مكان آخر، حتّى كادت

---

[1] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الرّقاق، باب: أكثر أهل الجنّة الفقراء، وأكثر أهل النّار النّساء، وبيان الفتنة بالنّساء، رقم: 2740 و2741. ص: 2097/4-2098 ، كما أخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: النّكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، رقم: 4808 5، ص: 1959/9.

المرأة –للأسف- أن تتحوّل إلى ظلّ للرّجل، وليت الأمر يقف عند هذا الحدّ، فتخرج –إن كان ولا بدّ- كما أمرت أن تخرج، مستورة، محترمة، بل إنا أبت إلاّ أن تخرج متكشّفة، متعطّرة، حتّى إنّه إن لم يرها ببصره، انتبه إليها من لين حديثها، والله العلي يقول: ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ﴾[الأحزاب: 32]. أو من نظرات عيونا، ونعلم "أنّ الله –سبحانه وتعالى- قد جعل العين مرآة القلب، فإذا غضّ العبد -أو الأمة- بصره، غضّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره، أطلق القلب شهوته، والنّظرة إذا أثّرت في القلب، فإن عجّل الحازم، وحسم المادّة من أوّلها، سهل علاجه، وإن كرّر النّظر، ونقّب عن محاسن الصّورة، ونقلها إلى قلب فارغ، فنقشها فيه، تمكّنت المحبّة، وكلما تواصلت النّظرات كانت كالماء يسقي الشّجرة، فلا تزال شجرة الحبّ تنمو، حتى يفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن"[1]، والنّساء في عصرنا –إلاّ من هدى الله- ما أظنّ أنّهن يردن من نظراتن إلاّ فتح أبواب الشّياطين، وهنّ بذلك يضربن عرض الحائط، قوله تعالى: ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبن...﴾ [النور: 31].

وفوق هذه الفتن الّتي تثيرها النّساء –وغيرها كثير- لا يزلن مصرّات على الوقوف في وجه استقامة عباد الله المؤمنين، فبعد أن أفسدن عليهم طاعة الله تعالى، بعدم قدرتم على غضّ أبصارهم "لا يزلن يفسدنا –أي طاعة الله- عليهم، بالوقوف حيال صيانة أعراضهم وكرامتهم، ويلقين بم في حمإ المعاصي، وذلك بإثقال كواهلهم بمهور لن يستطيعوا تحصيلها إلاّ بعد فناء أنصاف أعمارهم أو أكثر ! !، إنّها معادلة غريبة، متناقصة نعيشها في الواقع؛ بضاعة كاسدة، وأثمان باهضة، وزبائن بائسة،خاوية، والنتيجة لا محالة سرقة، ونب واختلاس، في غسق اللّيل وفي وضح النّهار.

هذه بعض الأمثلة التي بّينت كيفّية سحب شهوة النّساء، وظيفة إيمان الفرد، فهي تخرجه من دائرة الطاعات، وتلقي به في هاوية المعاصي، ليصبح بعدها فردا عاصيا عاجزا عن الأمر بالمعروف، لأنه لا يأتمر به، وعن النّهي عن المنكر، لأنه لا ينتهي عنه، فصار إيمانه، إيمانا لفظيا، لا أثر له في حياته، إيمان يكاد يتساوى وجوده مع عدمه.

ب/ البنــون

---

[1] : انظر روضة المحبّين ونزهة المشتاقين لـ: شمس الدين محمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية: (دار الكتب العلمية: بيروت ـ لبنان، دط، د.ت). ص: 92، 94، 95.

يبّين الله تعالى، في كتابه العزيز، أنّ الإفراط في حبّ البنين، وكذا الإفراط في الاهتمام بم، يضعف قوّة الإيمان، لدرجة أّنه قد يخون ما عاهد الله، ورسولهﷺ[1]، ويقطع ميثاقه معهما، يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ يا أّيها الّذين آمنوا لا تخونوا الله والرّسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون (27) واعلموا أّنما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عنده أجر عظيم (28) ﴾ [الأنفال:27-28].

يوضّح حديث رسول الله ﷺ أنّ الانسياق وراء محّبة البنين دون ضابط، يؤدّي إلى خيانة العهد المقطوع مع الله تعالى، الّذي يقتضي محّبته وطاعته، وطاعة نبّيهﷺ ؛ إذ يقول: ((لولد محزنة، مجبنة، مجهلة، مبخلة))[2] فقوله : مبخلة، مجبنة على وزن "مفعلة"، "من البخل والجبن، أي : سبب لبخل الأب وجبنه، ويحمل أبويه على البخل، وكذلك على الجبن، فإّنه يتقاعد عن الغزوات والسّرايا، بسبب حبّ الأولاد ويمسك ماله لهم"[3].

وقوله: "مجهلة"، "لكونه يحمل على ترك الرّحلة في طلب العلم، ..."محزنة"، يحمل أبويه على كثرة الحزن، لكونه إن مرض حزنا، وإن طلب شيئا لا قدرة لهما عليه حزنا، فأكثر ما يفوت أبويه من الفلاح والصّلاح بسببه، فإن شبّ وعقّ، فذلك الحزن الدّائم، والهمّ السّرمدي اللاّزم"[1] وكلّ هذه الصّفات، الّتي يّتصف با الأولياء، تفضي إلى ترك الأوامر الإلهية، وإهمالها، وهذا يعني تضييع وظائف معّينة للإيمان، أو تفضي إلى اقتراف المعاصي؛ وهذا يعني تشويه صورة الإيمان، وطمس معالم وظيفته، ودليل هذا : أنّ الله تعالى : يأمر عباده بالجهاد قائلا: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [التوبة:41]، وقد رأينا أن الولد يقعد عن الجهاد. كما أّنه تعالى يقول :﴿ ّيا أّيها الّذين آمنوا انفقوا مّما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة والكافرون هم الظّالمون﴾ [البقرة: 254]، ويقول أيضا : ﴿ إقرأ باسم رّبك الذّي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) ﴾ [العلق:1-2]، فمن خلال هاتين الآيتين الكريمتين، يأمر الله تعالى

---

[1] : انظر مفاتيح الغيب لـ: فخر الدين الرّازي. (دار الكتب العلمية: بيروت ـ لبنان، ط: 1: 1411هـ ـ 1990) ص: 15 /122.

[2] : أخرجه البيهقي في سننه. (تح: محمّد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز: مكة ـ السعودية، ط: 1414هـ-1994م) كتاب: ، باب: من قال لا تجوز شهادة الوالد لولده ... ص: 202/10، وأخرجه ابن ماجه في سننه، (تح: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر: بيروت ـ لبنان، دط، دت). كتاب: الأدب، باب: برّ الوالدين ... رقم: 3666. ص: 1209/2، وأخرجه الحاكم في مستدركه؛ كتاب: ، باب: مناقب الحسن والحسين. الرقم: 4771. ص: 179/3. وقال عنه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرّجاه.

[3] : شرح سنن ابن ماجة لـ: السيوطي وآخرين، (قديمي كتب خانة: كراتشي، دط، دط) ص: 261/1. نقلا عن قرص: المكتبة الألفية السنّة النبوية.

[1] : فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير لـ: محمّد عبد الرؤوف المناوي. (دار الفكر: بيروت-لبنان، دط، دت). ص: 403/2.

عباده بالإنفاق، وبطلب العلم، لكنّ الحب الشّديد للولد، يقف حجر عثرة، حيال الائتمار بما؛ وبالّتالي صار سببا في تثبيط وظيفة الإيمان، ومحو مقتضياته على أرض الواقع.

وقد ضرب لنا الله تعالى في كتابه العزيز، مثالين رائعين، لإيضاح كيفّية الّتعامل مع البنين، وما هي الحدود الّتي تحدّها، والّتي يجب الوقوف عندها، وهذان المثالان، يقعان على طرفي الّنقيض؛ فبينما يبّين المثال الأوّل نتيجة الانسياق والإفراط في محّبة الولد، وكيف أّنها تؤدّي إلى الانحراف عن أوامر الله تعالى، نجد في الطّرف المقابل، نتيجة التحكّم في الذّات، وضبط عاطفة الأبوة المحّبة للولد، وما تؤدّي إليه من ارتقاء وقرب من الله تعالى.

المثـ ـ ـال : 1

ويتمثّل في قصّة سّيدنا نوح –عليه السّلام- مع ابنه الشقّي، ويبّين لنا كيف أنّ محّبة نوح لابنه، ولهفه عليه، وحرصه على سلامته، جعله يدعو الله –عزّ وجلّ- أن ينجيه رغم كفره بالله تعالى، وهذا ما جرّه لمعاتبة الله تعالى له. ويصوّر لنا القرآن الكريم، هذه القصّة، بقوله تعالى: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (42) قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (43) قيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظّالمين (44) ونادى نوح رّبه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإن وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين (45) قال يانوح إّنه ليس من أهلك إّنه عمل غير صالح فلا تسألنّ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين (46) قال ربّ إّني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلّا تغفرلي وترحمني أكن من الخاسرين (47) ﴾ [هود: 42-47].

فالله تعالى بعدما، وصف لنا الحوار الّذي دار بين نوح –عليه السّلام- وبين ابنه، وهما في خضمّ تلك الأجواء المهولة، المرعبة، يسوق لنا نداء نوح –عليه السّلام- قائلا : ﴿ونادى نوح رّبه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق﴾ "أي أنّ كلّ وعد تعده ، حق، لا يتطّرق إليه الخلف، وقد وعدت أن تنجي أهلي، فما حاله أو فما له لم ينج، ... ﴿ وأنت أحكم الحاكمين﴾، لأّنك أعلمهم وأعدلهم،

أولأئك أكثر حكمة من ذوي الحكم"[1]، فهذه عاطفة الأبوة، تسعى للاطمئنان على الولد، وتسال عن حاله.

غير أنّ الجواب الإلهي، جاء بما يشبه العتاب والتّأنيب ﴿ قال يا نوح إنّه ليس من أهلك﴾، "فالأهل عند الله وفي ميزانه، ليسوا قرابة الدّم، إنّما هم قرابة العقيدة، وهذا الولد لم يكن مؤمنا، فليس إذن من أهله، وهو النّبي المؤمن"[2]. ثم قال تعالى :﴿ إنّه عمل غير صالح ﴾ فهو إمّا للتّعليل لما سبق، فيكون "تعليل لنفي كونه –ابنه- من أهله وأصله، إنّه ذو عمل فاسد، فجعل ذاته، ذات العمل للمبالغة"[1]، وإمّا أن يكون المقصود به أنّ "سؤالك إيّاي أن أنجي كافرا عمل غير صالح "[2] ثم يختم تعالى بقوله: ﴿ لا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إني أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾، لأنّ استثناء من سبق عليه القول من أهله، قد دلّه على الحال، وأغناه عن السّؤال، لكن أشغله حبّ الولد عنه، حتّى اشتبه عليه الأمر"[3]. ولهذا عدّ الإفراط في حبّ البنين، مّما يضعف صلابة الإيمان، ويقلّل وظائفه، إذ دوما يدعو ذلك الحبّ المفرط إلى التّنازل عن بعض الواجبات، كالجهاد وطلب العلم،...الخ، أو قد يؤدّي إلى مقاربة المنهيات، وفي هذا تشويه للإيمان ووظيفته الإيجابية في الحياة.

مثـ ـال: 2

توضّحه قصّة سّيدنا إبراهيم –عليه السّلام- مع ابنه إسماعيل –عليه السّلام- وحادثة الأمر بذبحه، الّتي يرويها القرآن الكريم كما يأتي :

قال إبراهيم عليه -السّلام- بما حكاه القرآن على لسانه: ﴿ رَب هَبْ لِي مِنَ الصالِحِينَ (100) فَبشرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَما بَلَغَ مَعَهُ السعْيَ قَالَ يَا بُنَي إني أَرَى فِي الْمَنَامِ أني أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصابِرِينَ (102) فَلَما أَسْلَمَا وَتَلهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدقْتَ الرؤْيَا إِنا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِن هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106)﴾[الصّافات:100-106].

---

(1) : تفسير البيضاوي: المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل لـ: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله أبي عمر محمّد الشيرازي البيضاوي. (تح: عبد القادر عرفات، دار الفكر: بيروت ـ لبنان، ط: 1416هـ- 1996م). ص: 238/3 .

(2) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 1879/4.

(1) : أنوار التنزيل لـ: البيضاوي. ص : 283/3.

(2) : الوسيط في تفسير القرآن المجيد لـ: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي. (تع: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط: 1: 1415هـ-1994م). ص: 576/2.

(3) : أنوار التنزيل لـ: البيضاوي. ص: 238/3 .

إنّ هذه الحادثة العظيمة، قد أثبتت للنّاس أجمعين، قوّة حبّ سيّدنا إبراهيم –عليه السّلام- لله تعالى، وبيّنت مقدار خضوعه لأوامره، وحرصه على طاعته، والتّسليم لحكمه وأمره، مهما بلغت صعوبته ومشقّته. ولو كان ذاك الأمر هو ذبح ولده الو حيد، الّذي رزقه على كبر من عمره، وغربة من أهله، وفرقة لوطنه، إنّه التّسليم لأمر الله الحبيب، قال تعالى: ﴿فلمّا أسلما وتلّه للجبن﴾ أي : "أكّبه على الجبين"[1]، فهذا عزم، وإتيان على مقدّمات الذّبح، كلّ ذلك لأنّ أمر الله، يعلو كلّ أمر، وأنّ محّبته تعالى، لا تضاهيها أو تساميها محّبة أخرى، ولو كانت محّبة الوالد بولده، فلذة كبده، وامتداد عمره، وحامل لوائه من بعده؛ إنّها محّبة، يهون لأجلها كلّ عزيز، ويبذل لنيلها كلّ غال، وصدق الله إذ قال: ﴿ والّذين آمنوا أشدّ حبّا لله ﴾ [البقرة: 165].

14

جـ/ المـال

كلمة جامعة لقناطير الذّهب والفضّة، والخيل المسوّمة، والأنعام والحرث، والمال غير مذموم لذاته، فقد قال الرّسولﷺ : ((لا حسد إلاّ في إثنين: رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هلكته، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها)) [2]، غير أنّ المذّمة تلحقه من وجوه عدّة، تخرجه من دائرة الوسيلة، الّتي يتوصّل بها إلى تحقيق مرضاة الله، وتدخله دائرة الغاية، الّتي تجعله كالصّنم المعبود، حيث ينصبّ جهد العبد على جمعه وتكريسه، ثمّ النظر إليه ! ! وقد نّبه تعالى إلى شدّة حبّ العباد للمال في قوله : ﴿ وتحّبون المال حبّا جمّا ﴾ [الفجر: 20].

وأصل تلك الوجوه، الّتي تدخل المال دائرة المذّمة، تحوّل المال إلى شهوة تتملّك رقاب العباد، فيصير بذلك "فتنة قلّ من يصبر عليها ويسلم من آفاتها، لأنها كثيرا ما تطغى على حدّها، حتّى تسيطر على قلب صاحبها"[3]، ولذلك قالﷺ : ((إنّ لكلّ أمّة فتنة، وفتنـــة أمّتي المال))[1]، ويمكن تلخيص بعض مظاهر فتنة المال فيما يأتي :

---

(1) : الدر المنثور في التفسير المأثور لـ: عبد الرحمان جلال الدين السّيوطي. (دار الفكر: بيروت ـلبنان، ط: 1414هـ- 1993م) . ص: 111/7.

(2) : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه، رقم : 815. ص: 558/1-559. وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: فضائل القرآن، باب: الاغتباط في العلم. رقم: 73 ، ص: 1 /39.

(3) : منهج الإسلام في تزكية النّفس واثره في الدّعوة إلى الله تعالى لـ: أنس أحمد كرزون. (دار نور المكتبات: جدة –

المملكة العربية السعودية، ودار ابن حزم: بيروت – لبنان: ط: 1421هـ-2001م) ص 457.

❖ تزايد محّبة المال في قلب العبــد : فاستيلائها عليه يؤدّي إلى تناقص محّبة الله تعالى، ومحّبة رسولهﷺ ، ومعلوم أنّ محّبته تعالى ومحّبة رسولهﷺ من أوّل وظائف القلب الإيمانية، فرسول اللهﷺ يقول: ((ثمّ لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ولده، ووالده والّناس أجمعين))[2]، وقال القاضي عياض[3] –رحمه الله-: "ومن محبتهﷺ نصرة سّنته، والذّب عن شريعته، ويتمّنى حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه،... وإذا تبّين ما ذكرناه، تبّين أنّ حقيقة الإيمان، لا تتمّ إلاّ بذلك، ولا يصحّ الإيمان إلاّ بتحقيق إعلاء قدر النبيّ ﷺ وم لته على كلّ والد وولد، ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا، واعتقد سواه فليس بمؤمن"[4]، إذن فكلّ ما ذكر عبارة عن وظائف حيوية، بارزة في الحياة، يؤدّيها الإيمان الفعّال، الحقيقي، الإيمان الذي يبدي أوامر الله تعالى للعالمين، ويبدو -أيضا- من خلالها.

كذلك مّما يوضّح أّنه من بين أوّل الوظائف الوجدانية، الّتي يؤدّيها الإيمان، هي محّبة الله ورسوله ﷺ، وإيثارهما على كلّ ما عداهما، قوله تعالى: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونا أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حّتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: 24]، ففي هذه الآية الكريمة، يأخذ السّياق في "استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللّذائذ، ليضعها كلّها في كفّة، ويضع العقيدة ومقتضياتا في الكفّة الأخرى، الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدّم والّنسب والقرابة والزّواج)، والأموال والّتجارة (مطمع القطرة ورغبتها)، والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذّتا)...وفي الكفّة الأخرى: حبّ الله ورسوله وحبّ الجهاد في سبيله، وإلاّ فلا أجر ولا ثواب "[1]، إذ أنّ الإيمان في هذه الحالة لم يؤدّ وظائفه الّتي أوكلت إليه.

---

[1] : أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: الرّقاق، رقم: 7896. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ص: 354/4 . وأخرجه الترمذي في سّننه. (تح: أحمد محمّد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي: بيروت- لبنان، دط، دت) كتاب: الزهد، باب: ما جاء في أنّ فتنة هذه الأمّة في المال. رقم 2336 ، ص: 569/4. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، غريب.

[2] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في أنّ فتنة هذه الأمة في المال، رقم: 44، ص: 1/ 67، وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: الإيمان، باب: حب الرسولﷺ من الإيمان، رقم: 14، ص: 1/ 14.

[3] : القاضي عياض: (496هـ-544هـ): هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي، السبكي، المالكي، يعرف بالقاضي عياض؛ محدث، حافظ، مؤرخ، ناقد، مفسر، فقيه. انظر معجم المؤلفين لـ: عمر رضا كحالة، (مؤسسة الرسالة: بيروت- لبنان، ط1: 1414هـ- 1993م). ص: 588/2.

[4] : شرح النووي على صحيح مسلم لـ: النووي، ص: 16/2.

[1] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 1615/3 – 1616.

❖ التكبّـر والتّفـاخـر : وهما من بين الصّفات، الّتي يجرّ إليها الإفراط في حبّ المال وفي جمعه وتملّكه، وأوضح مثال ضربه الله تعالى في ذلك، قصّة قارون، الذي قال عنه تعالى:﴿إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وأتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوّة إذ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين (76) وابتغ فيما أتاك الله الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا وأحسن كما احسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إنّ الله لا يحبّ المفسدين(77) قال إنّما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة واكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: 76-78]، فهذه القصّة، "تعرض سلطان المال والعلم وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق، وتقرّر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزّينة إلى جانب قيمة الإيمان والعمل الصالح"[2] إذن، فالإفراط في حبّ المال يؤدي إلى إضعاف وظيفة الإيمان من خلال :

- إهمال وظائف الإيمان ومقتضياته، وإحلال المعاصي محلّها، فالتكبر يحلّ محلّ التّواضع، والجحود يحلّ محلّ الشّكر، والقتر يحلّ محلّ البذل،...الخ.
- تشويه صورة الإيمان، بارتكاب تلك المعاصي، إذ توحي تلك المظاهر بأنّ الإيمان لا علاقة له بإصلاح الفرد أو المجتمع، ولا تأثير له عليهما.

❖ الإعراض عن ذكر الله تعالى، وتناسي الموت، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر (1) حتّى زرتم المقابر ﴾ [التّكاثر: 1-2]، وقد قالﷺ حينما قرأ ﴿ ألهاكم التكاثر﴾: ((يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا بن آدم من مالك، إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت))[1]، وقال تعالى: ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (9) وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لو لا أخّرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصّالحين (10) ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (11)﴾ [المنافقون: 9-11].

فهذا تنبيه بليغ من الله تعالى لعباده المؤمنين بألاّ "يشغلهم الاهتمام بتدبير أمور الدنيا، والاعتناء بمصالحها، والتمّتع بها عن الاشتغال بذكر الله –عزّ وجلّ- من الصّلاة وسائر العبادات المذكّرة للمعبود

---

[2] : المرجع نفسه. ص: 2710/5.

[1] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الزهد والرّقاق، باب: باب، رقم: 2958-2959، ص: 2273/4، وأخرجه الحاكم في مستدركه، باب: تفسير ألهاكم التكاثر، رقم 3969، ص: 582/2. كتاب: التفسير وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب:تفسير القرآن، باب: ومن سورة ألهاكم، رقم 3354، ص: 447/5.

الحّق –جلّ شأنه-، فذكر الله مجاز عن مطلق العبادة...،لأنّ العبادة سبب لذكره سبحانه، وهو المقصود في الحقيقة منها"[2]. ثم يردف الله هذا التّبليغ، ببيان حالة العبد، حينما تأتيه أمارات الموت، وكيف يتحسّر ندما على ما ضّيعه من عمره في اقتراف المعاصي، وإهمال الطّاعات؛ كذكر الله، والبذل والعطاء في سبيله، وكلّ هذا مّما يقتضيه الإيمان الحيّ، ثمّ هو يرجو من الله تعالى، تمديد عمره، لعلّه يعمل صالحا، لكن للأسف، لا ينفع حينها ندم ولا رجاء، لأنّ الأجل قد صار قضاء.

- ❖ عدم آداء الواجبات المفروضة : ذلك أنّ شدّة حبّ المال، تثني العبد عن آداء ما افترضه الله عليه، ومثال ذلك، ما ذكره الله تعالى، من شأن أصحاب الجّنة، التي كانت "لرجل يؤدي حقّ الله منها، فمات، فصارت إلى أولاده، فمنعوا النّاس خيرها وبخلوا بحق الله، فأهلكها الله تعالى، بحيث لم يمكّنهم دفع ما حلّ بم"[1]، قال تعالى: ﴿ إّنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجّنة إذ أقسموا ليصر مّنها مصبحين (17) ولا يستثنون (18) فطاف عليها طائف من رّبك وهم نادمون (19) فأصبحت كالصّريم (20)﴾ [القلم: 17-20].

هذه بعض المهاوي، الّتي يؤدي إليها تسلّط حبّ المال على العبد، وقد تبّين كيف أّنه يستلّ من قلب المؤمن خشية الله تعالى ومحّبته شيئا، فشيئا، ويجّره إلى معصّيته والخوض في محارمه دون تردّد.

3= طـول الأمـل

ليتمكّن المؤمن من توظيف إيمانه، وجعله فّعالا في حياته، عليه أن يستغلّ وقته على أحسن وجه يرام، وأن يعلم أنّ إضاعة كلّ دقيقة أو ثانية، إّنما هي إضاعة لجزء ثمين من حياته، لا يمكنه استرجاعه بأيّ حال من الأحوال، "ولهذا يعدّ طول الأمل؛ الّذي أكثر "ما يستعمل فيما يبعد حصوله"[2]، من أهمّ الأسباب، الّتي تعطّل وظيفية الإيمان، وتسلبه نشاطه وحيويته؛ فطول الأمل يلهي المؤمن عمّا ينتظره من واجبات، وينسيه، ما قد يصيبه من عواقب وخيمة جرّاء تماطله وتسويفه ذاك، وهو الطّريق الممهّد لإضاعة الوقت، والغرق في تلبية الأماني والأهواء والشّهوات، حتّى إذا كان المرء شاّبا، جرّه طول الأمل هذا إلى ترك الطّاعة، وانتهاك المعصية، ومّناه بطول العمر، الذي يسع الخطأ والّتوبة عنه، وفي هذه الحال

---

[2] : روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني لـ: أبي الفضل شهاب الدّين السيّد محمود الألوسي. (دار إحياء التراث العربي: بيروت – لبنان، دط: د.ت). ص: 117/28.

[1] : البحر المحيط لـ: محمّد بن يوسف أبي حيّان الأندلس. (تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط: 1413:1هـ- 1993م). ص: 8 /306

[2] : فتح البيان في مقاصد القرآن لـ: أبي الطيّب صدّيق بن حسن بن علي الحسيني القنّوجي. (دار الكتب العلمية : بيروت- لبنان، ط: 1: 1420هـ- 1999م). ص: 567/3.

تكون أبواب التّذكرة والوعظ قد أغلقت بوجه هذا العبد الغافل، الّذي أسره طول الأمل، فلا عاد السّقم يردعه، ولا الشّيب يرعبه، ولا التّذكرة تنفعه، وصدق القائل حين قال:

لمّا رأيناك بعد الشّيب يا رجل ۞ لا تستقيـم وأمـر النّفس تمتثـل
زدنا يقينا بما كنّـا نصدّقـه ۞ عند المشيب يشبّ الحرص والأمل[1]

وحقّا هذا ما نبّه إليه الرّسولﷺ بقوله: ((يهرم ابن آدم ويبقى معه إثنان: الحرص والأمل))[2]. فحبل الأمل يبقى متصّلا بالعبد إلى أن تأتيه سكرة الموت بالحق، ثمّ يقال له: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: 22]. وحينذاك يكون قد خرج من الدّنيا صفر اليدين، لا يحمل معه سوى اللّهو واللّغو، اللّذين ضيّعا إيمانه، وأهدرا واجباته.

ثانيـا: الإعراض عن سبل الصّلاح

أمر الله تعالى عباده المؤمنين، بالقيام بالأعمال الصّالحات، ليتعاهد إيمانهم، فيظلّ غضّا، نديّا، مرتبطا ومتّصلا بالله تعالى، عن طريق محبّته وعبادته وذكره، والامتثال لأمره، والابتعاد عن نهيه، ولهذا كان كل انحراف عن هذه الصّالحات، أو كلّ إعراض عنها، إنّما هو شروع في الخروج من رحاب التّواصل الدّائم به تعالى، وضياع في مهاوي المعاصي والفساد، وهو في الوقت ذاته تثبيط لفاعلية الإيمان، وتقليص لدائرة وجوده في الحياة، فكلّ إهمال لأمر من أوامره تعالى، يعني إقصاء لوظيفة من وظائف الإيمان، وكلّ تجرؤ على معصيته، يعني تشويها لوظيفة الإيمان أيضا.

وعليه فإنّ الإعراض عن أيّ سبيل من سبل الصّلاح، الّتي خطّها الله تعالى لنا، يؤدي إلى إضعاف إيماننا، وإطفاء وهجه في الحياة، فهو بمثابة الدّرة الكامنة في القلب، يضيء بريقها كافة أعضاء الجسد، حينما يتعهّدها بصالح الأعمال، وقد تخبو وتندثر، وتخفيها أدران المعاصي والشّهوات، فلا يصل نورها إلى أقرب مكان، ولعلّ هذا ما وقعنا فيه اليوم، فأثر أيّما تأثير على فاعلّية إيماننا؛ إذ زيادة على إقبالنا العجيب على سبل الفساد، أعرضنا إعراضا غريبا، عن سبل الصّلاح، فوقعنا بين فكّي الرّحى، وما استطعنا النّهوض بإيماننا، إلاّ إذا بذلنا جهد جهيدا في سبيل تحقيق ذلك.

---

[1] : تبصرة الغافل للمريني. ص: 208.
[2] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الزكاة، باب: كرامة الحرص على الدّنيا، رقم: 1047. ص: 724/2. أخرجه
الترمذي في سننه؛ كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قلب الشيخ شاب حبّ اثنتين، رقم 2339. ص: 570/4، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزّهد، باب: الأمل والأجل، رقم: 4234، ص: .

أمّا الصّالحات الّتي أعرضنا عنها، والّتي كانت تضييعها سببا في تقليص وظيفة الإيمان فنذكر منها :

1= هجر القرآن الكريــم

يعدّ القرآن الكريم، المعين الأوّل، والمنبع الأساسي، الّذي يستمد منه الإيمان طاقته؛ ذلك أنّ القرآن الكريم، يؤسس لوظيفية الإيمان من خلال ما أمر به الله تعالى، ويعمل على هدم كلّ ما يحول دون تحقيق تلك الوظيفة، من خلال ما نهى عنه الله تعالى، كما أنّه يعمل على تثبيتها وترسيخها من خلال عرض القصص، الّذي يكاد يتواجد في كلّ سورة من سور القرآن الكريم، وعليه فإنّه بمقابل ذلك يكون هجر هذا القرآن الكريم، والابتعاد عنه، مدعاة إلى ضعف الإيمان، وإلى إهمال وظيفته في الحياة.

وقد نبّه الله تعالى إلى ظاهرة هجر القرآن الكريم، من خلال ما ذكره على لسان الرّسولﷺ حيث قال –عزّ من قائل-﴿ وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتخذ وا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان: 30]، فهؤلاء قوم رسول اللهﷺ من قبل "قد هجروا القرآن الّذي كانوا يّتقون أن يجذبهم، فلا يملكون لقلوبهم عنه ردّا، وهجروه فلم يتدبّره، ليدركوا الحقّ من خلاله، ويجدوا الهدي على نوره، وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم، وقد جاءها ليقودها إلى أقوم طريق"[1]. هذا هو حالنا اليوم أيضا، فنحن نهجر القرآن ولا نذكره، نؤمن به ولا نعمل بدستوره، إنّنا في واقع الأمر، نؤمن بكلام مخطوط بين دفتين، منسوب إلى الله تعالى، ولا نؤمن بوجوده دستور حقيقي، قائم بيننا، منزّل من عنده تعالى، قاد أمّتنا من قبل، وجعلها تتصدّر موكب الحضارات، ولا يزال قادرا على قيادتنا اليوم، ويجعلها ثانية قائدة لذاك الموكب.

إنّ هجرنا للقرآن الكريم اليوم، هجر يتصاعد ثانية فأخرى، ففي بداية الأمر هجرنا العمل به، ثمّ تدّبره، والآن ختمنا بهجران قراءته، الّتي هي من أضعف الإيمان ! !.

إنّ الله –عزّ وجلّ- ما أنزل القرآن الكريم، ليلاك بين الألسن، أو ليزركش بين أدفّة المصاحف، أو ليتمارى النّاس في قضاياه، إنّما أنزله، لنحيا به، ولنحيا له، نحيا لحمايته وحفظه، ونشره وتطبيقه في كافة مناحي حياتنا، مهما عظم شأننا أو صغر، "ولقد ذمّ الله تعالى اليهود، الّذين لم ينتفعوا بالّتوراة الّتي أكرمهم بها، ولم يعملوا بما جاء فيها، فشبّههم بالحمار الّذي يحمل الكتب النّافعة، ولا ينتفع بما فيها، من العلم والحكمة، وليس له إلاّ ثقل الحمل، حيث قال تعالى: ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها،

---

[1] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2561/5.

كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الّذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظّالمين ﴾ [الجمعة: 05]"[2].

ولعلّنا بتخلّينا اليوم عن العمل بما جاء به كتابنا الخالد، قد وصلنا –أونكاد- إلى هاته الدّركة المخزية، التي شبّه الله تعالى بها أولئك الّذين آمنوا بكتبه، ولم يعملوا بما جاء فيها، ولم يهتدوا بهداها.

ثمّ بعد هذه المرحلة تركنا واجب التدبّر، والله تعالى يقول: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: 24]. والمقصود بالّتدبر هو "الّتفكر في آيات القرآن الكريم ومبانيها"[3]، وكان أكثر من امتثل لأمره تعالى هذا، وانتبه إليه، وجسّده في واقعه، هم سلفنا الصالح، حيث يقول "علي ﷺ : لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدّبر فيها"[1]، و"قال ابن عباس ﷺ : لأن أقرأ البقرة وآل عمران، أرتّلهما وأتدبّرهما، أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذرمة. وقال أيضا : لأن أقرأ "إذا زلزلت" و"القارعة" أتدّبرهما، أحبّ إليّ من أن اقرأ البقرة وآل عمران تذيرا"[2].

وإذا كان هذا حال سلفنا الطّيّب، فإنّ حال المؤمن اليوم –إلا من رحم الله- حال المتهاون الذي لا يعي ممّا يقرأ إلاّ الشّيء القليل، فبعدنا عن لغة القرآن، أحدث شرخا واضحا وخطيرا، حال -ولا يزال يحول- بيننا وبين فهم ما نقرأه من آيات الذّكر الحكيم، أمّا فهم المباني، وربطها بما قبلها وما بعدها، فحدّث ولا حرج، فهذا أمر صار يعجز عنه الخاصة فما بالك بالعامّة ! !.

وفي الأخير وصلنا إلى مرحلة هجر تلاوته، ولننظر أوّلا فيما يقوله أبو حامد الغزالي[3] عن مستويات القراءة، حيث يقول : "الختم في يوم وليلة، وقد كرهّه جماعة، والختم في كلّ شهر، كلّ يوم جزءا من ثلاثين جزء، وكأنّه مبالغة في الاقتصار، كما أنّ الأوّل مبالغة في الاستكثار، وبينهما درجتان معتدلتان، إحداهما في الأسبوع مرّة، والثّانية مرّتين تقريبا من الثلاث"[4].

---

[2] : دعوة إلى تدبّر القرآن الكريم، كيف ولماذا ؟ لـ: مختار شاكر كمال. (دار البشير: عمان- الأردن، ط: 1: 1415 هـ – 1995م). ص: 96.
[3] : المرجع نفسه ص 87.
[1] : إحياء علوم الدين لـ: أبي حامد الغزال؛ محمد بن محمد بن أحمد الطوسي. (دار صادر: بيروت -لبنان، ط: 1: 2000م). ص: 374/1.
[2] : المرجع نفسه. ص: 368/1.
[3] : هو زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي الغزال،ي برع في الفقه والأصول والخلاف والجدل والمنطق والتصوف، من أشهر كتبه؛ إحياء علوم الدين، ولد سنة 450هـ، وتوفي سنة 505هـ. انظر وافيات الأعيان ص: 216/4-219.
[4] : المرجع نفسه. ص: 366/1.

تلاحظ كيف اعتبر الإمام الغزالي ختم القرآن الكريم، في مدّة شهر، مبالغة في الاقتصار، ولعلّ، معظمنا اليوم، لا يستطيع المحافظة على هذه الدّرجة والمداومة عليها، كما أنّه قد اعتبر ختم القرآن الكريم مرّة أو مرّتين خلال الأسبوع، هو الأمر المعتدل؛ أي أنّ قراءة ما يقارب ثمانية أحزاب وربع حزب يوميا -أو أكثر من ذلك-، يعدّ شيئا عاديا ومعتدلا في عصره، أمّا في عصرنا، وحالتنا اليوم، فتكاد تصبح المحافظة على هذا المستوى ضربا من أضرب الخيال ! !.

وخلاصة القول، أنّه إذا كان هذا هو حالنا، وكانت هذه هي علاقتنا مع موجّهنا، القرآن الكريم- فكيف لنا أن نطمع في زيادة إيماننا، مع بعدنا عن منبع الإيمان ومعينه، وكيف لنا أن نأمل في جعل هذا الإيمان وظيفيا، ونحن لا نكاد نفقه وظيفته؟ ! !، وصدق الحسن البصري حين قال : "والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به، إلاّ كثر حزنه، وقلّ فرحه، وكثر بكاؤه، وقلّ ضحكه، وكثر نصبه وشغله وقلّت راحته وبطالته"[1].

2= هجـر التفكّر والنّظر

إذا كان القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور، فإنّ الكون هو كتابه المنظور، الذي كثيرا ما دعانا سبحانه وتعالى، إلى ارتياده، واكتشاف جنباته، والوقوف عند مظاهر حسنه وجماله، وما ذلك إلاّ ليقرّبنا من معرفة صفات جماله وجلاله، قوّته وجبروته، رحمته ولطفه، عزّته وحكمته،...الخ، لكنّنا للأسف، أبينا إلاّ أن نعمي أبصارنا وبصائرنا، وأن نصمّ آذاننا، فلا نسمع إلاّ أصوات أهوائنا وشهواتنا، ولا نرى إلاّ ملذّات الحياة الدّنيا وأمتعتها، وقد صدق قول الشّاعر فينا :

"فوا عجبا كيف يعصي الإلـه ۞ أم كيف يجحده الجاحـد
ولله فـي كـلّ تـحريكـه ۞ وتسكينـة أبـدا شاهـد
وفي كـلّ شـيء لـه آيـة ۞ تدلّ على أنّـه واحـد" [2]

غير أنّنا ضربنا بجدر الألفة والتّكرار بيننا وبين نداءاته تعالى، لإحياء الرّوح وسط زهاء كونه البديع، فما عدنا نعي معنى لقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السّموات والأرض﴾[يونس:101]، ولا قوله: ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنارا، ومن كلّ الثّمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي اللّيل النّهار إنّ في ذلك لآيات لـقـوم يتفكرون ﴾

---

[1] : إحياء علوم الدين لـ: الغزالي. ص: 379/1.
[2] : مفتاح دار السّعادة ومنشور العلم والإرادة لـ: ابن قيم الجوزية. (دار الجيل: بيروت – لبنان، ط: 1414هـ-1994 م). ص: 402.

[الرعد: 03]،...الخ، والّنتيجة أّننا أسدلنا ستائر الغفلة والألفة على إيماننا، ليغرق في سبات عميق داخل الصّدور، فلا يكاد يحيا، فكيف له أن يحي؟ ! !

3= هجــر الذّكــر

استنكر القرآن الكريم على المؤمنين، قسوة قلوبهم،وعدم خشوعها، عند "الذّكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه، وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه"[1]، فقال تعالى: ﴿ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾[الحديد: 16]، فالذّكر والوعظ، يجدّد الإيمان ويزكّيه، ويبقي المؤمن على صلة دائمة بالله تعالى، وعلى تذكّر مستمر لواجباته، وما افترض عليه، ممّا يدعوه إلى السّعي إلى آداء تلك الواجبات، والحرص على إتقانها، فيزداد إيمانه، وتكثر وظائفه وتظهر وتتجلّى في الحياة، وعلى خلاف ذلك، يكون هجر الذّكر والموعظة سببا وجيها لقطع صلة العبد بربّه، ولإضعاف إيمانه، وركونه إلى أهوائه.

المطلب الثاني

الأسباب المتعلقة بالمجتمع

بما أنّ الفرد يمثّل اللّبنة الأساسية في المجتمع، والوحدة الأولى والرئيسة لبقائه، فإّنه تماما، كما يؤثّر في تكوينه وتوجيهه، يتأثّر هو كذلك بكلّ توجّهاته، ويتفاعل معها، فهو كثيرا ما يخضع لضغوط العادات والّتقاليد، والأعراف وغيرها من الأفكار، الّتي تبلور فكره، وتؤثّر على مسار سلوكه وعمله، ومجتمعنا اليوم، بفعل تأثير كثير من العوامل -الّتي في معظمها خارجي- صار يعمل بوعي منه، أو من دون وعي، على الّتأصيل لأفكار وعادات، تضرب عقيدتنا، وتخدش مقدّساتنا، وتحوم حول حماها، لتوقع المؤمنين في براثن الشّهوات، والشّبهات، فتؤثّر بشكل خطير على فكر الفرد المؤمن، وتوقعه في المعاصي،

---

(1) : تفسير القرآن العظيم لـ: أبي الفداء اسماعيل بن كثير. (دار الفكر: بيروت- لبنان، ط: 1401هـ-1981م) ص: 311/4.

وتبعده عن الطّاعات، من دون أن ينتبه لذلك، وهي في الوقت ذاته، تصدّه بقوّة عن تجسيد إيمانه في واقعه، وتحرص على جعله مجموعة من الأخيلة، الّتي تراود فكره من حين لآخر، أو مجموعة من الحركات الّتي يقوم بها من فينة لأخرى.

وقد ازداد الأمر تأزّما لعدم وجود سدّ منيع يقف في وجه ذاك السّيل العارم، من الأفكار الوافدة المغرضة، وإن وجد، فإنّه لا يقوى على إيقافه، وهذا ما أدّى إلى ضياع الفرد المؤمن، في خضمّ تلك العواصف العاتية، الّتي تحاول تغيير أفكاره، واقتلاعها من جذورها، وبالتّالي تغيير سلوكاته، وهو لا يجد من يمدّ له يد العون، ولا من يرشده إلى برّ الأمان.

وخلاصة القول، أنّ وظيفة إيمان الفرد، لا تزال في تناقص مستمر، ما دامت واقعة بين المطرقة والسّندان، أي ما دامت معرّضة للحرية المطلقة، الّتي تعمل على هدم أيّة مرجعية دينية، يستند إليها المؤمن في سلوكه، والتيّ –بكلّ أسف- يؤسس لها مجتمعنا اليوم، وبين انحصار الدّعوة الإسلامية ولا فاعلّيتها.

أوّلا: التأسيس للحرّية المطلقة

نقصد بـ: "الحرّية المطلقة" الحرّية المجردة باسم الحرّية من كافة ضوابطها وقيودها، والّتي تفتح أبواب الشّهوات والأهواء على مصرعيها، وتطمس كافّة معالم إنسانية الإنسان، وتجعله إلى البهيمية أقرب –أكرمكم الله- منه إلى الإنسانية.

وتعدّ هذه الحرية، من أخطر الأسباب المؤدّية إلى إضعاف وظيفية الإيمان وذلك لأنّها تؤسس لما يأتي :

- فصل الإنسان عن كلّ ما يربطه بالوحي الإلهي وتوجيهاته.
- العمل على تثبيط وشلّ الأوامر الإلهية، بكلّ الوسائل.
- العمل على التّرويج لما يخالف أوامر الإلهية، وجعلها تحلّ محلها.
- العمل على تزيين النّواهي الإلهية، وجذب النّاس إليها، بمختلف الوسائل. والعجيب في الأمر، أنّ مجتمعاتنا اليوم، -وبكلّ أسف- صارت تؤسّس لهذه الحرّية المنفلتة، وتكسوها بثوب العصرنة

والتقدّم الرّث، كما صارت لا ترى في ممارستها وتطبيقها أيّ حرج، بل على العكس من ذلك، إنّها ترى في ممارستها، سير على درب التطوّر والتّقدم ! !.
ومن أبرز مظاهر هذه الحرّية المطلقة ما يأتي :

1= التأسيس لإخراج المرأة من بيتها، والعمل على سلخها من زيّها الشّرعي

معلوم أنّه من بين الوظائف الأساسية، الّتي يؤدّيها الإيمان بالله تعالى، وظيفة اجتماعية بالغة الأهمّية، ألا وهي : العمل على إحداث تكامل بين الرّجل والمرأة لتأسيس أسر مستقيمة، آمنة، وذلك طبعا لتكوين مجتمع صالح، سوّي.

ومن الواضح، أنّ الّتكامل لا يكون ولا يتحقّق إلاّ بالاختلاف في آداء الوظائف؛ إذ لو وّجه كلّ من الرّجل والمرأة نفس التوجّه، وكلّفوا بنفس الوظائف، لاختل نظام المتمع ولقام نصفه، وانحطّ نصفه الآخر، ولهذا نجد أنّ الّنبيﷺ ينّبهنا إلى تمايز الوظائف، بتمايز الأشخاص، وأنّ كلاّ منهم مسؤول عن الوظيفة الموكلة إليه فقالﷺ : ((ألا كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الّذي على الّناس راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرّجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سّيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعّيته))[1]. إذن فالرّجل راع على أهل البيت، ورعايته لأهله، إّنما تكمن في "سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم"[2]، وهو مسؤول عنهم هل وفّاهم حقّهم من نحو نفقة وكسوة وحسن عشرة"[3]، وقد كلّف الله تعالى الرّجل بذه المهمّة، لأنه بعيد عن مشاغل الحيض والّنفاس والحمل والرّضاع، فكان أجلد على ملاقاة الصّعاب، ومعاناة الحرف المختلفة، وكان الضّرب في الأرض ابتغاء الرّزق أليق به"[4].أمّا وظيفة المرأة، فهي رعاية بيت زوجها وولده، فهي –إذن- "المسؤولة عن إدارة

---

[1] : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم: 1829 ص: 3/ 1459، وأخرجه البخاري في كتاب: الاستقراض وآداء الدّيون...، باب: العبد راع في مال سيّده، ولا يعمل إلاّ بإذننه رقم: 2278، ص: 848/2.
[2] : فتح الباري : شرح صحيح البخاري لـ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. (دار المعرفة: بيروت- لبنان، دط، دت). ص: 113/13.
[3] : تحفة الأحوذي : شرح جامع الترمذي لـ: أبي العلي محمد عبد الرحمان بن عبد الرحيم المباركفوري. دار الفكر: بيروت- لبنان، ط: 3: 1399 هت- 1979م). ص: 295/5.
[4] : نظام الأسرة في الإسلام لـ: محمد أمان بن علي الجامي. (المكتب الإسلامي: بيروت – لبنان، دمشق- سوريا، ط1: 1401هـ- 1981م). ص: 13.

الأسرة الدّاخلية، تحفظ بيت زوجها في حضوره وغيابه، وتحفظ ماله، وتحفظ أولاده، وعليها تنظيم الم ل، إلى غير ذلك من الشؤون الم لية"[5].

والحرية المنفلتة -الّتي تحدّثنا عنها – تعمل على إخراج المرأة من بيتها، والزّج با في الشّوارع،عن طريق تغيير الحقائق وتبديلها؛ فتجعل اختلاف الوظائف، اختلاف تضادّ لا اختلاف تكامل، وتجعل من البيت، وكرا أو سجنا، تحبس فيه المرأة، وليس محضنا تنشئ فيه المرأة أبناء ا لتمع، وتأوي فيه رجاله، ...إنّ هذه الحرّية تعمل في حقيقة الأمر على إهدار حقوق المرأة، ولا تعمل على تثمينها، فهي تريد أن تحمّلها ما لا طاقة لها به، وأن تزجّ با في متاهات لا قبل لها با، وهي أن تتحمّل عبء البيت ومسؤوليته إلى جانب عملها خارج البيت، أو أن تمل البيت ومن فيه، لتفي بعملها خارج البيت وواضح أنما شرّان أحدهما أشدّ من الآخر.

إذن فهذه النّعرات تثار في فكر المرأة، لتحريرها من ذاك السّجن المحتوم، ولوجوب مساهمتها في بناء ا لتمع، وكأنّما في حقيقة الأمر لا تبني ذاك ا لتمع ! !، رغم أنّها تقف على حراسة ورعاية ركنه الرّكين، والهدف من هذا كلّه إنّما هو هدم المملكة الدّاخلية ألا وهي البيت، لتتهدّم المملكة الخارجية من تلقاء نفسها ! !.

وتجدر بنا الإشارة، إلى أنّ هذا لا يعني، عدم قدرة المرأة على العمل خارج البيت البتّة، وإنّما يعني أنّ الأصل الأصيل هو عملها داخل البيت، وأمّا العمل خارجه، فيجب أن يضبط بضوابط، تراعى فيها المرأة أوّلا، باعتبارها المعنّية بالأمر، وتراعى فيها الأسرة ثانيا، باعتبار أنّ المرأة هي القيّمة على شؤونا –مع الرّجل طبعا-، كما يراعى فيها ا لتمع، باعتبار أنّ المرأة هي الموجّهة الأولى لأفراده.

ثمّ بعد إخراج المرأة من بيتها، يجب الآن سلخها من حجابا، ومن ثمّ من كرامتها وعفافها، لتصبح سلعة معروضة صباح مساء، على واجهات الشّوارع والطّرقات ! !، والذّريعة في ذلك، أنّه يجب على المرأة تكسير تلك التّقاليد البالية، والانتصار عليها، لأنّها طالما حرمتها من مداعبة نور الشّمس، ولطالما أحيتها خلف الحجب ! ! !

وواضح أنّ كلّ هذه الحرّيات المدعو إليها، إنّما هي سعي حثيث لتغييب نصوص شرعية محكمة، إقالتها من الحياة، وبالتّالي تكون قد نجحت آنذاك في إبعاد وظيفة من وظائف الإيمان في ا لتمع، ألا وهي الوظيفة الأخلاقية، والتّربوية.

---

[5] : المرجع نفسه. ص: 14.

2= التأسيس لإقامة علاقات غير شرعية بين الجنسين.

الملاحظ على مجتمعاتنا اليوم، -إلاّ من رحم الله تعالى- أنها صارت بفعل تبنّيها للحرّية المطلقة، تصوّر العلاقات الرّابطة بين البنين والبنات –وبين الرّجال والنّساء- وكأنّها علاقات صافية، تعبّر عن الصّداقة والزّمالة البريئة، الّتي تساعد البنين على الخروج من انطوائهم، كما تساعد البنات على الخروج من انطوائهن ! ! والحقيقة، أنّ هذا السّبب ما هو إلاّ ادّعاء، يروّج له أعداء الله تعالى، وإلاّ فلماذا لا يصاحب البنون البنين، ولا تصادق البنات البنات، أليس كلّ جنس أدرى بمشاكله، وأعلم بخصوصياته؟ ! !أم أنّ ذلك الانطواء لا يزول إلاّ بمصادقة الجنس الآخر ! ! ؟

وقولنا بأنّ هذا الإدعاء –وغيره ممّا لا يحصى- يروّج له أعداء الله تعالى، وأعداء عباده المؤمنين، لا يحتاج إلى دليل، فكلّ ما هو مرئي ومشاهد اليوم، يغني عن كلّ دليل، لكن لا باس من أن نشير إلى ما كتب في "أحد كتب مؤسسة فرانكلين الأمريكية، الّتي تنتشر في إحدى البلاد العربية حيث يقول : فبدلا من فصل البنين عن البنات، يجب أن نعمل على إشراكهم معا في الأعمال الممتعة، ومواقف اللّعب، وإذا حدث استلطاف بين بعض البنين والبنات، فينبغي النّظر إليه، على أنّه نوع من الصّداقة، وليس غراما أو عشقا"[1]، هذا هو الواقع، ننوّم التمع بكلمات لبقة كالصّداقة، ثمّ ما يحدث في الحقيقة، الله أعلى وأعلم به.

والمهمّ من كلّ هذا، أنّ التأسيس لمثل تلك العلاقات –باسم الحرّية المطلقة- أدّى إلى طمس معالم بعض الوظائف الأخلاقية، الّتي يؤدّيها الإيمان بالله تعالى، فالإيمان يكسب المؤمن خلق الحياء، الّذي يمنعه، من القيام بذه العلاقات، فالرّسولﷺ يقول: ((الحياء شعبة من الإيمان))[2]، وما أظنّ أنّ أحدا من أولئك الذين يسوّغون تلك العلاقات، يتمتّع بشيء من الحياء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، كان التّأسيس لمثل تلك العلاقات، يقعّد لدكّ نصوص الشّرع دكّا، وما ذاك، إلاّ لعلم أولئك المروّجين، أنّ تلك النّصوص، هي المحرّك الأوّل للإيمان، وهي منشّطه الأساسي، ومن أمثلة ذلك: العمل على تغييب فاعلّية قوله تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم...﴾ [النور: 30]. وقوله تعـ ـالى: ﴿ قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن..﴾ [النور: 31].

---

(1) : أساليب الغزو والفكر للعالم الإسلامي لـ: علي محمّد جريشة، ومحمود شريف الزّيبق. (دار الاعتصام: القاهرة- مصر، دط، دت). ص: 68.

(2) : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان...، رقم: 35، ص: 63/1. وأخرج قريبا منه البخاري في صحيحه؛ كتاب: الإيمان، باب: الحياء من الإيمان، رقم: 24، ص: 17/1.

وقولهﷺ : ((ما اجتمع رجل بامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما))[1]، فهذه النّصوص الشّريفة تؤسّس للوظائف الأخلاقية، الّتي يؤدّيها الإيمان، من غضّ للأبصار، وحفظ للفروج، وعدم انفراد الرّجال بالنّساء، وهكذا...، ومجتمعاتنا تؤسّس لتلك الصّداقة، أو الزّمالة – كما يقال- الّتي تفتح مجال المحادثة في كلّ الحالات، دون رقيب –طبعا إلاّ الله تعالى-، والّتي تفتح أبواب النّظر بضابط أو بغيره،...الخ، كلّ هذا والمجتمع سائر على عماه، ولا يعرف أنّه بتأسيسه لهذه الحرّية المطلقة، يخسر وظائف إيمانه، وظيفة فأخرى دون أن يشعر.

3= التّـأسيـس لنشـر المعاصـي

ونقصد بالمعاصي : "تلك المخالفات، الّتي يقع فيها النّاس؛ من ترك للواجبات، أو فعل للمحرّمات، اتّباعا للهوى والشّهوات، أو هي مزيج من الشّبهات والشّهوات، تسوغ فيها المخالفات والتّنازلات"[2]، وهذا ما تسعى معظم وسائل الإعلام إلى تسييده في المجتمع، وجعله أمرا عاديا، من خلال اعتماد مبدأ الألفة والتّكرار؛ فمن شدّة اعتياد المجتمع، على رؤية تلك المعاصي، صارت كأنّها جزءا من حياته، فلا يستنكرها، ولا حتّى ينتبه إليها، ذلك أنّ تلك الوسائل بمختلف أنواعها، "من صحافة، وإذاعة وتلفزيون وسينما، مسخّرة اليوم، لإشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسّعي بالفساد في الأرض، بما يترتّب على ذلك، من خلخلة للعقيدة، وتحطيم للأخلاق، والقيم والمثل...وهما –أي العقيدة والأخلاق- أساس لبناء الإسلام، فإذا انعدم الأساس، فكيف يقوم البناء"[3].

إذن كلّ هذا العمل الحثيث، الّذي تقوم به وسائل الإعلام تلك، إنّما يقصد به سلب الإيمان وظائفه، بل والعمل على طمس تلك الوظائف، الّتي تحدّدها النّصوص الشّرعية، وذلك بنشر المعاصي، وبدل أن يبدي المؤمن وظيفة إيمانه، على أرض الواقع، فإنّه يشوّه تلك الوظيفة، بارتكابه المعاصي الّتي تدكّها دكّا.

4= التـأسيس لجعل مظاهـر الانحراف، مظاهـر للثقافـة والفـنّ

---

[1] : أخرجه الترمذي في سننه؛ كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، رقم: 1171، ص: 474/3. وكتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، رقم: 2165، ص: 465/4. واخرجه أحمد في مسنده؛ رقم: 114، ص: 118/1، ورقم: 177، ص: 26/1.

[2] : وقفات تربوية في ضوء القرآن والسنّة لـ: عبد العزيز بن ناصر الجليل. (دار طيبة: الرياض – السعودية، ط: 2:
1419هـ-1998م). ص: 368/3.

[3] : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي لجريشة ص: 71.

فقد اشتهر بين مجتمعاتنا اليوم، أنّ حفلات المعازف والمراقص الّتي يختلط فيها القاصي بالدّاني، إنّما هي مظاهر لانتشار الثّقافة، رغم أنّها في الحقيقة، ولوغ في معاص نانا الله تعالى ورسول اللهﷺ عن اقترافها، فصارت مظهرا من مظاهر ضعف الإيمان وصورة مشوّهة، عن وظيفته الأخلاقية التي يؤدّيها، بل زيادة على هذا، صارت سبيلا ووسيلة من وسائل إضعاف الإيمان، وتجريده من وظائفه، إذ بدل أن تكون الثقافة والفنّ مجال، من الـ الات، التي يبسط فيها الإيمان وظائفه، فتكون ثقافة أخلاقية، خلاّقة، باعثة على التطوّر والتّقدم، صارت ثقافة مبنية على الطبل والمزمار ! !

وخلاصة القول، أنّه بات واضحا، من خلال تلك المظاهر الآنفة الذّكر، أنّ الإيمان، صار يضرب من قبل جبهات عديدة، أسهمت الحرّية المطلقة، إسهاما كبيرا، في إيجادها ونشرها، حتّى صار يكتفى بالإيمان السّاكن الوديع، الّذي لا يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولا يحاول الوقوف في وجه تلك المظاهر، ومحاربتها، رغم أنّ قيامها هو هدم الأحكام شرعها الله لعباده، وهو أيضا تجميد لمختلف وظائف الإيمان في مختلف الـ الات.

ثانيـ ا: انحصـ ار الدّعـ وة الإسلاميـ ة ولا فاعلّيتهـ ا

بعدما رأينا فيما سبق، كيف أنّ مجتمعاتنا اليوم، صارت تتبّنى شعار الحرّية، الذي تعمل باسمه، تعمل على تسويغ المعاصي، وتأليفها،وجعلها شيئا عاديا ومظهرا مألوفا في الحياة، بعد كلّ هذا، نلاحظ أيضا، تقصير مجتمعاتنا، في آداء مهمه الدّعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهذا ما يعدّ من بين أهمّ الأسباب، التي أضعفت وهج الإيمان، وأخفتت نوره في صدور المؤمنين، وإذا ما لاحت قبسات منها، فسرعان ما تخبو، لسبب أو لآخر، وهذا من أكثر ما يؤثّر في فاعلّية الإيمان، وقوّته، وذلك أنّ الدّعوة الإسلامية تعدّ بالنّسبة للإيمان، بمثابة المولّد، الّذي يضطلع بمهاّم خلقه في صدور العباد، والعمل على تنشئته ورعايته، وحمايته، إلى أن يشتدّ عوده، وفي ذات الوقت، يعمل على إكسابه مكانته الحقيقية، المتمثّلة في قيادة الـ تمع وتوجيهه، إلى أن يصير مجتمعا ربّانيا مثالّيا، يقود نفسه بنفسه.

ولنا أن نبّين أكثر هذه العلاقة الرّابطة بين الإيمان الوظيفي، وبين الدّعوة إلى الله تعالى، فبعدما عرفنا أنّ الإيمان الوظيفي، هو ذاك الذي يمتثل صاحبه قدر الإمكان، لأوامره تعالى، ويبتعد قدر الإمكان –أيضا- عن نواهيه، فلنا أن نعرف بأنّ الدّعوة هي السّبيل الموصل إلى هذا الإيمان المبتغى، فكلّ ما أحبّه الله ورسوله، من واجب ومستحبّ، من باطن وظاهر، فمن الدّعوة إلى الله تعالى الأمر به، وكلّ ما أبغضه

الله ورسوله، من باطن وظاهر، فمن الدّعوة إلى الله النّهي عنه، لا تتمّ الدّعوة إلى الله، إلاّ بالدّعوة إلى أن يفعل ما أحبّه الله، ويترك ما أبغضه الله، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظّاهرة[1].

لكنّنا لما رأينا أنّ الإيمان اليوم، صار أقلّ ما يقال عنه، أنّه إيمان ضعيف –إلاّ من رحم الله- علمنا أن الخلل، قد يكون في ذلك السّبيل الموصل إليه، لا سيما أنّ بذور الإيمان، الّتي زرعها الدّعاة في قلوب العباد، لم تؤت أكلها كما ينبغي، ففيما يكمن الخلل يا ترى؟

لعلّ الخلل يتمركز في أحد العناصر الآتية، ولعلّه يشملها، وهي:

1- مسالك وكيفيات الدّعوة إلى الله تعالى.
2- نوعية المادّة الدّعوية الموجّهة للأمّة.
3- مقدار العناية الموجّهة للدّعوة في مختلف مراحلها.
4- قوّة التّيارات المضادّة للدّعوة.

1= مسـالك وكيفيـات الدّعـوة إلـى الله تعالـى.

كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ قد بيّنا بشكل واضح وجلّي، كيفية الدّعوة إلى الله تعالى، لكلّ من أراد أن يتصدّى لحمل هذه الأمانة، ويضعها على كاهله، فكانت الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالّتي هي أحسن، والتّيسير، والتّبشير، والإنذار والتّدرج،...الخ، كلّها أسس رصينة، تنبني عليها الدّعوة إلى الله، لكن ما نودّ الإشارة إليه، لا يتعلّق بعرض هذه الأساليب، وإنّما يتعلّق بكيفيّة استعمالها، أو بتعبير أدقّ: متى ومع من تستعمل هذه الأساليب؟
ولنبدأ بالسؤال الأول : متى تستعمل هذه الأساليب.

ليتمكّن الدّعاة من معرفة مواطن استعمال مختلف الأساليب الدّعوية، لا بدّ أن يتمتّعوا بفكر واقعي، له بعد مستقبلي، فلا بدّ أن يختاروا من بين تلك الأساليب المذكورة، ما يناسب الواقع الذي تعيشه الأمّة، وما يناسب تطلّعاتنا المستقبلية، وإلاّ فإنّ هوّة سحيقة ستفصل بينهم، وبين مدعويهم، هوّة واسعة وسع الزّمن الفاصل بين الزّمان الذي يدعون فيه، والّذي يدعون من خلاله.

ولنضرب مثالا على ذلك، حينما تكون الأمّة على شفا حفرة من نار –كالعراق مثلا[1]- والخطر يتهدّدها من الدّاخل والخارج، فأيّ أسلوب يستعمله الدّعاة مع الأمّة، أهو أسلوب التّيسير

---

[1]: مجموع الفتاوى الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: جمع عبد الرحمان بن محمّد بن قاسم وابنه محمّد. (دار المعارف: الرّباط- المغرب دط، دت). ص: 164/15.) 164/15.
[1] : الآن وقع، والله أعلم متى سيقوم من جديد.

والتّنويم، والتّدرج للوصول إلى الهدف! حتّى إذا ما استفاقت الأمّة وجدت نفسها وسط نار تستعر؟ ! !
أم أنّه أسلوب الإنذار الشّديد، من مغبّة التفرّق والتّقاعس عن آداء الواجب، والتّرهيب المهيب من عاقبة الإهمال والتّسويف، والحكمة البالغة، في اتّخاذ القرارات البالغة الأهمّية والحاسمة !

أمّا مع من تستعمل تلك الأساليب، ففي هذه الحالة، لا بدّ للدّعاة أن يتّصفوا بفراسة المؤمن، الّتي تكتشف نفسيات المدعوين، المتعامل معهم؛ فالنّفسيات تختلف باختلاف الأشخاص؛ إذ أنّ هناك نفسّيات قوّية وأخرى ضعيفة، كريمة وأخرى لئيمة، سليمة وأخرى سقيمة،...الخ، وما ذلك إلاّ ليتسّنى لهم اختيار الأسلوب المناسب، الّذي يتوافق مع شخصّية المدعو، ولنا أن نضرب كمثال على ذلك، بعدم صلاحية استعمال أسلوب التّرهيب مع شخصّية، ضعيفة، مرهفة؛ إذ بدل أن تنطلق، وتضاعف العمل، لتتلافى ما يرهبها، قد تنطوي وتيأس من روح الله، ويضعف إيمانا أكثر فأكثر، وبالمقابل قد نستعمل أسلوب التّرغيب مع شخصّية مّتكلة، فإذا بنا نعينها على النّوم قريرة العين، فلا تفيق إلا بعد فوات الآوان.

وهكذا كان على الدّعاة[1]، بعد معرفتهم لتلك الأساليب، معرفة كيفيات استعمالها، وهذا مسلك واضح في سّنتهﷺ ، حيث كان يجيب عن السؤال الواحد بعدّة أجوبة، وما ذاك إلاّ مراعاة لاختلاف الشخصيات وأحوال أصحابا.

وخلاصة القول، "نقول بأنّ الدّعوة التي تجهل أنّ لكلّ فرد معادلته، كما أنّ لكلّ مجتمع معادلته الاجتماعية، وتتعامل مع الأفراد والمجتمعات، تعاملا تعميميا، عفويا، عشوائيا، دعوة محكوم عليها بالفشل، وإن بدالها في بعض منعطفات سيرها، أنّها حقّقت بعض أهدافها"[2].

2= نوعيــة المــادّة الــدّعوية الموجّهــة للأمــّة.

لكي يتمكن المؤمن من تفعيل إيمانه، وبعثه وزيادته، وتقوية من خلال اتّباع ما يدعوه إليه الدّعاة، يجب على الدّعاة مراعاة تناسب المادّة الدّعوية، الموجّهة للأمّة مع قدراتا الفكرية وبالتّالي كان لزاما على الدّعاة مخاطبة النّاس، كلاّ وفق مستواه، وبحسب قدراته، وهكذا لا بدّ أن تختلف مضامين الدّعوة،

---

(1) : لانقصد فطاحلة العلماء والدّعاة، بل عامتهم.

(2) : الدّعوة الإسلامية والمعادلة الإجتماعية لـ: الطيّب برغوث (دار البعث: قسنطينة-الجزائر، ط: 1: 1406هـ-1985م)
ص: 26.

باختلاف قدرات مستقبليها، وفي هذا الصّدد، يقول ابن عقيل[3]: "حرام على عالم قوي الجوهر، أدرك جوهريّته...علما أطاقه، فحمله، أن يشرح به، إلى ضعيف لا يحمله، ولا يحتمله، فـإنّه يفسد"، وقال ابن الجوزي[4]: "لا ينبغي لعالم أن يملي ما لا يحتمله عقول العوام"، "قال علي ﷺ: "حدّثوا النّاس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبّون أن يكذّب الله ورسوله؟ ! !، وقال ابن مسعود : "ما أنت بمحدّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلاّ كان فتنة لبعضهم"[1]، وعليه نلاحظ من أقوال سلفنا الصّالح خطورة عدم تناسب المادّة الدّعوية، مع عقول المدعوين، إذ قد تصل ببعضهم إلى الفتنة عن الدّين، وتكذيب الله ورسوله ﷺ.

ولهذا فإنّ دعوة الإمام –مثلا- لعامّة الأمّة، تختلف مادّتها عن دعوة الدّاعية لمعاوينه، أو دعوة الشيخ لتلامذته،...الخ، فمن غير الممكن أن تحدّث عامّة الأمّة، عن صفات الله تعالى، بتعمق وتبحّر، كما تحدّث طلبة التخصّص، فحديث كهذا، قد يؤدي إلى أحد الأمرين؛ فإمّا أن يجرّد العامّة الدّاعي، من سلامة الإيمان، وإمّا أن ينسف الدّاعية إيمان العامّة نسفا، ويفتنهم عن دينهم.

3= مقـدار العنايـة الموجّهـة للـدّعوة فـي مختـلف مراحلهـا.

إنّ الدّعوة الإسلاميّة ما كان لها أن تتمكّن من نشر الإسلام، في معظم أرجاء الأرض ولا من جعل رايته ترفرف في مختلف أصقاع العالم، إلاّ باتّباعها مراحل محدّدة، مضبوطة بضوابط معيّنة، تمثّل كلّ واحدة منّها قاعدة رصينة، تتكّئ عليها المرحلة الّتي تليها، فما كان لها أن تتحمّل تبعات مرحلة البناء والتّكوين إلاّ بعد التأكّد التّام، من كمال مرحلة النشر والتبليغ، وما كان لها، أن تلقي بنفسها في هيجاء المواجهة والتّمكين، إلاّ بعد تحقيق البناء التّام لبنية المجتمع والدّولة، والتّكوين القوي، في مختلف الأصعدة، وفي كلّ المجالات. وسبب انتكاسة الدّعوة الإسلاميّة اليوم، هو سوء تقديرها لذاتها ولقدراتها، وعدم تحلّيها بالصّبر والثّبات في إعداد كلّ مرحلة على أكمل وجه للانتقال بعدها بأمان، لبناء المرحلة المستقبلية وهذا ما أحدث خللا في مسار كثير من الحركات الدّعوية، الّتي ما تلبث أن تقفز من مرحلة النشر والتّخطيط أو مرحلة البناء والتّكوين، إلى مرحلة المواجهة والتمكين، دون التمتّع بالقدرة الكاملة على

---

[3] : ابن عقيل: (431هـ- 513هـ)، هو علي بن عقيل بن محمّد بن عقيل، البغدادي، الظفري، الحنبلي، فقيه، أصولي، مقرئ، واعظ، من تصانيفه: كتاب الفنون، كتاب الانتصار لأهل الحديث. انظر: معجم المؤلفين لكحالة؛ ص: 477/2.

[4] : ابن الجوزي: (510هـ-579هـ): عبد الرحمان بن علي بن محمّد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن محمدّ بن جعفر القرشي، البكري، التميمي، البغدادي...محدث، حافظ، مفسر، واعظ. انظر: معجم المؤلفين لكحالة. ص: 100/2.

[1] : الدّعوة: قواعد وأصول لـ: جمعة أمين عبد العزيز. (دار الصديقية، حسين داي – الجزائر: ط: 2، 1989م) ص: 181. نقلا عن الاداب الشرعية والمنح المرعية للمقدسي ص: 161.

تحمل تلك المسؤولية، ومعروف "أنّ الفقهاء متّفقون جميعا على هذا الشّرط، فلا تصحّ مواجهة دون قدرة ! إنّ المواجهة دون قدرة، تساوي القعود عن الجهاد مع القدرة فيما نحسب، والله أعلم، بل إنّ المواجهة دون قدرة قد تكون أخطر، لأنّ الثانية إثمها عند الله، أمّا الأولى، فإثمها عند الله وعند النّاس.. ! !"[1].

ثمّ زيادة إلى هذا القفز اللامرحلي، نلاحظ تفرّق الحركات الدّعوية في أساليبها ومناهجها، وإن كانت كلّها في المرحلة الدّعوية نفسها، وليت هذا الاختلاف، يؤدي إلى التّكامل، لكنّه للأسف يؤدّي إلى التّنازع والتّناحر، "حيث ينفث في روع هذا الفريق بأنّ مسلكهم، هو المسلك الوحيد لنصرة الإسلام وقضاياه، وهكذا تقتنع كلّ حركة أنّه لا يتأتّى لها الدّيمومة والانتشار، إلاّ بالقضاء المبرم على خصومها الحركيين"[2]، "فأصبح الطرفان الإسلاميان، المتصارعان يقومان مقام الأعداد في نصب الكمائن لإخوانم، وتحكّم هذا المنطق في الفريقين، فصار الانتقاص من بعضهم بعضا هدفا في حدّ ذاته، أبعدهم عن الدّعوة في شقها السّياسي، فضلا عن المقصد الحضاري"[3].

والغريب في الأمر أنّ هذه الحركات الدّعوية، كلّها ترى في نفسها حاملة لواء الإسلام، وهي لا زالت لم تع بعد قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البّينات وأولئك لهم عذاب عظيم(105) يوم تبيض وجوه وتسوّد وجوه، فأمّا الذين اسوّدت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ [آل عمران: 105-106]. وكذا قوله تعالى :﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ [الأنفال: 43].

4= قـوّة التيـّارات المضـادّة للـدّعوة.

تعدّدت التّيارات المضادّة للدّعوة الإسلامية، واختلفت أسماؤها وتلوّنت لكنّها كلّها تسعى إلى تحقيق هدف واحد، وكلّها تصبّ في مجرى وحيد، هو القضاء على صرح الإسلام المنيع، وتثبيط كلّ ما من شأنه أن يعمل على إستمراريته، أو أن بعثه من جديد، ومن أهمّ ما يبعث الإسلام من جديد، -كما أشرنا سابقا- هو اضطلاع الدّعوة الإسلامية بمهامّها، ولهذا عملت تلك التيارات، على تحييدها، وهو ما

---

[1] : مناهج الدّعوة وأساليبها على جريشة. (دار الوفاء: منصورة – مصر، ط: 1407هـ-1986م). ص: 98.
[2] : تحييد الدّعوة الإسلامية: التحدي والرّهان لـ: عمار جيدل. (مطبعة إعياش: بوزريعة- الجزائر، ط، دت) ص:67.
[3] : المرجع نفسه ص: 68.

يعني "العمل على تجنيب الدّعوة الإسلامية القيام بأصل وظائفها المعّبرة عن حقيقتها...والحيلولة دون تنفيذ أو تبليغ أحكام الإسلام، أو المساهمة في تشويهها في كلّ مجالات الحياة أو بعضها"[1].

وقد اعتمدت تلك الّتيارات؛ كالتنصير والاستشراق والاستغراب...الخ. وسائل محكمة، ومدروسة، ومضمونة الفاعلية، لتتمكّن من تحقيق مآربا، ولا يهمّ متى المهمّ أّنه سيتحقّق يوما ما، ومن بين تلك الوسائل نذكر:

أ/ "توجيه التعليم والثقافة العربية الإسلامية، إلى التعليم والثقافة الغربية، فإنّ أوّل عمل يقوم به المبشرون هو تغيير وجه ودفة السّياسة الّتعليمية والّتربوية والثّقافية للبلد الّذي يحطّون به أقدامهم"[2]، وقد أكّد على أهمية هذه الوسيلة، بعض مبشريهم حيث : قال أحدهم : "لقد أدّى البرهان إلى أنّ التعليم، أثمن وسيلة إستغلّها المبشرون الأميريكيون، في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان"[3]، وقال آخر : "يجب أن نؤكّد في جميع ميادين التبشير جانب العمل بين الصّغار وللصغار،...ترانا مقتنعين لأسباب مختلفة، بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية،... وهكذا نجد أنّ وجود التعليم في يد المسيحيين، لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين"[1].

ب/ استغلال وسائل الإعلام المختلفة، لتنصير المسلمين: حيث أولت الكنيسة، وهيئات التنصير ومؤسساته العالمية، إهتماما بالغا، باستخدام وسائل الإتصال الحديثة، في مجال عملها، ولم يعد يقتصر على أساليب الإّتصال الشخصي، وبناء المدارس وغيرها من أدوات التنصير التقليدية، الرئيسية، بل استخدمت إلى جانب ذلك كلّه، وسائل الاتصال الحديثة، من كتب ومنشورات، وكافّة أنواع المطبوعات، والمواد المكتوبة، إلى جانب الوسائل السمعية، والسمعية البصرية، من أشرطة الكاسيت، والأفلام، وأشرطة الفيديو، وإقامة مؤسسات كاملة للإنتاج الإعلامي، ذلك أنّ الكنيسة ترى في هاته الوسائل، طريقة للتسلية، والترويج عن الّنفس"[2].

---

(1) : المرجع نفسه ص: 16.

(2) : الخطر الذاهم على العرب والمسلمين لـ حسن رمضان فحلة. (دار الهدي: عين مليلة ـ الجزائر، دت) ص: 191.

(3) : التبشير والاستعمار في البلاد العربية لـ: مصطفى خالدي وعمر فروخ (المكتبة العصرية: صيدا لبنان: ط: 1982م) ص: 67.

(1) : المرجع نفسه ص: 68. نقلا عن: Mott : Tlemceslem Word of To day 371-372.

(2) : الحركة التنصيرية في الجزائر بعد الإستقلال لـ: يمينة صالح. (رسالة ماجستير: تخصص أصول الدين بكلية أصول الدين: الجزائر، إشراف ابراهيم التّهامي. سنة: 1419هـ-1999م). ص: 103.

جـ/ استغلال العلوم الحديثة، كعلم النّفس، وعلم خصائص الشّعوب، وعلم روح الجماهير والشعوب والجموع، بكلّ جدّ واجتهاد[3]، لإمكانية، التسّرب إلى نفسيات المبشّرين، من دون إحداث أية ضوضاء، ومن دون لفت أيّ انتباه.

د/ العمل على "القضاء على التّنوع والتعدّد في المجتمع الدّولي"[4]، ومحاولة فرض ما يسمّى بالثقافة الوحيدة، وذلك لخنق الدّعوة الإسلامية، فلا يكون أمامها سوى الانضمام إلى تلك الثقافة إمّا رغبة منها أو عنوة[5]، وإلاّ فالمواجهة، الّتي هي الآن، في غير صالح الدّعوة الإسلامية.

ولو وقف الأمر عند قوّة التّيارات الخارجية المضادّة، لهان وسهل، لكنّ الكارثة فيما تتعرّض إليه الدّعوة الإسلامية من تحييد على مختلف المستويات التعليمية والإعلامية، والسّياسية، وحتى المظهرية، لتجرّد بعدها من بعدها الحضاري، وذلك على المستوى الداخلي[1]، ممّا أدّى إلى قيام صراع داخلي وخارجي، ما استطاعت الدّعوة مواجهته، ولا الوقوف في وجهه. «ولعلّ من المؤسف حقا، أن يظلّ المسلمون يجهلون، أو يتجاهلون الحقائق السابقة فلا يدرسون ميدان الدّعوة، ولا يدركون المؤشرات السّلبية والإيجابية فيه، ولا يجدّدون وسائلهم وأساليبهم، ومناهج عملهم، ويصرّون على مواجهة النّظام بالفوضى، والعقلانية بالعواطف،... بحجة البساطة، ومخالفة الكافرين، والتوكّل على الله، وتفويض الأمر له،...ممّا مكّن الكافرين منهم، وافقدهم السّيطرة على نفوسهم، ضدّ المؤثرات الخارجية العاتية، وأعجزهم عن نقل إشعاع الإسلام إلى النّاس. أو حتى تثبيته في بعض الحالات في الوقت الذي تتحرّك فيه القوى المضادّة للإسلام، بمنهجية دقيقة في الوسائل والأساليب والمراحل، ضمنت للنشاط المعاكس، أقصى درجات الفاعلية، ولو لا القوّة الذاتية في الإسلام لأنته من الوجود، من زمن غير قصي»[2].

وخلاصة القول أنّ ما تعرّضت له الدّعوة الإسلامية –ولا تزال- من ضربات، أثر أيّما تأثير على الإيمان؛ إذ بقوّتا يقوى، وبضعفها يضعف، وتتلاشى وظيفته؛ إذ ينسحب من دائرة العمل، ويتقوقع في دائرة الاعتقاد والإقرار.

---

(3): المرجع نفسه ص: 137، نقلا عن محاضرات لملتقى السابع للفكر الإسلامي: ص: 1134-1135.
(4): تحييد الدعوة الإسلاميةلـ: عمار جيدل. ص: 48.
(5): نظر المرجع نفسه. ص: 49-51.
(1): انظر المرجع نفسه. 55-65.
(2): الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية لـ: الطيب برغوث، ص: 29-30.

وكما وجدت أسباب ساهمت في انحراف العباد، عن صراط الله المستقيم، وأبعدتم عن روضة الإيمان الحقيقي، وجرّدتم من حلاوته، ورمت بم في غياهب الضّعف والغفلة، والإعراض، فإنّه يوجد في مقابل ذلك أيضا، أسباب أخرى، تأخذ بأيدي العباد، وتنتشلهم من ضحالة، ما هم عليه،من سهو ولهو، وتدخلهم إلى رحاب الإيمان الفاعل، الذي ارتضاه الله تعالى، لعباده، فترويهم بعد ظمأ، وتزم بعد سكون، وتوقظهم بعد نوم، وتنيرهم بعد ظلمة، وتديهم بعد تيه، وتحييهم بعد موت، قال تعالى:﴿ أو من كان ميّتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في النّاس، كمن مثله في الظّلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام: 122] وصدق الله العظيم، فإنّ هذا الإيمان، قد أنشأ في القلب، حياة بعد موت، وأطلق فيه « نورا بعد الظّلمات؛ حياة يعيد با تذوّق كلّ شيء، وتصوّر كلّ شيء، وتقدير كلّ شيء، بحسّ آخر، لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة، -في حين- أنّ الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية، الأبدية، الّتي لا تفنى ولا تغيض، ولا تغيب، فهو موت وانعزال عن القوّة الفاعلة، المؤثّرة في الوجود كلّه،...والإيمان اتّصال واستعداد واستجابة فهو حياة »، حياة[1] للقلب وللرّوح، والجسد في آن واحد. والأسباب الموصلة إلى هذا الإيمان، والمساهمة في تفعيله، يمكن اعتبارها سبلا بيّنة، هادية إلى الله تعالى، وإلى رضاه، نستشفّها من كتابه العزيز نذكر منها ما يأتي :

المطـلب الأوّل
التّحقـق بمعرفـة أسمـاء الله الحسنـى وصفاته

إنّ كلّ فكرة، تمرّ على عقل الفرد، لا بدّ أن يكون لها أثر سلوكي، حيث تترجم إلى فعل ظاهر على واقع الحياة، ومعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أصل لكلّ الفكر والعلوم، وفي بيان

---

(1) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 1200/3.

هذا، يقول ابن القيم[1] –رحمه الله- : « إحصاء أسماء الله الحسنى، والعلم با، أصل للعلم بكلّ معلوم، فإنّ المعلومات سواه تعالى، إمّا أن تكون خلقا له تعالى، أو أمرا، إمّا علم بما كوّنه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان با ارتباط المقتضى بمقتضيه،... ولذلك. فالعلم بأسمائه –تعالى- وإحصاؤها، أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم »[2]، وعليه فإنّ معرفة كلّ اسم من أسماء الله الحسنى، أو معرفة صفة من صفاته العليا، سوف يولّد أفكارا أو علوما – على حدّ تعبير ابن القيم – ينجم عنها سلوكات معّينة، وطبعا لن تخرج هذه السّلوكات، عن فعل لأوامره تعالى، أو ابتعاد عن نواهيه، وما ذلك إلاّ لارتباط تلك الأوامر والّنواهي، بأسمائه وصفاته تعالى، ولهذا يمكننا القول بأنّ « أعظم ما يصلح به القلب، وتنشط به الأعضاء في طاعة الله تعالى، هو العلم الذي تقع به معرفة الله بصفاته، ومراقبته في كلّ حال، والخوف منه ورجاؤه، والرّغبة فيما عنده، و الرّهبة ممّا لديه،...، ويترّتب عليه الاعتقاد الصّحيح، والتّصديق بجزاء النّاس على أعمالهم، ...وأعظم ما يفسد به القلب، هو الجهل الذي يقع به الاعتقاد الفاسد، والجرأة على الله بانتهاك محارمه، وفعل معاصيه، كالعجب والكبر،...والاستخفاف بأوامر الله تعالى »[3].

ولهذا كان إحصاء أسماء الله الحسنى، سببا في دخول الجّنة، حيث قال ﷺ : ((لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلاّ واحدة، لا يحفظها أحد إلاّ دخل الجّنة، وهو وتر يحبّ الوتر))، وفي رواية: ((من أحصاها دخل الجّنة))[1]، قد وردت أقوال عديدة في بيان معنى: ((من أحصاها))، نختار منها أنّ « المقصود بالإحصاء هو "الإطاقة" كقوله تعالى: ﴿علم أن لن تحصوه﴾، [المزّمّل:20]، أي: لن تطيقوه، ...، فيكون المعنى : أن يطيق الأسماء الحسنى، ويحسن المراعاة لها، وأن يعمل بمقتضاها، فيلزم نفسه

---

(1) : ابن قيم الجوزية: (691هـ-751هـ)؛ هو محمد بن أبي بكر بن ايوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي، الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية (شمس الدين، أبو عبد الله) فقيه، أصولي، مجتهد، مفسر، متكلم...انظر معجم المؤلفين لكحالة. ص: 164/2.

(2) : بدائع الفوائد لابن القيم. (تح: معروف مصطفى زريق وآخرون، دار الخير: دمشق- سورريا، بيروت- لبنان، ط:
1: 1414هـ-1994م). ص: 147/1-148.

(2) : إصلاح المجتمع لـ: الكدادي. ص: 19

(1) : أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الدّعوات، باب: إنّ لله مائة اسما إلاّ واحدا، رقم 6957، ص: 2691/6. وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب: الذّكر والدعاء، باب: في اسماء الله الحسنى وفضل من أحصاها. رقم: 2677 . ص: 2062/4 – 2063.

بواجبها »[2]، ومستندنا في ذلك هو أنّ دخول الجّنة مرهون ببذل النّفس والنّفيس، ولا يحصل بمجرّد الحفظ والإهمال، لأنّ ذلك سوف ينقلب حجّة على الحافظ وليست له.

ولمّا كانت أسماء الله الحسنى، دالّة على صفاته الكاملة العظيمة، الجليلة[3]، فإنّي سأختار بعضا منها، لأبيّن كيف أنّ معرفتها حق المعرفة، والإيمان بما حقّ الإيمان، يؤدّي إلى تفعيل وظيفية إيمان المؤمنين، وذلك من وجوه :

1= أنّ كل اسم من أسمائه تعالى، يدلّ على عظم الإله المعبود، بما يشير إليه من معاني الكمال والجلال، وهذا ما يولّد طمأنينة وسكونا، لدى عباده المؤمنين به، تدعوهم إلى تمثّل أوامره بكلّ محّبة وشوق إليه تعالى، وإلى لقائه.

2= أنّ كلّ اسم، يحمل في ذاته دلالة معّينة، تبعث على القيام بأعمال معّينة، وبالّتالي تجعل إيمان العبد، في حركّية دائمة، دوام صلته بأسمائه الحسنى، ومتنوّعة، تنوّع صفاته العليا، النّاجمة عن تلك الأسماء.

3= أنّ الأسماء الحسنى، تنعكس على الموجودات، وتجعل منها « رسائل ربانية، تتجدّد كلّ حين بإذن ربّها، فتنقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام »[1]، وبالّتالي يصبح العبد في حالة تذكّر دائم لله تعالى، وذلك من خلال ما تلقيه أسماؤه الحسنى من ظلال التّذكير الدّائم، على كلّ الموجودات، الدّائمة التجدّد، فتصير بذلك كلّ الموجودات، معالم تذكر العبد بأسماء الله الحسنى وبصفاته العليا، وبالّتالي تجعله في صلة دائمة مع الله تعالى.

أوّلا= الحــي

أثبت الله تعالى لذاته العليا، اسم "الحي" في كتابه العزيز، في آيات عديدة منها،

- قوله تعالى :﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾ [البقرة: 255]
- وقوله تعالى :﴿ الم (1) الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم (2) ﴾ [آل عمران: 21].
- وقوله تعالى :﴿ هو الحيّ لا إله إلاّ هو ﴾ [غافر: 65].
- وقوله تعالى :﴿ وعنت الوجوه للحيّ القيّوم ﴾ [طه: 111].

---

(2) : النّهج الأسمى في شرح الأسماء الحسنى لـ: محمد الحمّود النّجدي. (مكتبة الإمام الذّهبي: حولي – الكويت، ط. 2 : 1417هـ – 1997م). 1ص: / 53-54.

(3) : انظر المرجع نفسه. ص: 35/1.

(1) : رسائل النور: الكلمات لـ: بديع الزمان النورسي. (ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سولز: اسطنبول – تركيا، ط: 3: 1419هـ-1998م). ص: 753.

كما أثبتت السّنة الشّريفة هذا الإسم، لذاته تعالى، حيث قال ابن عبّاس –رضي الله عنهما-: "إنّ رسول الله ﷺ، كان يقول: ((اللّهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكّلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزّتك، لا إله إلاّ أنت أن تضلّني، أنت الحيّ الّذي لا يموت، والجنّ والإنس يموتون))[2].

« قال الزّجاج[1] : "الحيّ" يفيد دوام الوجود والله تعالى لم يزل موجودا، ولا يزال موجودا »[2]،
وقال أبو حامد الغزالي: « الحي هو : الفعّال الدّارك، حتّى إنّ من لا فعل له أصلا ولا إدراك فهو ميّت، ... والحيّ الكامل المطلق هو الّذي تندرج جميع المدركات تحت إدراكه، وجميع الموجودات تحت فعله، حتّى لا يشذّ عن علمه مدرك، ولا عن فعله مفعول، وذلك الله عز وجلّ، فهو الحي المطلق »[3].

ومعرفة الله تعالى باسمه الجليل هذا، وبصفته الكريمة هذه، حق المعرفة، والإيمان بهما بصدق، يولّد في حياة الفرد المؤمن آثارا إيمانية، نذكر من بينها ما يأتي:

1= الأمن والطمأنينة : حيث يشعر العبد المؤمن بأنّ إلهه حيّ دائم الوجود، يجده في كلّ حين احتاج فيه إليه، ينصره إذا خذله النّاس، وينصفه إذا ظلموه، ويرفعه إذا وضعوه، ويستجيب إليه إذا ما ردّوه. قال تعالى:﴿ وتوكّل على الحيّ الّذي لا يموت ﴾ [الفرقان:58]. وقال تعالى:﴿ هو الحيّ لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدّين ﴾ [غافر:65].

2= الابتعاد عن الأنانية وعن الأثرة: فمعرفة أنّ كلّ ما على هذه الأرض فان، وأنّه لا بقاء إلاّ للحيّ الذي لا يموت، يهين ملذات الدّنيا في قلب المؤمن، فما هي إلاّ كما قال تعالى:﴿ وما الحياة الدّنيا إلاّ متاع الغرور﴾ [آل عمران: 185]. ويخفّف حدّة انجذابه إليها، فكما يقول علي رضي الله عنه: "كلّ سرور لا يدوم حقير"، وهذا ما يساعد الفرد على الإنفاق والبذل، والعطاء في سبيل الحيّ الذي لا يموت، والباقي الذي يفنى.

---

[2] : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض﴾، رقم : 6950، ص: 2689/6. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الدعاء والذّكر والتوبة والاستغفار، باب: رقم: 17، 27، ص: 2086/4.

[1] : الزجاج: هو ابراهيم بن السري بن سهل الزجاج، النحوي، اللغوي، المفسر، من كتبه؛ معاني القرآن، الاشتقاق، توفي سنة 311هـ. انظر معجم الؤلفين لكحالة ص: 27/1.

[2] : النهج الأسمى لـ: النجدي، نقلا عن تفسير الأسماء. ص: 59.

[3] : المقصد الأسمى في شرح اسماء الله الحسنى لـ: أبي حامد الغزالي. (تح: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الجفان والجابي: قبرص: ط:1: 1407 هـ – 1987). ص: 1/ 131. نقلا عن مكتبة العقائد والملل.

3= الإكثار من الأعمال الصالحة، فقوله تعالى:﴿ كلّ شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ [القصص:88]، وقوله تعالى:﴿ كلّ من عليها فان (26) ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام(27) ﴾ [الرحمان:26-27]. يدفع المؤمن إلى المسارعة إلى الأعمال الصالحات، والإكثار منها، لأنها الباقية، حين يفنى كلّ شيء، قال تعالى:﴿ والباقيات الصّالحات، خير عند ربّك ثوابا وخير أملا ﴾ [الكهف: 45].

ثانيـا : الـرّقيـب

ورد هذا الاسم الجليل في القرآن ثلاث مرات [1] :

- في قوله تعالى:﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرّقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد ﴾ [المائدة: 117].
- وفي قوله تعالى:﴿ إنّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النّساء: 1].
- وفي قوله تعالى:﴿ وكان الله على كلّ شيء رقيبا ﴾ [الأحزاب: 52].

قال «الحليمي[2]": وهو –أي الرّقيب- الذي لا يغفل عمّا خلق، فيلحقه نقص أو يدخل عليه خلل من قبل غفلته عنه"، وقال الزّجاج: "الرّقيب : الحافظ الّذي لا يغيب عنه شيء"، ومنه قوله تعالى: ﴿ ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ [ق: 18]»[3]، « والمراقبة هي علم

القلب مع اطّلاع الرّبّ، فما دام هذا العلم في القلب، فالعبد مراقب»[1].

ومن بين الوظائف العملية، التي يثمرها الإيمان كونه تعالى الرّقيب على كلّ شيء نذكر:

- ترك المخالفة حياء من نظر الله تعالى [2]، فالمؤمن حيي بطبعه من النّاس، فما بالك من الله تعالى، وهذا الحياء، ما هو إلاّ تأكيد لحقيقة إيمانه، حيث قالﷺ : ((الحياء شعبة من الإيمان))[3].

---

(1) : النّهج الأسمى لـ: النّجدي. ص: 1/ 393.
(2) : هو أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، الفقيه، الشافعي، المعروف بالحليمي الجرجاني، ولد سنة 338هـ، وتوفي سنة: 403هـ. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان. ص: 2/ 137-138.
(3) : الأسماء والصّفات لـ: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. (تح: عماد الدين أحمد حيدر، دار الكتاب العربي: بيروت – لبنان، ط: 2: 1415 هـ- 1994م). ص: 1/ 138.
(1) : المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى لـ: عبد العزيز الدّريني. (مطبعة محمّد علي صبيح: ميدان الأزهر
الشريف: مصر، ط: 1: د ت). ص: 31.
(2) : انظر المرجع نفسه. ص: 31.

- سهولة العبادات، واستغلال الوقت في آدائها[4]، فقد قيل «لبعضهم : بماذا يستعين العبد به، على حفظ بصره عن المحارم، قيل: بأن يعلم أنّ الله يراه، ومن غلبت المراقبة على قلبه،لم يضّيع في البطالة وقته، بل يبذل في الخدمة جهده»[5].
- إذا كان العبد يعلم «أنّ الله تعالى رقيبه وشاهده في كلّ حال، ويعلم أنّ نفسه عدوّ له، وأنّ الشيطان عدوّ له، وأنهما ينتهزان الفرص، حتّى يحملانه على الغفلة، والمخالفة، فيأخذ منهما حذره، بأن يلاحظ مكانما، وتلبيسهما، ومواضع انبعاثهما، حتّى يسدّ عليهما المنافذ والمجاري»[6].

ثالثــا : المحيــي المميــت

وردت صفتي الإحياء والإماتة، في العديد من الآيات الكريمة، نذكر منها:

- قوله تعالى:﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون﴾ [البقرة: 28].
- قوله تعالى:﴿ يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير ﴾ [الحديد: 02].

وقد قال « الحليمي في معنى المحيي : إنّه جاعل الخلق حيّا، بإحداث الحياة فيه، وقال في معنى المميت : إنّه جاعل الخلق ميّتا بسلب الحياة، وإحداث الموت فيه »[1].

ومن بين أهمّ ما يحقّقه الإيمان، بهذين الإسمين الجليلين ما يأتي :

1= قول الحق دون خوف أو تردّد : فالإيمان بأنّ الله هو المحيي، وأنه هو المميت يكسب الفرد المؤمن حصانة من خشية أولئك الأرباب المزّيفين، الذين يظنّون أنّ الإحياء والإماتة بأيديهم، فلا يخشى من جبروت الملوك والحكّام ولا من قوّة أو قهر الأقوياء والظلاّم، ما دام الموت واحد، والعمر واحد والرّب المحيي المميت واحد، وهو الوحيد الذي بيده آجال العباد، فلا يقدر أحد مهما علا شأنه تبديلها أو تغييرها، أو تقديمها أو تأخيرها.

---

(3) : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الحياء من الإيمان، رقم 24. ص 17/1، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأقصاها وأدناها وفضيلة الحياء، رقم 35، ص 63/1

(4) : انظر المقصد الأسنى لـ: الدريني. ص: 31.

(5) : المرجع نفسه. ص: 31.

(6) : المقصد الأسمى لأبي حامد الغزالي. ص: 118/1، نقلا عن قرص: مكتبة العقائد والملل.

(1) : الأسماء والصّفات لـ: البيهقي. ص: 133/1.

2= بذلّ النّفس في سبيل الله: الإيمان بكونه تعالى هو المحيي المميت، وأنّه جاعل لكلّ أجل كتاب، وأنّ موعد الموت، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر، حيث قال تعالى :﴿ وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابا مؤجّلا﴾ [آل عمران:145]. وقال تعالى :﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الأعراف: 34]؛ فالإيمان يجعل المؤمن يقبل على الموت، بكلّ راحة وسكينة، ويستجيب لبذلها في سبيل الله تعالى كما أمر ومتى أمر، فالمؤمن، موقن بأنّه إذا حضر أجله مات ولو كان في بيته، وبين أهله، وموقن أيضا أنّه ما لم تحن ساعته، فلن يدركه الموت، ولو كان وسط الوغى، يحارب بألف سيف وسيف، ولعلّ هذا ما يشير إليه قوله تعالى:﴿ يا أيّها الذين آمنوا، لا تكونوا كالّذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾ [آل عمران: 156].

رابعا: الرزّاق – الرازق.

ورد هذا « الاسم مفردا مرّة واحدة في قوله تعالى: ﴿ إنّ الله هو الرّزّاق ذو القوّة المتين ﴾ [الذاريات: 58]،...وورد بصيغة الجمع، خمس مرات منها قوله تعالى:﴿ وارزقنا وأنت خير الرّازقين ﴾ [المائدة: 114]، وقوله سبحانه:﴿ والله خير الرّازقين ﴾ [الجمعة:11]»[1].

«وقال الحليمي في معنى "الرّزّاق" : المفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواما إلاّ به، والمنعم عليهم بإيصال حاجتهم من ذلك إليهم، لئلا تنغّص عليهم لذّة الحياة، بتأخّره عنهم، ولا يفقدوها أصلا لفقدهم إيّاه»[2].

ومن بين الثمرات العملية التي تنجم عن الإيمان بهذا الإسم الكريم نذكر:

1= اليقين بأنّه تعالى هو الإله الوحيد المعبود، يشهد لهذا قوله تعالى :﴿ قل من يرزقكم من السّموات والأرض قل الله وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: 24]. كما قال تعالى في صيغة سؤال استنكار ﴿ أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجّو في عتّو ونفور﴾ [الملك: 21].

2= شكر الله تعالى على ما حباهم به من عناية لهم وحفظ لحياتهم: حيث قال تعـ ـ ـالى:

---

(1) : النهج الأسمى لـ: النّجدي. ص: 193/1.
(2) : المرجع نفسه. ص: 194/1.

﴿ يا أيّها النّاس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السّماء والأرض لا إله إلاّ هو فأنّى تؤفكون﴾[فاطر:03]. وقال تعالى:﴿ وما من دآبة في الأرض إلاّ على الله رزقها﴾[هود:06].

3= اكتساب العزّة والكرامة: فالمؤمن بأنّ الله تعالى هو الرّزاق، يكفر بأن يكون كلّ من عداه كذلك، فلا يذلّ لأجل الحصول على لقمة عيش، ولا يداهن، أو يغش أو يخدع،...الخ. فهو على يقين من أنّ رزقه واصله لا محالة، ما دام على قيد الحياة، ذلك أنّ الله تعالى قال:﴿ وكأيّن من دآبة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإيّاكم﴾ [العنكبوت: 60]. « أي لا تطيق جمعه ولا تحصيله. ولا تدّخر شيئا لغد: ﴿ الله يرزقها ﴾ أي يقيّض لها رزقها على ضعفها وييسّره عليها، فيبعث إلى كلّ مخلوق من الرّزق ما يصلحه، حتّى الذّر في قرار الأرض والطير في الهواء، والحيتان في الماء »[1].

4= الابتعاد عن جريمة الوأد والقتل؛ المقترفة ضدّ الأولاد، بسبب الفقر والفاقة؛ فالمؤمن بأنّ الله هو الرّزاق، المتكفّل برزقهم ورعايتهم، لا يقدم على جريمة شنعاء كهاته، قال تعالى :﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾ [النعام: 152].

خامسـا : الخـافـض الرافـع.

ويبدو هذان الإسمان بشكل واضح وجلي في قوله تعالى :

- ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ [البقرة: 253].
- ﴿ وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم ﴾ [الأنعام: 83].
- وفي قوله تعالى: ﴿ يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ [المجادلة: 11].
- وفي قوله تعالى: ﴿ إذا وقعت الواقعة (1) ليس لوقعتها كاذبة (2) خافضة رافعة (3)﴾ [الواقعة:1-3].

وفي قوله تعالى: ﴿ ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: 4].

- وفي قوله تعالى: ﴿ ورفعناه مكانا عليا﴾ [مريم: 57].

---

[1]: تفسير القرآن العظيم لابن كثير. 421/3.

« قال الحليمي : ولا ينبغي أن يفرد الخافض عن الرّافع في الدّعاء، فالخافض هو الواضع من الأقدار، والرّافع المعلي للأقدار»[1]، والله سبحانه وتعالى هو "الواضع من عصاه والرّافع من تولاّه حقّا وعدلا، أو المضلّ والمرشد في الدّين، أو مسقط الدّرجات ومعلّيها في الدنيا"[2] وحتى في الآخرة.

فإذا آمن لعبد بكونه تعالى هو لخافض الرّافع، سارع إلى :

1= القيام بما يرتضيه تعالى من أفعال، ليهديه إلى الصّراط السوّي ويعلي درجاته في الدنيا والآخرة بين العالمين.

2= الابتعاد قدر الإمكان عمّا يغضبه تعالى، ويستدعي وعيده، وذلك ليتفادى وضعه في دركة من دركات جهنّم، فيوضع يوم يرفع النّاس، ويذلّ حين يعزّ الخلق، ويخزى يوم ينصر العبيد، وحينها يندم، ولا ينفعه إذ ذاك النّدم.

3= التحرّر من العادات البالية، القائمة على أنّ الرّفعة تكون بكثرة المال والقوّة وإنّما هي بقدر الإيمان، والرّشاد، وأنّ المذلة تكون بقلّة المال أو ضعف القوّة، وإنّما هي بالابتعاد عن سبيل الله، والإعراض عن هداه.

سادســا: الــودود :

ورد اسم "الودود" في القرآن الكريم، في هاتين الآيتين:

- ﴿ واستغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه إنّ ربّي رحيم ودود ﴾ [هود: 90].
- ﴿ إنّه هو يبدئ ويعيد (13) وهو الغفور الودود(14)﴾ [البروج: 13-14].

"والمودّة هي المحبّة، والودود المحبّ، قال تعالى: ﴿ يحبّهم ويحبّونه ﴾ [المائدة: 54]، ومحبّة الله تعالى للعبد، إرادة تقريبه وإكرامه، ومحبّة العبد لله؛ محبّته في قلبه، وهو تعلّق الهيبة، والأنس، يعرف بآثاره، ويظهر بأنواره، وهو الذي يقطع الوسواس"[1]، « ومحبّة الله لعباده، هي –أيضا- الإنعام عليهم، والإحسان إليهم، والرّضا عنهم، والثّناء عليهم، والعفو عنهم، والغفران لذنوبهم، أو هو المتحبّب إلى أوليائه، بمعرفته، وإلى المذنبين بعفوه ورحمته، وإلى العامّة برزقه وكفايته»[2].

ومن عرف الله تعالى، بهذا الاسم الجليل، لم يكن بوسعه سوى أن :

---

[1] : الأسماء والصّفات للبيهقي. 137/1.

[2] : أسماء الله لـ:حسين محمّد مخلوف (دار الشهاب: باتنة – الجزائر، دط، د ت). ص: 47.

[1] : المقصد الأسنى لـ: الدريني. ص : 39-40.

[2] : أسماء الله الحسنى لـ: حسنين مخلوف. ص : 62.

1= أن يحّبه، « ويلهج اللّسان بالذّكر، ويعلّق القلب بالمشاهدة، فهو –أي هذا المحبّ- أبدا عديم القرار، فقيد الاصطبار، لا يسكن أنينه، ولا يهدأ حنينه »[3]، ولا يطيق بعاده، حتى قال بعضهم :

« أنا قـد لـذّ لقلبـي كتلّ مـاه ۞ يرتضيه في الهوى إلاّ انقطاعـي.

إنّ ذلّـ ـي فـي هـ ـواه عـ ـزّتـ ـي ۞ وافتراقي في الهوى عين اجتماعي.

وقال بعضهم: تعبيرا عن شدّة تعلقه بذاته تعالى، وشغله به ما يأتي.

وأميـل نـحـ ـو محـ ـدّثـ ـي ليـرى ۞ أنّي أعرت حديثه عقلي.

وشغلت عن فهم الحديث سوى ۞ ما كان فيك فإنّه شغلي.

وقال بعضهم الآخر:

أيـ ـا غـائبـا لـم يغب حسنـ ـه ۞ ويا حاضرا ليس بالحاضـر.

بعـدت فقرّبـك الشـ ـّوق لـ ـي ۞ وغبت فما غبت عن ناظري[4].

2= اتّباع سنّة رسول الله ﷺ؛ إذ في ذلك بيان ودليل على حبّه تعالى وذلك مصداقا لقوله سبحانه: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: 31]، وكما أنّه دليل على حبّ الله تعالى، فإنّه في الوقت ذاته، سبيل إلى نيل محبّته، ثمّ محبّة العالمين من بعده، فقد قال رسول الله ﷺ : ((إنّ الله إذا أحبّ عبدا، دعا جبريل فقال: إنّي أحبّ فلانا فأحبّه، قال: فيحبّه جبريل، ثم ينادي في السّماء فيقول: إنّ الله يحبّ فلانا فأحبّوه، فيحبّه أهل السّماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض))[1].

3= محبّة النّاس لله تعالى، وإكراما لوجهه الكريم، ويكون في هذا دلالة على قوّة إيمانه، وعلى مدى حبّه لله تعالى، قال ﷺ : ((ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، ومن كان يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النّار))[2].

---

(3) : المقصد الأسنى لـ: الدّريني. ص: 40.

(4) : المرجع نفسه، ص: 30 – 32.

(1) : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصّلة والآداب، باب: إذا أحبّ الله عبدا، حبّبه إلى عباده. رقم: 2637 ص: 4/ 2030. وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم: 3037، ص: 3/ 1175.

(2) : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتّصف بهنّ وجد حلاوة الإيمان، رقم: 43. ص 1/66. وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، رقم: 13، ص: 1/14.

كانت هذه بعض من أسمائه تعالى الحسنى، الدّالة على صفاته الجليلة، وقد تبيّن لنا، بشيء من الوضوح، كيف أنّها تحمل بين طيّاتها، معان إيمانية، تدفع المؤمن دوما إلى الاتصال بالله تعالى، وإلى الانسياق إلى أوامره، والابتعاد عن نواهيه، قدر الإمكان، وبالتّالي يمكنه بيان وظيفة إيمانه وفاعليته، بشكل واقعي، بعيد عن الأوهام، والادّعاءات.

المطلب الثاني
الترغيب والتّرهيب

اعتمد القرآن الكريم لتفعيل الإيمان، لدى المؤمنين، ولجعله يستغرق كلّ أوقاتهم، -إضافة إلى ما سلف-، أسلوب التّرغيب والتّرهيب، الذي ينجرّ عنه الثواب أو العقاب ذلك أنّ « الله سبحانه وتعالى وضع ميزان الثواب والعقاب، منذ اللّحظة الأولى، لوجود الإنسان على الأرض، حيث قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِما يَأْتِيَنكُمْ مِني هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالذِينَ كَفَرُوا وَكَذبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 38-39]»[1]. ليس هذا وحسب بل إنّ القرآن الكريم يقرّر «اتّخاذه التّرغيب، أو الثواب والعقاب، جزاء يتناسب وما يقوم به كلّ فرد من الأفراد، حفزا على الإكثار من العمل الصّالح والنّافع، وردعا عن العمل السيّء والضّار، قدر الإمكان، كما يقرّر أنّ الثّواب والعقاب ليس فقط للترغيب والترهيب، بالمعنى المحدود المتعارف

---

[1]: موازين القرآن الكريم لـ: عزّ الدين بليق. (دار الفتح:بيروت – لبنان، ط:1- 1403هـ –1983م). ص:88/2

علـيه، وإّنما هما نتيجتان حتمّيتان للسّلوك إيجابا وسلبا، حيث قال تعالى:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرِةٍ خَيْراً يَـرَهُ (7) وَمَـنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ شَرّاً يَرَهُ (8) ﴾ [الزلزلة: 7-8]، فهذا الّنص صريح في إرساء تلك القاعدة الجزائية، الّتي بها يمكن للعدل أن يتحقّق، مع الإشارة إلى ما فيها من دقّة الحساب»[2].

ثمّ إنّ أسـلوب الّترغيب والّترهيب، يتماشى وطبيعة البشر ذلك أنّ الإنسان ميّال بطبيعته إلى ما ينفعه ويحقّق حاجته، وفي الوقت ذاته مبتعد عن كلّ ما يضرّه أو يعطلّ مصلحته، وبما أنّ القرآن الكريم، كـتاب أنـزل رحمـة للبشر، فهو مساير لطبيعتهم، متماش مع فطرتهم، ويثبت ذلك اعتماده أسلوب الّترغيب والّترهيب بنسبة لا تقلّ عن: 49.53 % من مجموع آياته الكلّي[3]،
وفي قو ـله تعـالى:﴿ ..ولكـن الله حّبب إليكم الإيمان وزّينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصـيان أولـئك هم الرّاشدون ﴾ [الحجرات: 7]، إشارة صريحة إلى ذلك، «فكلمات حّبب وزّين، وكـرّه، في الّنص صريحة إلى حدّ كبير بأنّ القرآن الكريم قد سلك أساليب الترغيب والترهيب في غرس الإيمـان بالله في القلوب أو تثبيته فيها، ثم في إبعادها عمّا يضادّ الإيمان والإستقامة والطاعة، وهو الكفر والفسوق والعصيان»[1].
وقد تفطّن أحدهم إلى أهمّية أسلوب الترغيب والترهيب في تربية الّنفس فقال:

«وإذا هممت فناج نفسك بالمنى ۞ وعدا فخيرات الجنان عدات
واجعل رجاءك دون يأسك جّنة ۞ حّتى تزول بهّمك الأوقـات

وقال أيضا :

بحفظ الجسم تبقى النفس فيه ۞ بقاء الّنار تحفظ بالوعـ ـ ـ ـاء
فباليـأس الممضّ فلا تمتهـ ـا ۞ ولا تمدد لها طول الرّجـ ـ ـاء
وعدها في الشدائـد رخـ ـ ـاء ۞ وذكّرها الشّدائد في الرّخـاء
يعـدّ صلاحها هذا وهـ ـ ـذا ۞ وبالتركيب منفعة الـ ـ ـ ـدواء»[2]

---

[2] : أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم ل: حسين جرنو محمود جلّو. (مؤسسة الرسالة: بيروت – لبنان، ودار العلوم الإنسانية، دمشق – سوريا: ط 9: 1414هـ-1994م). ص: 161.
[3] : انظر المرجع السابق ص:272

[1] : أساليب التشويق والتعزيز لت: حسين جرنو. ص: 163.
[2] : صيد الخاطر لـ: جمال الدّين أبي الفرج عبد الرّحمان بن الجوزي البغدادي. (تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط :1: 1412هـ – 1992م ص: 239.

والآن بعدما عرفنا درجة اعتماد القرآن الكريم أسلوب الترغيب والترهيب، لدفع العباد إلى طاعته والامتثال إلى أوامره، وردعهم عن معصيته، وعن الانكفاء عن الإستجابة إليه، سأحاول بيان استعماله لهذا الأسلوب، للتّأكيد على ارتباط العمل بالإيمان، فهو إمّا أن يكون جزءا من الإيمان، أو أن يكون لازما عنه، ويكون بالتالي الإيمان تصديق بالفعل، عمل بالقوّة، والنتيجة واحدة لكلا الأمرين.

أولا: التـرغيب فـي تحقيـق وظيفـة الإيمـان

يعدّ العمل الصّالح، المرآة العاكسة لوظيفة الإيمان في حياة المؤمن، ولهذا أحاطه القرآن الكريم بعناية فائقة، واهتمام بّين، يتجلّى من خلال ما يأتي:

1= الارتباط الشّديد بين الإيمان والعمل الصالح

يشهد لهذا، أنّه كان «من أهمّ سمات العهد المدني، من القرآن الكريم؛ حيث جعله –أي العمل الصّالح- رديف الإيمان، الذي كان دعامة العهد المكّي، فلا يكاد يذكر الإيمان أو أهله إلاّ مقرونا بالعمل الصّالح، إمّا صراحة، ... وإمّا ضمنا، كترتيب الأمر والنّهي على نداء المؤمنين»[1]، كما وقد بلغت نسبة اقتران العمل أو السّعي، بالإيمان، ثلاثين بالمائة (30%) من مجموع الإيمان ومشتقاته[2]، وفي هذا دلالة واضحة على مدى ارتباط بالعمل الصّالح.

2= قصر الجزاء على مقدار السّعي، وتفاوت الدّرجات على وفقـه[3]:

يعضّد هذا المعنى الآيات القرآنية العديدة، الّتي توالت لبيان أنّ الله تعالى، لن يظلم النّاس، ولن يبخسهم حقّهم –تعالى عن ذلك علوا كبيرا- وأنّهم إنّما يجازون على وفق ما قدّموه من أعمال في الحياة الدّنيا، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشرّ ومن بين تلك الآيات نذكر قوله تعالى :

- ﴿ولكلّ درجات ممّا عملوا وما ربّك بغافل عمّا يعملون﴾ [الأنعام: 132]، بمعنى أنّ «لكلّ عامل بطاعة الله درجات، جزاء ما عملوا، ﴿وما ربّك بغافل عمّا يعملون﴾ ، قال ابن عباس: يريد عمل المشركين، وهذا وعيدهم بالجزاء على أعمالهم»[4].

---

(1) : أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم ل: حسين جرنو. ص: 147.
(2) : انظر المرجع نفسه. ص: 147.
(3) : انظر المرجع نفسه. ص: 148.
(4) : الوسيط في تفسير القرآن المجيد لـ: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية : بيروت – لبنان، ط : 1: 1415هـ –1994م). ص: 324/2.

➢ ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الجاشية: 58]، «أي: تجزون بأعمالكم، خيرها وشرّها»[1].

➢ ﴿ومن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره (7) ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره (8) ﴾[الزلزلة: 7-8].

عرّف العالم الآن، أنّ الذّرة، لا «ترى أبدا حتّى بأعظم الماهر في المعامل، إنّما هي "رؤيا" في ضمير العلماء لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه، ولا بمجهره، وكلّ ما رآه هو آثارها! فهذه أو ما يشبهها من ثقل، من خير أو شرّ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها! .. عندئذ، لا يحقر "الإنسان" شيئا من عمله، خيرا كان أو شرا... إنّما يرتعش وجدانه أمام كلّ عمل من أعماله، إرتعاشة ذلك الميزان الدّقيق، الذي ترجع به الذّرة أو تشيل! إنّ هذا الميزان لم يوجد له نظير، أو شبيه بعد في الأرض،... إلاّ في القلب المؤمن»[2].

3= بيـان ثمـرات ارتبـاط العمـل بالإيمـان

نذكر من بين تلك الثمرات ما يأتي :

I- نيل الرّحمة والهداية الإلهية : يشهد لهذا قوله الله تعالى:﴿ يا أيّها النّاس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (174) فأمّا الّذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطا مستقيما (175)﴾ [النساء: 174-175]، «قال ابن جريج[3]: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن، وقوله:﴿ فسيدخلهم في رحمة منه﴾ ، أي يرحمهم فيدخلهم الجنّة، ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعا في الدّرجات من فضله عليهم، وإحسانه إليهم، وقوله:﴿ ويهديهم إليه الله صراطا مستقيما ﴾، أي: طريقا واضحا، قصدا، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدّنيا والآخرة، فهم في الدّنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السّلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنّات»[1].

II- الفـلاح فـي الدّنيـا والآخـرة : يشهد لفكرة الفلاح في الدّنيا والآخرة، وتحقّقها عن طريق تحقيق ارتباط العمل الصّالح بالإيمان، قوله تعالى:﴿ الذين يتّبعون الرّسول النّبي الأمّي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم

---

(1): تفسير القرآن العظيم لـ: بن كثي. ص: 153/4.
(2): في ظلال القرآن الكريم لسيد قطب. ص: 3956/6.
(3): ابن جريج: (80هـ-150هـ)، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج محدث، مفسر ، ...من آثاره: السنن، تفسير القرآن، مناسك الحج. انظر: معجم المؤلفين لكحالة. ص: 318/2.
(1): تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 593/1.

الطّيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[الأعراف: 157]، «ومعنى الإتّباع: الاقتداء فيما جاء به النّبي الأمّيﷺ اعتقادا وقولا وعملا»[2]، إذن فهؤلاء الذين آمنوا به واتّبعوه، هم المفلحون أي «هم المنجحون، المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثّواب والخلود في الجنّات، والنّجاة ممّا أعدّ الله لأعدائه من العقاب»[3].

III- نيل المغفرة والأجر العظيم : كما رغّب الله تعالى عباده في التّمسك بالأعمال الصّالحات، وربطها بالإيمان –وذلك بأن تكون جزءا منه، أو لازمة عنه- بوعدهم بنيل المغفرة والأجر الكبير والعظيم، ويتبيّن ذلك من خلال آيات عديدة نذكر منها:

- قوله تعالى:﴿ إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرا كبيرا ﴾[الإسراء: 09]، فالقرآن الكريم إذن، يهدي للّتي هي أقوم؛ لقد جاءت «هكذا على وجه الإطلاق:﴿ للّتي هي أقوم ﴾؛ فمن يهديهم؛ وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلّ منهج، وكلّ طريق، وكلّ خير يهدي إليه البشر في كلّ زمان ومكان... ﴿ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرا كبيرا﴾، فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصّالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأوّل مبتور لم يبلغ تمامه، والثّاني مقطوع لا ركيزه له، وبهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم، وبهما معا تتحقّق الهداية بهذا القرآن»[1].
- قوله تعالى:﴿ والذين آمنوا وعملوا الصّالحات لنكفرّن عنهم سيّئاتهم، ولنجزيّنهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾[العنكبوت: 07]، فالله تعالى وعد عباده المؤمنين العاملين الصّالحات بالمغفرة، قائلا:﴿ لنكفرّن عنهم سيّئاتهم ﴾، «أي لنمحونّ عليهم ذنوبهم»[2]، ووعدهم بالجزاء قائلا:﴿ ولنجزيّنهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾، «يقال : لنجزيّنهم يعني : ثوابا افضل من أعمالهم؛

---

(2) : البحر المحيط لـ: ابن حيان. ص: 402/4.

(3) : تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 45/1.

(1) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2215/4.

(2) : بحر العلوم ل: أبي اللّيث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي. (تح: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان: ط: 1: 1413هـ – 1993م). ص: 531/2.

لكلّ حسنة عشرة وأكثر، ويقال : لنجزيّنهم لنثيبّنهم أحسن الذي كانوا يعملون، أي أفضل أعمالهم »[3].

- قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم معفرة وأجر عظيم﴾[المائدة: 09]، وقد فسّر الأجر العظيم بالجّنة[4].

وهكذا من خلال هذه الآيات القرآنية الكريمة – وغيرها – نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد اعتمد أسلوب التّرغيب لتحفيز المؤمنين على ترجمة إيمانهم إلى أعمال، وذلك عن طريق ترتيب الحصول على الجزاء الكريم بعدم الفصل بين الإيمان والعمل الصالح.

د= وراثـة الأرض وتمكيـن الدّيـن واستتبـاب الأمـن.

إمعانا من الله تعالى في ترغيب عباده، في أن يؤمنوا إيمانا مكمّلا بالأعمال الصالحة، إيمانا حقيقيا غير منقوص، وعدهم تعالى بتحقيق غايات كبرى تتضّح من خلال قوله تعالى:﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفّنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[النور:55]. فهذا "خطاب للرسول ﷺ وللأمّة، أو له ولمن معه﴿ليستخلفّنهم في الأرض﴾ ، أي: ليجعلنّهم متصرّفين في الأرض تصرّف الملوك في مماليكهم، ومعلوم أنّ الوعد في تحقّقه، م ل م لة القسم»[1]، ثمّ "﴿وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى﴾ ، أي وليجعلنّ دين الإسلام، مكينا، ثابتا في الأرض، عزيزا قوّيا منيعا، مرهوب الجانب في نظر أعدائه، منصورا على ملّة الكفر»[2]، ثم" ﴿وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا﴾، أي أمنا من الأعداء»[3].

تلاحظ إذن، كيف أنّ الإيمان بالله تعالى، المردف بالأعمال الصّالحات، يفضي إلى تحقيق أهداف قيّمة وعظيمة، لطالما عدونا، ولا نزال حتّى اليوم نعدو، عدوا مريرا لبلوغها، وتحقيقها، لكن عبثا ما نحاول، وما ذاك إلاّ لعدم استكمالنا، واستيفائنا لتلك الشّروط التي تقتضيها، فنحن اليوم، ومذ أن

---

(3) : المرجع نفسه. ص: 531/2.
(4) : انظر: تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 32/2.
(1) : حاشية الشّهاب؛ المسمّى عناية القاضي وكفاية الرّاضي لـ: شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عمر الخفاجي. (دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط1: 1417هـ-1997). ص: 82/7.
(2) : التّفسير في العقيدة والشّريعة والمنهج ل: وهبة الزحيلي (دار الفكر المعاصر: بيروت – لبنان، دار الفكر: دمشق – سوريا،، ط :1: 1411هـ-1991م). ص: 284/18.
(3) : حاشية الشهاب لـ: الخفاجي . ص: 82/7.

انتكست حضارتنا، واختفت بين طّيات الكتب، نحقّق الشّرط الأول -أو نظنّ- ألا وهو: شرط الإيمان؛ أصل الإيمان، ونغضّ الطّرف عن تحقيق الشّرط الثّاني، الذي يعدّ رديف الأوّل، والذي يبقى الشّرط الأوّل من دونه منقوصا، مشوّها، هذا الشّرط هو العمل، إّنه ذلك العنصر الذي يحوّل الخيال إلى واقع، والحلم إلى حقيقة، والّتصديق إلى فعل ظاهر في الحياة، بدل أن يبقى فعلا خابيا، مختفيا داخل الأفئدة.

وقد رأينا أنّ تلك الغايات المنشودة، التي وعد الله عباده المؤمنين العاملين بها هي:

- تحقيق الاستخلاف في الأرض.
- تمكين الدّين الإسلامي.
- تبديل خوف المؤمنين أمنا

ونحن اليوم، كما هو باد لكلّ ذي عينين، ما استطعنا تحقيق خلافة الله في أرضه على الوجه الذي ارتضاه، ولا استطعنا تمكين الإسلام بيننا، فكيف بتمكينه بين العالمين! ولا استطعنا تحقيق الأمن والطّمأنينة في معظم بلادنا، فنحن لا نزال نكوى بنيران الخوف والرّعب منذ أمد بعيد، فما نكاد نخمد نار فتنة، حتّى تطلّ أخرى برؤوسها السّوداء، تنهش جسد الأمّة يوما، بعد يوم، حتى أردته طريحا عليلا.

ولتفادي كلّ هذا، ولتحقيق تلك الغايات العظيمة، ما علينا إلاّ أن نعود إلى نهجنا السّويّ، الذي صنع، وسيصنع –بإذن تعالى- من هذه الأمّة، أمّة عاملة، لا أمّة خاملة، قائدة لا مقودة، هادية مهدية، لا ضالة مضلّلة، وصار واضحا الآن، أنّ هذا الّنهج، هو نهج الإيمان الحركيّ، الفعّال، الذي لا نجاة للأمّة إلاّ به، لا نهج الإيمان السّاكن الخوّار.

و= الأمـن يـوم الفـزع الكبـر : كما رغّب الله تعالى، عباده المؤمنين في تحقيق إيمانهم، وفعل ما يفرضه عليهم، والقيام بما يقتضيه، بوعدهم بالأمن والطمأنينة يوم الفزع الأكبر، فقال –عزّ من قائل-:﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون﴾[النمل: 89]. إذن فالله تعالى يعد من "أتى بـ: لا إله إلاّ الله، على حقيقتها، وما يجب لها"[1] بما هو خير منها، قائلا:﴿ فله خير منها﴾ ، "أي كما قال ابن عّباس: وصل إليه الخير منها، وقال مجاهد: وقيل : فله الجزاء الجميل وهو الجّنة،...وقيل ﴿فله خير منها﴾، للّتفضيل، "أي ثواب الله خير من عمل العبد"[1]، كما يعدهم تعالى بالأمن من فزع يوم

---

[1] : الجامع الأحكام القرآن لـ: القرطبي. (تح: أحمد عبد العليم البردوني، دار الكتب المصرية: القاهرة – مصر، ط:3 دت). ص: 244/13.

[1] : مجاهد: مجاهد بن جبر؛ ثقة، إمام في التفسير، وفي العلم، مات سنة 102هـ، وقيل سنة 103هـ أو 104هـ، توفي وله 83 سنة. انظر: تقريب التهذيب لـ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. (تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط:1: 1413هـ-1993م). ص: 159/2.

القيامة، حيث قال تعالى: ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون﴾، « فالأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء، وما بعده فضل من الله ومّنة، ولقد خافوا الله في الدّنيا، فلم يجمع عليهم خوف الدّنيا، وفزع الآخرة، بل أمّنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله»[2].

هـ= النّجـاة من الـنّار: يصوّر الله تعالى لعباده المؤمنين، من خلال آيات عديدة، مشاهد الحشر والحساب، والقذف في النّار، ثم يتبعها بمشاهد النّجاة من النّيران والدّخول إلى الجنان، لكن لمن هذا الدّخول؟ ولمن هذه النّجاة؟ إنّها للذين اتقو ربهم، للذين آمنوا به، وعملوا الصّالحات. يقول الله تعالى:﴿ فوربّك لنحشرّنهم والشياطين ثمّ لنحضرّنهم حول جهنّم جثّيا (68) ثمّ لنـ عن من كلّ شيعة أيّهم أشدّ على الرّحمان عتّيا (69) ثمّ لنحن أعلم بالذين هم أولى بـا صليّا (70) وإن منكم إلاّ واردها كـان على ربـّك حتما مقضيا (71) ثمّ ننجّي الذيـن اتقّوا ونذر الظّالمين فيها جثّيـا (72)﴾[مريم: 68-72].

واضح من خلال هذه الآيات الكريمة، أنّ القرآن الكريم يستجيش مشاهر الرّهبة والرّغبة، في النّفس، الرّهبة من أن يكون المآل إلى جهنّم مصحوبا بصور الخزي والذلّ، والمهانة، والرّغبة في النّجاة من النّار بعد ورودها، سواء أكان الورود بمعنى الدّخول الحقيقي إلى النّار، دون الشعور بما فيها من عذاب، أو كان بمعنى المرور على الصّراط[3]. ولهذا كان لا بد لمن يرغب في النّجاة من عذاب النّار في الآخرة أن يقدّم ثمنها في الدنيا، وهو جلي من خلال قوله تعالى:﴿ ثُم نُنجي الذِينَ اتقَوْا ﴾، فالثمن إذن تقوى الله، وهي في «الشّرع حفظ النّفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور»[1].

ز- دخـول الجنـّة والخلـود فيـها : جعل الله سبحانه وتعالى، دخول الجّنة والخلود فيها جزاء للذين آمنوا وعملوا الصّالحات، ترغيبا للعباد في الإيمان به، والتّقرب إليه بالعمل الصّالح، وقد ورد هذا الوعد العظيم في العديد من الآيات الكريمة، والتي نذكر منها قوله تعالى:

- ﴿وَبشرِ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ أن لَهُمْ جَناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ كُلمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبلُ وَأُتوا بِهِ مُتشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة: 25]، وهم خالدون فيها بمعنى أنّهم «دائمون لا يموتون ولا يخرجون منها أبدا»[2].

---

[2] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2669/5.

(3) : انظر الجامع لأحكام القرآن لـ: القرطبي. ص: 136/11-137.

[1] : المفردات في غريب القرآن لـ: لأصفهاني ص: 531.

[2] : بحر العلوم لـ: السمرقندي. ص: 104/1.

➢ ﴿ إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60) جَناتِ عَدْنٍ التِي وَعَدَ الرحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً (61) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً (62) تِلْكَ الْجَنةُ التِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِياً (63)﴾ [مريم: 60-63]، فهؤلاء الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصّالحات، "يدخلون الجنّة للإقامة؛ الجنّة التي وعد الرّحمان عباده إيّاها، فآمنوا بها بالغيب، قبل أن يروها، ووعد الله واقع لا يضيع... ثمّ يرسم صورة للجنّة ومن فيها... ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلاماً ﴾، فلا فضول في الحديث ولا ضجّة ولا جدال، إنّما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجوّ الرّاضي، صوت السّلام،... ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً ﴾، فما يليق الطّلب ولا القلق في هذا الجوّ الرّاضي النّاعم الأمين ﴿تلك الجنّة التي نورث من عبادنا من كان تقّيا﴾.. فمن شاء الوراثة، فالطّريق معروف: التوبة والإيمان والعمل الصالح"[1].

ك= نيل الدّرجات العلى في الجنة: فبالإضافة إلى التّرغيب بالنجاة من النّار، ودخول الجنّة والخلود فيها، يرغّب الله -عزّ وجلّ- عباده في الإيمان، والعمل الصّالح، بوعده إيّاهم بنيل الدّرجات العلى في الجنّة، حيث قال تعالى:﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدّرجات العلى (75) جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى (76) ﴾[طه: 75-76].

وقال أيضا -عز من قائل-:﴿والذين آمنوا وعملوا الصّالحات لنبوّئنهم من الجنّة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾[العنكبوت: 58]، أي "لنبوّئنّهم غرفا لأجل إيمانهم وعملهم الصّالح"[2].

وفي خلاصة القول، يتبيّن لنا أنّ كلّ تلك الوعود العظيمة، والعطاءات الجزيلة، التي تنتظر المؤمنين العاملين الصّالحات في الحياة الدّنيا والآخرة أيضا، لكفيلة بجذب العباد، وشدّهم إلى تحقيق إيمانهم، والعمل على تكميله بصالح الأعمال، التي تعدّ في واقع الأمر، برهانا ودليلا على فاعلية ذاك الإيمان ووظيفته في حياة المؤمن.

ثانيا: الترهيب من عدم تحقيق وظيفة الإيمان

---

[1] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2314/4-2315.

[2] : التحرير والتنوير لـ: ابن عاشور. ص: 23/21.

سبق وأن عرفنا أنّ وظيفة الإيمان، إنّما تحقّق بدرجة الامتثال لما أمر به الله تعالى، وكذا درجة الابتعاد عن نواهيه، فالأمر الأوّل يحقق تعاليم الله تعالى ويجسّدها في حياة الفرد والأمّة، وأمّا الأمر الثاني، فإنّه يبعد عن الوظيفة الإيمانية، كلّ ما قد يشوّهها أو يسيء إليها. وعليه فإنّ الله -عزّ وجلّ- إضافة على استعماله أسلوب الترغيب –كما رأينا- لتحقيق وظيفة الإيمان، فإنّه قد استعمل كذلك أسلوب الترهيب من إهمال وظيفة الإيمان، أو إضعافها، وذلك من خلال أمرين :

1= التّرهيب من إهمال العمل الصّالح الذي تتضمّنه أوامره تعالى.

2= التّرهيب من الجرأة على اقتحام نواهيه، بارتكاب المعاصي.

ولنبدأ ببيان الأمر الأول :

1= التـرهيب مـن إهمـال العمـل الصّـالح

لمّا كان العمل الصّالح، هو التّرجمة الفعلية، للإيمان بالله تعالى، وهو الوظيفة العملية التي يؤديها هذا الإيمان، فإنّ الله تعالى، توعّد أولئك الذين يقولون بأفواههم: "آمنا بالله"، ولا شيء من أفعالهم يبيّن ذلك الإيمان أو يثبته، بالمقت، بمقته تعالى، وأيّ شيء أشنع، وأذلّ من هذه الصّفة؟ كما أنّه تعالى، جعل معصية الله تعالى، من صفات الكافرين، وجعل التولّي عن الطاعة من صفات المنافقين، ومن ذا الذي يرضي بأن يتّصف بصفة من صفات هؤلاء أو أولئك؟! .

إذن من بين ما توعّد الله تعالى به، أولئك المهملين لطاعة الله ما يأتي:

أ/ مقت الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون: يشهد لهذا المعنى قوله تعالى:﴿ يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (2) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (3)﴾[الصّف: 2-3]. إنّ هاتين الآيتين الكريمتين، «تتضمّنان العقاب من الله سبحانه وتعالى، والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون،...وهما بذا ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم...، الصّدق والاستقامة، وأن يكون باطنه كظاهره، وأن يطابق فعله قوله»[1].

ودلـيل اسـتنكاره الشّديد قوله تعالى:﴿ لما تقولون ما لا تفعلون﴾، فهو «استفهام على جهة الإنكـار والتّوبيخ، على أن يقول الإنسان على نفسه من الخير ما لا يفعله، أمّا في الماضي فيكون كذبا، وأمّا في المستقبل فيكون خلفا، وكلاهما مذموم»[1]، وأيّ ذم؟! إنّه ذم استوجب مقت الله تعالى ورسوله،

---

(2) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 3553/6.
(1) الجامع الأحكام القرآن لـ: القرطبي. ص: 80/18.

بموجب الميثاق الذي أبرموه مع الله تعالى، والذي يشهد له قوله –عز وجلّ-:﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتّقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ [المائدة: 07]، إذن فالمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا، فصار عليهم الآن أن يترجموا هذا القول إلى فعل حقيقي، وطاعة ظاهرة، وإلاّ فلا مناص من أن ينالهم وعيد الله تعالى ومقته –أعاذنا الله وإيّاكم منه-.

ب/ بيان أن رفض طاعة تعالى، من صفات الكافرين: فمن بين ما يرهب المؤمن أشدّ رهبة، أن يتّصف بإحدى صفات الكافرين، وقد ثبت أنّ صفتهم الأولى هي معصية الله ورسولهﷺ ورفض طاعتهما، حيث قال تعالى :﴿ إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا (64) خالدين فيها أبدا لا يجدون وليّا ولا نصيرا (65) يوم تقلّب وجوههم في النّار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا (66)﴾ [الأحزاب: 64-66]. فقول الكافرين "يا ليتنا" للتمنّي، "وهو كناية على التّندّم على ما فات، وقد علموا يومئذ أنّ ما كان يأمرهم به النّبيﷺ هو تبليغ عن مراد الله تعالى منهم، وأنّهم إذا عصوه، فقد عصوا الله تعالى، فتمنّوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرّسول المبلّغ عن الله تعالى"[2]، لأجل هذا كان حرّيا بالمؤمنين أن يسعوا جاهدين إلى تطبيق أوامره تعالى، واجتناب نواهيه، حتّى لا يصيبهم، بعض ما أصاب الكافرين جرّاء معصيتهم لله تعالى، وحتى لا ينطبق عليهم وصف المعصية ولو جزئيا.

ج/ بيان أنّ التّولّي عن طاعة الله تعالى من صفات المنافقين: كذلك ممّا كان –ولا يزال- يرهب عباد الله المؤمنين، أن يتصفوا بإحدى صفات النّفاق، ومن بين الصّفات الّتي عابا الله تعالى عليهم، التّولي عن الطّاعة؛ حيث يبدون الطّاعة في الظاهر، ثم يتولّون عنها في الخفاء، يشهد لهذا قوله تعالى:﴿ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الّذي تقول والله يكتب ما يبيّتون فأعرض عنهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا﴾[النّساء: 81]، وقال –أيضا- عزّ من قائل :﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنّ قل لا تقسموا طاعة معروفة إنّ الله خبير بما تعملون﴾ [النور: 53].

فالله تعالى يكشف إحدى صفات المنافقين لرسولهﷺ ولعباده المؤمنين، فيخبرهم، "بأنّهم يظهرون الموافقة والطّاعة، فيقولون: أمرنا طاعة لك، أو أمرك طاعة؛ أي أمرك مطاع، نفاقا وانقياد ظاهرا، فإذا خرجوا من مكانك وتواروا عنك –أي عن رسولﷺ- دبّروا ليلا رأيا غير ما أظهروا لك"[1].

---

[2] : التحرير والتنوير. ص: 116/22.
[1] : التفسير المنير لـ: الزّحيلي. ص: 175/5.

ولهذا وصف تعالى طاعتهم تلك، في آية النور، بقوله﴿طاعة معروفة﴾ ، قيل معناه: "طاعتكم طاعة معروفة لنا، فهي مجّرد طاعة باللّسان فحسب، من غير تصديق قلبي، وقول لا فعل معه، وكلّما حلفتم كذبتم"[2]، ولهذا كان على المؤمنين أن يتحسّسوا إيمانهم ويتعاهدوه ويؤكدوا صدقه، بأن يكون إيمانهم بالله، اعتقادا جازما، وأن يكون إقرارهم بطاعته، فعلا سار في كافّة مناحي حياتهم، وذلك حتى يتميّزوا عن المنافقين، وذلك أن المؤمن لا يتميّز عن المنافق إلاّ بعمله، وإلاّ فكلاهما يظهر الإيمان، وما بقلبيهما يعلمه الله، ولا سبيل للنّاس أن يعلموه.

وفي الأخير يمكننا القول بأنّ كون معصية الله تعالى، أو التّولي عن طاعته من صفات الكافرين والمنافقين –بدليل ما ذكر من آيات الذّكر الحكيم- يتضمّن ترهيبا ضمنيا لعباد الله المؤمنين، حتّى لا يتصفوا ولو بشيء من تلك الصّفات، فينالهم ما توعّد الله تعالى به الكافرين والمنافقين.

2= الترهيب من اقتراف المعاصي

إنّ اعتماد القرآن الكريم، أسلوب التّرهيب من اقتراف المعاصي والذّنوب، ساهم في الحفاظ على فعّالية إيمان المؤمن، كما ساهم في الحفاظ على دوام سيره قدما على صراط الله المستقيم، الذي يزيده يوما بعد آخر، ارتقاء في درجات الإيمان، وذلك من خلال بيان أنّ اقتراف المعاصي، يخلع عن المؤمن أثواب المدح الغالية، ويكسوه أسمال الذّم البالية، إّنه يجرّده من أسماء المدح كاسم التّقي، الكريم، القانت، العابد...الخ، ويلقي عليه أسماء الذّم، كاسم الفاسق والعاصي، المذنب،...الخ، هذه الأسماء الّتي توحي بضعف الإيمان، والتي تجعل صاحبها محلّ نقد ورفض، رغم أنّه كان ينبغي للمؤمن أن يكون محلّ تقدير واقتداء.

كما أنّ اقتراف المعاصي، -إضافة إلى ذلك- يهدر عمر المؤمن بأكمله، سعيا وراء تحقيق المفاسد، والأهواء، التي تصدّه عن القيام بما يمليه عليه إيمانه من نشر للمكارم والفضائل، ومن آداء لتعاليمه تعالى، الّتي تعدّ وظائف فاعلة في مختلف مجالات حياة الإنسان.

ولو لم يكن للذّنب عقوبة، إلاّ أن يصدّ عن طاعة، تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرى، لكان قريبا بالمرء أن يهجره.

وقد تجاوز التّرهيب من المعاصي، ما ذكرناه، إلى بيان ما يصيب العصاة، جرّاء ما اقترفوه من ذنوب سواء كأفراد أو كجماعات، فالمعاصي تصدر لأوّل وهلة عن الفرد، فإذا وافقه غيره من بقية

---

[2] : المرجع نفسه. ص: 18/ 227.

الأفـراد المتمع؛ إذ لم يجدوا في ذلك حرج ولم يأبهوا باقتحام حدود الله، وانتهاك حرماته، فهذا يعني أنّ هذا المتمع، قد شارك في ذلك المعصية، بل وساهم في انتشارها.

ونذكر من بين ما يصيب العاصي، جرّاء عصيانه، حرمانه الرزق حيث قـالﷺ : ((إنّ الرّجل ليحرم الرّزق بذنب يصيبه))[1]، والمقصود بالرّزق الذي يمنعه، هو "الرّزق الحلال أو البركة، لا أصل الرّزق"[1].

فـإذا ما داوم المرء على ارتكاب الذنوب، غشي قلبه الرّان، "الذي يفقده الحساسية، شيئا فشيئا، حتى يتلبّد ويموت"[2]، وقد شرح الرّسولﷺ هذه الحالة قائلا: ((إنّ المؤمن إذا أذنب، نكت في قلبه نكـتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن زاد، زادت حتّى تعلو قلبه، فذلك الـذي ذكره الله تعالى)) : ﴿كلّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين: 14][3]. والنّكتة هـي الأثـر الصّغير الأسود، الذي يسود القلب بتعدّد النّكتات[4]، حتى "تغمره وتغطيه وتستر سائره، كمـرآة علاهـا الصّدأ، فسرّ سائرها،...، ويصير القلب كمنخل وغربال، لا يعي خيرا، ولا يثبت فيه خـير، ومن ثمّ قال بعض السّلف: المعاصي بريد الكفر؛ أي رسوله، باعتبار أنّها أورثت القلب وعمّته، يصـير لا يقـبل خـيرا قط، فيقسو ويخرج منه كلّ خوف، فيرتكب ما يشاء، ويفعل ما أراد، ويتّخذ الشـيطان وليا من دون الله، فيضله أو يغويه"[5]، ولهذا كانت مجانبة الذّنوب والابتعاد عنها، أمرا لا بدّ مـنه، سـواء كانت تلك الذّنوب من الصّغائر أم من الكبائر، فالمداومة على كلتيهما تؤدّي إلى نتيجة

---

(1) : أخرجه ابن حبّان في صحيحه، توثيق باب الأدعية؛ في ذكر الإخبار عمّا يستحبّ للمرء من المواظبة على الدّعاء والبر، رقم: 872، ص: 153/3. وأخرجه أحمد، رقم: 22440، ص: 277/5، رقم: 22491، ص: 5/ 282.

(2) : شرح الزرقاني لـ: محمد ابن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني. (دار الكتب العلمية: بيروت: - لبنان، ط. 1: 1411هـ) ص: 313/4 نقلا عن مكتبة الألفية.

(1) : شرح الزرقاني. ص: 313/4.

(2) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 3858/6.

(3) : أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من تعقيب الاستغفار كلّ عثرة، وإن كان المرء مشمرا في أنواع الطّاعات، رقم 930، ص: 210/3، وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب: الإيمان، رقم: 6، ص: 45/1، وقال: هذا حديث صحيح لم يخرّج في الصّحيحين. وأخرجه الترمذي في سننه؛ كتاب: باب التفسير، ومن سورة ويل للمطففين، رقم: 3334، ص: 434/5، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم 4244، ص: 1418/2.

(4) : انظر شرح الزرقاني. ص: 526/4.

(5) : فيض القدير لـ: عبد الرؤوف المنّاوي. ص: 371/2.

واحـدة وهـي الهلاك، يشهد لهذا قوله ﷺ : ((إيّاكم ومحقّرات الذّنوب، فإنّهن يجتمعن على الرّجل حـتّى يهلكنه))[6]، فقد حذّر الرسول ﷺ من محقّرات الذنوب، "أي صغائرها لأنّها تؤدي إلى ارتكاب كـبائرها،...وقال الغزالي : تصيرا الصغيرة كبيرة، بأسباب منها : الاستصغار، والإصرار، فإنّ الذّنب كلّمـا استعظمه العبد صغر،...وكلّما استصغره عظم،...، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهـته له، وذلك النّفور، يمنع من شدّة التّأثر به، واستصغاره، يصدر عن الألفة، وذلك يوجب شدّة الأثر في القلب، المطلوب تنويره بالطاعة، والمحذور تسويده بالخطيئة"[1].

وأمّـا ما يصيب المتمع، من جراء ما يرتكبه أفراده من المعاصي، فهو إنزال العذاب من عند الله تعالى عليهم، يشهد لهذا قوله ﷺ : ((إذا ظهرت المعاصي في أمّتي عمّهم الله بعذاب من عنده)) فقالت أم سـلمة يا رسول الله، أمّا فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال: ((بلى))، قلت: فكيف يصنع بأولئك ؟، قال: ((يصيبهم ما أصاب النّاس، ثمّ يصيّرون إلى مغفرة من الله ورضوان))[2].

وظهـور المعاصي بين النّاس، إنّما هو نتيجة حتمية لتقاعس أفراده، وتخاذلهم عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولعلّ هذا ما دفع سيّدنا أبا بكر الصّديق إلى مخاطبة النّاس قائلا: "أيّها النّاس، إنّكم تتلون هذه الآية، وإنّكم تضعونا على غير موضعها"، ﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضـرّكم من ضلّ إن اهتديتم ﴾ [المائدة: 105]، وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنّ النّاس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه –وفي لفظ، إذا رأوا منكرا فلم يغيّروا- أوشك الله أن يعمّهـم بعـذاب من عنده))[3]، فهؤلاء العاصين، هان أمر الله تعالى عندهم، حتّى صارت مخالفته لا تحـرك فـيهم ساكنا، ولا تزّ لديهم شعورا، ولا عجب، فقد ألفت آذانم سماع المناكر،وعيونم رؤية المفاسد، إلى أن تلبّدت أحاسيسهم، وتجمّدت قلوبم، وخارت عزائمهم فما استطاعوا تغيير المنكر، ولا

---

[6] : وأخرجه أحمد في مسنده، رقم: 22860، ص: 313/5 وأخرجه الطبراني في المعصم الوسط، رقم: 7323، ص: 219/7، وفي المعجم الكبير. رقم: 5872. ص: 165/6.

[1] : فيض القدير لـ: لمنار. ص: 127/3-128.

[2] : أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 26638. ص: 304/6. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: رقم 747. ص: 325/23.

[3] : أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم: 2168، ص: 467/4. وأخرجه أبو داود وفي سننه، كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي: رقم 4338، ص: 122/4، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، رقم: 4005. ص: 1327/2. وأخرجه أحمد في مسنده. رقم: 1، ص: 2/1، ورقم: 16. ص: 5/1، ورقم 29، ص: 7/1.

الدّعـوة إلى المعروف، بل أكثر من هذا، لقد اختلت عندهم الموازين، حتى انقلب المنكر معروفا عندهم لشدّة اعتيادهم عليه، ولهذا كان حقّا عليهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، جزّاء ما اكتسبت أيديهم، قـال تعالى:﴿ وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: 30]، وقد بـيّن لـنا رسـول الله ﷺ بعـض أنواع العذاب، التي يذيقها الله تعالى لعباده، نتيجة لمخالفتهم أمره، واقـتحامهم حدوده، فقال: ((يا معشر المهاجرين، خمس خصال، أعوذ بالله أن تدركوهن، ما ظهرت الفاحشة في قوم، حتى أعلنوا بها، إلاّ ابتلوا بالطّواعين والأوجاع، التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقّـص قـوم في المكيال والميزان إلاّ ابتلوا بالسنين وشدّة المؤنة، وجور السّلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم، إلاّ منعوا القطر من السّماء، فلو لا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد، إلاّ سلّط عليهم عدّوا مـن غيرهـم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله -عزّ وجلّ- في كتابه، إلاّ جعل الله بأسهم بينهم))[1]، وهذا هو بالفعل ما نعاني منه في واقعنا اليوم، فقد استبيحت الفاحشة حتّى صـار يجهـر بها، فأصبنا بأخطر الأسقام وأصعب الأوجاع، وبخس الكيل والميزان، حتى صرنا من أفقر النّاس، وأعجزهم على تلبية حتى الحاجات الأولية، وجارت الحكّام علينا، ومنعت الزكاة، حتى أجدبت أراضينا، وصارت كأنّها صحار قاحلة، وأخلفت الوعود، ونقضت العهود، حتى تكالبت العداء علينا من كـلّ صوب وحدب، ثم نام الأئمة –إلاّ من رحم الله- فنشبت الفتنة بيننا، ولا أدلّ على هذا ممّا أصاب بلادنا الكريمة، جزّاء ما اقترفت أيدينا من سوء وفحش.

كـلّ هذه الأنواع من العذاب، التي صبّت علينا، إنّما هي بريد إنذار لنا، لنتوب إلى الله تعالى، ونعـود إلى رحـاب هديـه، إن بقيت لدينا مسكة من عقل، وإلاّ فإنّما هي شرارت من جمر، تنبئ بما ينـتظرنا من هول وويل، في الحياة الدّنيا، وأمّا الآخرة، فذلك ممّا يعجز اللسان على وصفه، والخيال عن تصوّره –أعاذنا الله وإياكم منه-.

كانـت هذه بعض الإشارات، التي ترهّب عباد الله المؤمنين، من الحوم حول حمى الله تعالى، أو الاقتراب من نواهيه، لأنّ العواقب سوف تكون وخيمة على الفرد، وعلى المجتمع على حد سواء، وهي في الوقت ذاته دافع استمرارية لهم على الحفاظ على إيمانهم، والسّعي نحو تثميته وتقويته، وبالتّالي إبرازه، أكـثر فأكثر على واقع الحياة الاجتماعية، وحتى الاقتصادية والسّياسية،...الخ من خلال تمثّل تعاليم الله تعالى، وكذا تعاليم رسوله ﷺ في تلك المجالات.

---

[1] : أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب: الفتن، باب العقوبات، رقم: 4019، ص: 1332/2، وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب: ، رقم: 8623، ص: 583/4، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه. واخرجه الطبراني في المعجم الأوسط. رقم: 4671، ص: 62/5.

المطـلب الثـالث

القـدوة الحسنـة

تعتـبر القـدوة الحسنة، من بين الأساليب، التي استعملها القرآن الكريم، لتربية المؤمنين وزيادة إيمـانهم، وتثبيته في قلوبهم،تأسيسا للإقتداء والتّأسّي، وذلك بتقديم الأنموذج البشري، الذي يجسّد الإيمان الحقـيقي، الواقعـي، لإثـبات إمكانية تطبيق الأوامر الإلهية، وللّتدليل على أنّها تتماشى وطاقة العباد، واسـتطاعتهم، وقد تمثل هذا الأنموذج البشري في شخصه ﷺ ، حيث عبّرت عائشة –رضي الله عنها- عـن خضوعه وتلبيته لأوامره تعالى، وتطبيقه لها، بقولها: «كان خلقه القرآن»[1]، وهذا يعني، «أنّه كان متمسّـكا بآدابه، وأوامره، ونواهيه، ومحاسنه، ويوضّحه أنّ جميع ما قصّ الله تعالى في كتابه، من مكارم الأخلاق...أو حثّ عليه أو ندب إليه، كانﷺ متخلّقا به، وكلّ ما نهى عنه تعالى، فيه –أي في القرآن- ونزّه، كان ﷺ لا يحوم حوله»[2].

---

[1] : أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 24645، ص: 91/6، ورقم: 25341، ص: 163/6، ورقم: 25855، ص: 216/6.

[2] : حاشية السّندي لـ: نور الدّين بن عبد الهادي، أبي الحسن السّندي. (تح: عبد الفتاح أبو غدة مكتب المطبوعات الإسلامية : حلب – سوريا، ط: 2: 1406هـ-1986م)، ص: 200/3.

ثمّ تلاحـظ دقّـة الوصف والتّعبير، الذي استعملته عائشة –رضي الله عنها- فهي لم تقل، كان خلقه يوافق القرآن، أو كان خلقه مستمدا من القرآن، وإنّما قالت: "كان خلقه القرآن"، وهذا يعني أنّه من أراد أن يرى وحي الله تعالى حيّا، ماثلا أمام عينيه، فما عليه، إلاّ أن يرى الرّسول ﷺ ، أو أن يطّلع على سيرته بالنّسبة لأحبابه، الذين لم يحظو بالعيش معه، ومصاحبته ﷺ .

وقد ذكر الله -عزّ وجلّ- عبارة، "الأسوة الحسنة"، ثلاث مرّات في القرآن الكريم وهي:

أوّلهـا ذكرها من قبله تعالى، لبيان أنّ ﷺ يمثّل القدوة الحسنة، التي يجب أن تعتبر معلم هداية إلى صراط الله المستقيم، وبالتّالي يجب اتّباعها والتّأسي بها،من قبل كل المؤمنين، وفي ذلك يقول الله تعالى:﴿ لقـد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [الأحـزاب: 21]، فالـنّبي ﷺ ، إنّما هو "نور يستضاء به إلى يوم القيامة، ونبراس يستنار بأشعته، في شـعاب الحياة الملتوية، فتنكشف به الظلمات المتراكمة، فهو السّراج المنير إلى الأبد»[1]، الذي لا تنقطع أنـواره، ولا تتلاشى شعاعاته، ذلك لأنّ سيرتهﷺ بقيت حيّة –وسوف تبقى بإذنه تعالى كذلك- بين جوانح الأمّة الإسلامية، تحفظها وتسير على هداها، لأنها بنظرها إنّما هي مدرسة السّلوك الإسلامي[2]؛ لذلك عملت على دراستها، وكذا على حفظها، لتتمكّن بعدها الأجيال من الإقتداء به ﷺ على احسن مـا يرام، وقد قام بهذا العمل الجليل، العديد من علمائنا الأجلاّء، «فقد جمعوا كلّ ماله علاقة بالنّبيﷺ صـحيحا كان أو سقيما، حقّا أو باطلا، وجعلوا لنقده قواعد، وأصّلوا لتحقيقه أصولا، يرجع إليها في تميـيز الصّحيح من الفاسد، والغثّ من السّمين، وهم قد حفظوا شؤون حياة النّبيﷺ وأحواله وأخباره كلّها، ولم يتركوا أمرا من أموره، ولا شأنا من شؤونه إلاّ ذكروه»[3]، وذلك ليتسّنى لأتباعه، الاقتداء به، في كافة مناحي الحياة، بكل يسر ووضوح.

وأمّـا ثانيها وثالثها، فقد ذكرهما الله تعالى، لبيان كون سيّدنا إبراهيم –عليه سلام- ومن معه، يمثّلون قدوة للمؤمنين، في قوّة إيمانهم، وثباتهم على الحق، وفي إعراضهم وتبرّئهم من الكافرين، حيث قال تعالى :﴿ قد كان لكم إسوة حسنة في إبراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم وممّا تعبدون من

(1) : الرّسالة المحمّدية لـ: سليمان النّدوي. (مكتب دار الفتح: دمشق – سوريا، والمكتب الإسلامي: بيروت – لبنان، ط: 3: 1401هـ – 1982م) ص: 42-43.

(2) : انظر دراسات في السّيرة النّبوية لـ: حسين مؤنس. (الزّهراء للإعلام العربي، قسم النشر: القاهرة – مصر، ط: 2: 1405هـ – 1985م)، ص: 29.

(3) : الرّسالة المحمّدية لـ: الندوي. ص: 104.

دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتّى تؤمنوا بالله وحده إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شيء ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (4) ربّنا لا تجعلنا فتنة للّذين كفروا واغفر لنا ربّنا إنّك أنت العزيز الحكيم (5) لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولّ، فإنّ الله هو الغنّي الحميد (6) ﴾[الممتحنة:4-6].

وما اهتمام القرآن الكريم بهذا الأسلوب، إلاّ لكون «القدوة الصالحة خير عامل من عوامل التّعليم والتّربية والتّهذيب، خصوصا بين نبيّ ومتّبعيه وأستاذ ومتعلّميه، ورئيس ومرؤوسيه، وراع ورعيّته، وها نحن أولاد نرى علماء النّفس والاجتماع وأقطاب التربية والتّعليم وبناة الأخلاق والأمم، نراهم لا يزالون يتحدّثون في القدوة الصّالحة، ويوصون بها، وذلك لمكانتها من التأثير والإصلاح، والتقويم والنّجاح في الأفراد والأمم على السّواء»[1].

ولهذا علينا أن نضع نصب أعيننا، أنّ القرآن الكريم، «لا يعرض هذه القدوة، للإعجاب السّالب، والتّأمل التجريدي في سبحات الخيال، إنّه يعرضها...ليحقّقها النّاس في ذوات أنفسهم، كلّ بقدر ما يستطيع أن يقتبس، وكلّ بقدر ما يصبر على الصّعود، وهكذا تظلّ القدوة في الإسلام، شاخصة، ماثلة للعيان، تتدفّق حيويّتها، ولا تتحوّل إلى خيال مجرّد، تيم في حبّه الأرواح، دون تأثير واقعي»[2].

وكما نبّه القرآن الكريم، إلى القدوة الحسنة، فقد نبّهت إليها –أيضا- السّنّة المطهّرة، حيث أكّدت على اتّباع النّبيﷺ والاقتداء به، والتمسّك بسنّته الشّريفة، يشهد لهذا قولهﷺ: ((تركت فيكم أمرين، لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما، كتاب الله وسنّتي))[1]، وكذا قولهﷺ : ((كلّ أمتي يدخلون الجنّة، إلاّ من أبى))، قالوا: يا رسول، ومن يأبى ؟ قال: ((من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى))[2].

---

(1): مناهل العرفان في علوم القرآن لـ: محمّد عبد العظيم الزّرقاني. (تبع: مكتبة البحوث والدرسات، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط: 1، 1996م). 226/1.

(2) :أصول التربية الإسلامية وأساليبها لـ: عبد الرحمان النّحلاوي. (دار الفكر: دمشق – سوريا، ط: 1: 1399هـ – 1979م). ص: 231.

(1) : أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: العلم، رقم: 319، ص: 172/1، وأخرجه الدار قطني في سننه، كتاب في الأقضية والأحكام، باب: ، رقم 149، ص: 245/4.

(2) : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب: الإقتداء بسنن النبي....، رقم: 6851، ص: 2655/6، وأخرجه أحمد في مسنده، رقم: 8713، ص: 361/2.

وإضافة إلى ذلك، رغّبت السّنة الشريفة، في الاقتداء برسول الله ﷺ، تحفيزا للمؤمنين ، لـئلا يتخاذلوا، أو يتقاعسوا عن إحيائها، وإبقائها قائمة بينهم، فقالﷺ: ((من أحيا سنّتي، فقد أحبّني ومن أحبّني كان معي في الجّنة))[3].

ولا عجـب في الحـثّ والترغيـب، في اتخاذ النّبيﷺ قدوة في كافّة مناحي الحياة، فقد جسّد الأنموذج البشري الأكمل، في عباداته، ومعاملاته، سواء مع أهله، أو مع أصحابه، أو مع النّاس أجمعين، ولا أدلّ عـلى عظمة شخصهﷺ، من وصف ربّ العزّة له قائلا:﴿ وإنّك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: 04]، هـذا الثّناء، الذي "يعجز كلّ تصوّر، عن وصف قيمته هذه الكلمة العظيمة، من ربّ الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها:﴿ وإنّك لعلى خلق عظيم﴾ ، ومدلول الخلق العظـيم، هو ما هو عند الله، ممّا لا يبلغ إلى إدراك مداه، أحد من العالمين»[4]، وفقط رسول اللهﷺ هو « الـذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة،...إنّه محمّد –وحده- الذي يبلغ قمّة الكمال الإنساني، المجانس لـنفخة الله في الكيان الإنساني، إنّه محمد –وحده- الذي يكافئ هذه الرّسالة الكونية العالمية الإنسانية، حتى لتتمثّل في شخصه حيّة، تمشي على الأرض في إهاب إنسان، إنه محمد –وحده- الذي علم الله منه أنّـه أهـل لهذا المقام، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم»[1]، هذا الخلق الذي شمل حياتهﷺ كلّها، واستغرقها بأسرها، واستحقّ بها أنّ يكون القدوة الأولى في العالم أجمع، فقد جسّد الأنموذج الأكمل في صبره، وصفحه، وعبادته، وقيادته، ورعايته لأهله ولأمّته، ليست هناك صغيرة أو كبيرة، في هذه الحياة إلاّ وكان هو المثل البشري الأعلى في تمثّلها.

إنّـه ﷺ قـد ضـرب أروع الأمـثلة، للبشرية كلّها في صبره على الشدائد، أو في صبره على الشـهوات، فهذا عتبة بن ربيعة جاءه وقال له: «يا ابن أخي إنّك منّا حيث قد علمت، من السّطة[2] في العشـيرة، والمكـان في النّسـب، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهـم، وعبت به آلهتهم، ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول اللهﷺ : ((قل يا أبا الوليد أسمع)). قال : يا ابن أخـي، إن كنـت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر، ما لا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا

---

[3] : أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: العلم عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الخذ بالسنّة واجتناب البدع رقم: 2678، ص: 46/5، واخرجه الطبراني المعجم الأوسط، رقم: 9439. ص: 169/9.

[4] : في ظلال القرآن لـ: سيد قطب. ص: 3656/6.

[1] : المرجع السّابق. ص: 3657/6.

[2] : السّطة: المنزلة الرّفيعة.

مالا، وإن كنت إنّما تريد به شرفا، سوّدناك علينا، حتّى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا، ملّكناك علينا...، حتّى إذا فرغ عتبة، ورسوله الله ﷺ يسمع منه، قال: ((أفرغت يا أبا الوليد))، قال نعم، قال: ((فاسمع منّي))، قال: افعل، فقال:﴿ بسم الله الرّحمان الرحيم * حم تنزيل من الرّحمان الرحيم (1) كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (2) بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (3) وقالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا

إليه (4)﴾ [فصّلت: 1-4]»[1].

فانظر -أخي القارئ- أيّ مثل هذا الذي ضربه نبيّ اللهﷺ في التّسامي عن شهوات النّفس، التي يعدّ المال والحكم والملك من أكثرها تأثيرا على النفس البشرية، لكنّهﷺ آثر ما عند الله على ما عند النّاس، واختار أن يكون إلى جانب الله وحده، لا إلى الشّيطان وجانب الشّهوات، فكان بهذه الصّفات، حقّا جديرا بأن يتّخذه المؤمنون قدوة في حياتهم.

ثمّ انظر إلى ما تحمّلهﷺ من شدائد ومصاعب في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونشر دينه بين عباده، ليسهل بعدها على المؤمنين، أن يتحمّلوا بعض الشدائد، كما تحمّل نبيّهمﷺ من قبل، فعن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أشدّ ما صنع المشركون برسول اللهﷺ ؟ قال : رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النّبيﷺ وهو يصلّي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه، خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتّى دفعه عنه، فقال: « أتقتلون رجلا، أن يقول ربّي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم؟»[2]! ! .

ثمّ انظر كيف ضرب لنا ﷺ أروع الأمثلة في الحلم والصّفح، "فهذا أنس –رضي الله عنه- يقول: كنت أمشي مع النّبيﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النّبيﷺ وقد أثّرت فيها حاشية الرّداء من شدّة جبذته، ثمّ قال الأعرابي: يا محمّد، مرلي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه ﷺ فضحك، ثمّ أمر له بعطاء»[3]. أيكون هناك حلم أكبر من هذا

---

[1] :سيرة النّبي ﷺ (تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط،، 1401هـ – 1981م). ص: 1/313- 314.

[2] :أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل الصّحابة، باب: قول النبيﷺ ((لو كنت متخذ خليلا)) رقم: 3475، ص: 1645/3، وأخرجه البيهقي في سننه، كتاب: السير، باب: مبتدأ الفرض على النبيﷺ ثمّ على الناس...، ص: 7/9، وأخرجه أحمد في مسنده: رقم 6908، ص: 204/2.

[3] : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: إعطاء من سال بفحش وغلظة، رقم: 1057، ص: 730/2

الـذي جسّـده رسول الله ﷺ؟ !أن يقابل سوء المعاملة، وقلة الأدب، بطيب الخاطر، وبطلاقة الوجه، أيكون هناك صفح وعفو، أعظم من الصّفح والعفو عند المقدرة؟! ، فهذا الأعرابي، كان يمكن أن يعذّب أو يضرب، أو على الأقل أن يقتصّ منه، من قبل صحابتهﷺ الّذين كانوا رهن إشارته، وعند كلمتهﷺ ، لكـنّه أبـىﷺ إلاّ أن يسموا بأخلاقه، على هكذا مواقف، وأبى إلاّ أن يكون خير قدوة لذاك الأعرابي ولغيره من العالمين، تجسّد الصّفح الجميل.

ثمّ انظر إلى معاملة لأمله، وخدمه، وصحابته، والنّاس كلّهم، فهذا الأسود بن يزيد يقول: «سألت عائشـة رضي الله عنها ما كان النّبي ﷺ يفعل في بيته؟ قالت : يكون في مهنة أهله –أي خدمتهم- فإذا حضرت الصّلاة، خرج إلى الصلاة»[1].

وهـذا أنـس –رضي الله عنه- يقول: «لمّا قدم رسول اللهﷺ المدينة أخذ أبو طلحة –رضي الله عـنه- بـيدي فانطلق بي إلى رسول اللهﷺ فقال، يا رسول الله! إنّ أنسا غلام كيّس، فليخدمك، قال: فخدمـته في السّفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته، لما صنعت هذا هكذا، ولا لشيء لم أصنعه:لم لم تصنع هذا هكذا»[2].

وقال أنس –رضي الله عنه- أيضا : «إن كانت الأمّة من إماء المدينة، لتأخذ بيد النّبيﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[3].

وعـن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال : ((لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي لي ذراع أو كراع لقبلت)) [1].

وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: اللّباس، باب: البرود والحيرة والشملة....، رقم 5472. ص: 2188/5 .

[1] : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآدب، باب: (كيف يكون الرّجل في اهله) رقم: 5692. ص: 2215/5 .

واخرجه أحمد في مسنده، رقم 24272. ص: 49/6، رقم: 24992. ص: 126/6.

[2] : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، رقم: 2309. ص: 1804/4. واخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: استخدام اليتيم في السّفر والحضر، رقم: 2616.

ص: 1018/3، وأخرجه في كتاب الدّيات، باب: من استعان عبدا أو صبيا...، رقم: 6513، ص: 2532/6.

[3] : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: الكبر، رقم 5724. ص: 2255/5. واخرجه أحمد في مسنده،

رقم: 11960. ص: 98/3.

[1] :اخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب: القليل من الهبة، رقم 2429، ص:908/2، وأخرجه البيهقي في سننه، كتاب: الهبات، باب: التحريض على الهبة...رقم: 11720، ص: 169/6، واخرجه الترمذي في سننه،

وهـذا البـراء –رضي الله عنه- يقول : رأيت رسول اللهﷺ يوم الأحزاب، ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

«لـولا أنت ما اهتدينـا ۞ ولا تصدّقنـا ولا صلّينـا
فأنـزل السّكينـة علينـا ۞ وثّبت الأقـدام إن لاقينـا
إنّ الألى قد بغـوا علينـا ۞ إذا أرادوا فتنــــة أبينـا»[2]

هكـذا كانـت معاملـة النّبيﷺ مع المؤمنين،بمختلف فئاتهم، معاملة تنضح بالتّعاون والتّواضع وخفـض الجناح، لا اعتبار فيها لسلطة أو لقوّة، أو لحكم، وإنّما الاعتبار الحقيقي فيها للإخوّة الإيمانية، وللمحـبة في الله، وقـس على كلّ ما ذكر، كلّ حركة من حركاتهﷺ وكلّ سكنة من سكناته، كان يضرب بهاﷺ أكمل الأمثلة، للبشرية أجمعها، لتتّخذه قدوتها الأولى، وأسوتها العليا، حتّى صارت حياته ﷺ سيرة مشرقة وضّاءة، غمرت أشعّتها كافّة جنبات البشرية، من مشارقها إلى مغاربها، وضمّتها بلطف وأمان بين جوانحها، لترتقي بها إلى مصاف الهدائية، وتحقّق لها صفة الخيرية، التي أرادها الله تعالى لها.

لأجل هذا كلّه، كان الصّحابة –رضي الله عنهم-، أحرص النّاس، وأصدقهم في التأسي بالنّبيﷺ في كـلّ ما أمر به: فهذا عمر بن الخطّاب ﷺ يقول : "كنت أنا وجار لي في المدينة، من الأنصار في بني أمّية ابن زيد –وهي من عوالي المدينة- وكنّا نتناوب النّزول على رسول الله، ينزل يوما، وانزل يوما، فإذا نزلـت جئته بخبر ذلك اليوم، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[1]، "وليس هذا إلاّ دليلا، على نظر الصّحابة إلى رسـول الله، نظرة اتّباع واسترشاد برأيه وعمله، لما ثبت عندهم من وجوب اتّباعه، والنّزول عند أمره ونهيه»[2].

وهذه بعض الأمثلة سجّلها التّاريخ، كشاهد أبدي على شدّة اقتداء الصّحابة –رضي الله عنهم- بالنّبيﷺ وعلى شدّة طاعتهم له :

كتاب، الأحكام، باب: ما جاء في قبول الهدية وإجابة الدعوة، رقم 1338. وأخرجه أحمد في مسنده، رقم: 10659، ص: 512/2، ورقم 13200، ص: 209/3.

[2] :أخرجه مسلم في صحيحه، الجهاد، باب: عزوة الأحزاب، رقم 1803، ص: 1430/3. واخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير. باب: حفر الخندق، رقم: 2682. ص: 1043/3.

[1] :أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطّلاق. باب: في الإيلاء واعتزال النّساء وتخييرهن...، رقم 1479، ص: 1111/2-1112. واخرجهم البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: التناوب في العلم، رقم: 89. ص: 49/1.

[2] :منهاج الصالحين من أحاديث وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين لـ: عزّ الدين بليق. (دار الفتح: بيروت- لبنان، ط: 3: 1404هـ-1984م) ص: 23.

عـن أنـس –رضـي الله عنه- أنّ رسول اللهﷺ خرج إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار، يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون لهم ذلك فلمّا رأى ما بهم من النّصب والجوع قال :

« اللّهم إنّ العيش عيش الآخرة ۞ فاغفر للأنصار والمهاجرة »

فقالوا مجيبين له : « نحـن الذيـن بايعـوا محمّدا ۞ على الجهاد ما بقينا أبدا»[3]

وفي رواية على الإسلام ما بقينا أبدا.

وهذا ابن مسعود ﷺ يقول : «شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا، لأن أكون صاحبه، أحبّ إليّ ممّـا عدل به، أتى النّبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى، اذهب أنـت وربّك فقاتلا، ولكن نقتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك، فرأيت النّبيﷺ أشرق وجهه، وسرّه –يعني قوله-»[1].

ثمّ هذا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- ينظر إلى الحجر الأسود، ويقول: «إنّك حجر لا تنفع، ولا تضـرّ، ولو لا أنّي رأيت رسول اللهﷺ يقبّلك ما قبّلتك ثمّ قبّله. ورئي عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما- يدير ناقته، في مكان، فسئل عنه، فقال : لا أدري، إلاّ أنّي رأيت رسول اللهﷺ فعله، ففعلته»[2].

بـهذه الأمـثلة الوجيزة، تتبيّن لنا المكانة التي كان يتبوّؤها النّبيﷺ في حياة صحابته الكرام، وفي مجـتمعه الذي كان يعيش وسطه، ذاك المجتمع الذي «حلّ منهﷺ محلّ الرّوح والنّفس، وشغل منه مكان القلـب والعـين، فهـو المبشّـر، الذي جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال، وأبلغ معاني الحسن والإحسـان، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه،...فاندفع إليه الحبّ الصّادق كما يندفع الماء إلى الحـدور، وانجذبـت إلـيه النّفوس والقلوب، انجذاب الحديد إلى المغناطسي،...وأحبّه رجال أمّته وأطـاعوه، حبّا وطاعة لم يسمع بمثلهما في تاريخ العشاق والمتيمين، ووقع من خوارق الحبّ والتّفاني في سبيل طاعته، وإيثاره على النّفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده»[3].

---

(3) :أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: عزوة الأحزاب، رقم 1804، ص 1431/3، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، رقم: 2679، ص: 1043/3.

(1) : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: قوله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم...) رقم: 3736، ص: 1456/4 وأخرجه أحمد في مسنده، رقم: 3698، ص: 389/1، ورقم: 4070، ص: 428/1.

(2) : الشّفا.

(3) :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لـ: أبي الحسن علي الحسيني النّدوي، (مكتبة الرحاب: الجزائر ط: 10: 1408هـ – 1987م)، ص: 102.

وكمـا دعا النّبيﷺ المؤمنين إلى اتّباعه والاقتداء به، فقد دعاهم أيضا إلى الاقتداء بأصحابه من بعده، حيث قالﷺ: ((عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنّواجد))[4]، ذلـك لأنّهـم –رضـي الله عنهم- كانوا بمثابة السّرج المنيرة، والنّجوم الهادية، بقطع من الليل الدّامـس، فهم الذين يحملون صفات النّبيﷺ وشمائله إلى من بعدهم من التّابعين، وهم الذين يتقلّدون مهمّة نقل كتاب الله وسنّة رسولهﷺ إلى من بعدهم.

هذا عن قدوة جيل الصّحابة ﷺ، وجيل التّابعين، فماذا عن القدوة التي تحتاجها الأجيال الأخرى، ماثلة بين أيديها؟

إنّ سنّتهﷺ قد نبّهت الأجيال الأخرى، إلى القدوة الكريمة، التي يمكن أن تصلها بالمعين النّبوي، وان تربطها بالحبل الإلهي، فلا تخاف على نفسها بخسا ولا رهقا، إنّها قدوة العلماء الصّالحين، الّذين قال عـنهم ﷺ أنّهـم ورثـة الأنبياء، في دعوتم إلى الله تعالى، وفي حمل بعض من علمهم، فصاروا بذلك "مصـابيح الدّجـى، وأئمة الهدى، و حجّة الله في أرضه، بم تمحق الضلالة من الأفكار، وتنقشع غيوم الشّك من القلوب والنّفوس، فهم غيظ الشيطان، وركيزة الإيمان، وقوام الأمّة، فهم أمناء على دين الله، يدعون إليه النّاس، بلسان صادق، وجنان ثابت، وخلق كريم، أعمالهم ترجمان لدعوتم، فهم الأسوة في القـول والعمل، يصلحون ما فسد، ويقوّمون ما اعوجّ،ولا يستخفون من النّاس، ولا يخشون أحدا إلاّ الله، ولا يقولون إلاّ حسنا"[1]، فصاروا – أي العلماء – بكلّ هذه الصّفات الرّبانية، التي امتازوا با قدوة حسـنة لمـن يدعونـم، وأسوة كريمة لمن يرونم، حتّى صاروا معالم هداية، وضّاءة، على صراط الله المستقيم، الذي يشرع المؤمنون في قطعه، والمضي فيه قدما، منذ بداية إيمانم، إلى آخر رمق من حياتم، وكلّما تقدّموا خطوة، ازدادوا إيمانا على إيمانم، ويقينا على يقينهم.

والبشرية اليوم، أحوج ما تكون، إلى أمثال هؤلاء الدّعاة، الذين يحملون لواء القدوة الحسنة، عن جـدارة واستحقاق، وليسوا كمن قال فيهم تعالى:﴿ أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة: 44] ، ذلك أنّ آفة رجال الدّين، حين يصبح الدّين حرفة، وصناعة، لا عقـيدة جادّة، نافعة، إنّهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البرّ ويهملونه،...ويجدون فتاوى وتأويلات، قد تتّفق في ظاهرها، مع ظاهر النّصوص، ولكنّها تختلف في

[4] : : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: قوله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم...) رقم: 3736، ص: 1456/4 وأخرجه أحمد في مسنده، رقم: 3698، ص: 389/1، ورقم: 4070، ص: 428/1.
[1] : الدّعوة: قواعد وأصول لـ: جمعة أمين ص: 109.

حقيقتها عن حقيقة الدّين، لتبرير أغراض وأهواء من يملكون المال أو السّلطان، كما يفعل احبار اليهود، والدّعـوة إلى الـبرّ والمخالفة عنه، في سلوك الدّاعين إليه، هي الآفة التي تصيب النّفوس بالشّك، لا في الدّعاة وحدهم، ولكن في الدّعوات ذاتا، وهي التي تبلبل قلوب النّاس وافكارهم، لأنهم يسمعون قولا جمـيلا، ويشـهدون فعـلا قبيحا، فتتملّكهم الحيرة بين القول والعمل، وتخبو في أرواحهم الشعلة، التي توقدها العقيدة، وينطفئ في قلوبم، النّور الذّي يشقه الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدّين، بعد ما فقدوا ثقتهم برجاله"[1].

ولا يقف أمر القدوة الحسنة، عند العلماء العاملين، وعند الدّعاة الصّادقين وحسب، بل يتعدّاهم، لـيمّس، كـلّ مسؤول، وكلّ راع، سواء كان حاكما أو إماما، أو رئيسا، أو أبا أو أما، أو أستاذا... الخ،وذلـك بامتـثاله، لما يدعو إليه، وانتهائه عما ينهى عنه، وبذا يستقيم أمر رعّيته ويعتدل، ولعلّ في وصّية الإمام الشافعي[2]، التي أرشد با مؤدّب أولاد أمير المؤمنين[3]، إشارة واضحة لذلك، حيث قال له : "ليكن أوّل ما تبدأ به إصلاح أولاد أمير المؤمنين، إصلاح نفسك، فإن أعنتهم معقودة بيدك، فالحسن عـندهم ما استحسنته، والقبيح عندهم ما تركته"، فانظر قوله: "القبيح عندهم ما تاركته"، ولم يقل له والقبيح عندهم، ما قلت لهم إنّ قبيح، بل ما لم تعمل به ولم تقربه"[4].

وهكـذا الحياة صارت القدوة الحسنة، سبيلا هامّا، من سبل تفعيل الإيمان، وتحريك وظيفته في الحياة، ذلك أنّ كلّ أمر، يدعى النّاس إليه، يكون متمثّلا من قبل الدّاعي، يصير الانصياع إليه، وتطبيقه أمـرا يسيرا، سهل المنال، عند أولئك المدعوين، لأنه يمثّل توافق الحال مع المقال، من دون أيّ تزييف أو تزيين.

---

(1) : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 68/1.

(2) : محمد الشافعي : (150 هـ - 204 هـ). محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، المطلبي، الشافعي، الحجازي، المكي (أبو عبد الله). أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب الشافعية. من تصانيفه: المسند في الحديث، أحكام القرآن، اختلاف الحديث، المبسوط، ...انظر: معجم المؤلفين ص: 116/3.

(3) : هو هارون الرشيد.

(4) : الدّعوة: قواعد وأصول لـ: جمعة أمين. ص: 117،

(5)

(6)

(7)

(8)

(9)

(10)

(11) نقلا عن: المطلق لت: محمّد الراشد. ص: 37، 38.

الفصل الثاني :

البعدان:
النفسي والفكري للإيمان

المبحث الأول : البعـد النفسي للإيمان

المبحث الثاني : البعد الفكري للإيمان

سأحاول بسط الحديث في هذا المقام، عمّا ينجرّ عن الإيمان بالله تعالى، من آثار طيّبة، تبدو جليّة عـلى نفـوس المؤمـنين بالله –عزّ وجلّ-، من صفاء وراحة وطمأنينة وسكينة، وانشراح، وغيرها من الحالات النّفسية الكريمة، المعتدلة، الّتي تؤسّس بمجملها، مملكة النّفس الرّاضية، المطمئّنة، والتي لا تبقي ولا تذر أيّ أثر للسّخط أو القلق أو الاضطراب فيها،ذلك أنّ الإيمان بالله تعالى، هو الذي أخرج البشرية من ظـلمات التّيه والتردّد والشّك، إلى نور الرّشاد والثّقة واليقين، وهو الذي أرساها على برّ الأمان ، بأن كشـف خـباياها، وأمـاط اللّثام عن أسرارها، فسكنت بذلك نفوس المؤمنين إلى حقيقتها، ورضيت بمكانـتها، وعملت على توطيد صلتها بربّها، التي كلّما ازدادت وثاقة، ازدادت هي أمنا وسكينة، هذه حقيقة أكّدتها التجربة في السّابق، ويؤكّدها العلم الحديث اليوم، ذلك أنّه "يكاد يكون هناك إجماع بين عـلماء الـنّفس، عـلى أنّ للإيمان ثمارا يانعة، وآثارا نافعة في نفس الإنسان، وفي كلّ كيانه الوجداني، فبالإيمان بالله تعالى، تتكامل صورة الحياة الإنسانية، فالإيمان يفعل فعله في إحداث التّوازن النّفسي، ومن غـير هذا التوازن، فإنّ الأهواء النّفسية تطوّح بالنّفس، فيكون هذا التّطويح مصدر معظم الاضطرابات النّفسية»[1].

ثمّ إنّ هذا التوازن النّفسي، الذي يرسي الإيمان بالله تعالى، قواعده، لا يعمل على جعل النّفس آمنة، مطمئّنة فقط، بل إنّه يعمل على جعلها، قويّة، صامدة، كذلك، ذلك أنّه إذا كانت الأولى قادرة على بناء

---

(1) :القرآن وعلم النّفس: نداء الفطرة الإيماني، لـ: عبد العلي الجسماني. (الدّار السّورية للعلوم: بيروت ـ لبنان، ط: 1: 1420هـ - 2000م) ص: 113.

المتمع السّوي، وإقامة دعائمه، فإنّ الثانية، تعمل على حراسة ذلك المتمع والدّفاع عليه. وقبل الحديث عن هذا بشيء من التفصيل، لنا أن نشير في البداية، إلى ما حظيت به النّفس الإنسانية من ذكر في القرآن الكريم، خط لها مكانة كريمة واضحة بين كلّ المعتقدات.

إنّ مـا يـدلّ على أهمية مكانة النّفس البشرية في القرآن الكريم، ذكرها من قبله تعالى: في مائة وتسـعة وأربعين موضعا، بصيغ وتراكيب مختلفة[1]، ليس هذا وحسب، بل ذكرها أيضا، بمعان مختلفة، تختلف باختلاف مواضعها، تمثّلت فيما يأتي[2] :

1= النّفس: ذات الشيء وحقيقته، ونفس الإنسان بذا المعنى، جملته من الجسم والرّوح، كما في الآيات: ﴿وكتبنا عليهم أنّ النّفس بالنّفس﴾ [المائدة:45]، ﴿ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها ﴾ [السّجدة: 13]، ﴿لا يكلـف الله نفسا إلاّ وسعها﴾ [البقرة: 286]، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ [البقرة: 231].

2= الـنّفس: الرّوح التي با الحياة، فإذا فارقته حلّ به الموت، مثل هذه الآيات:﴿ إنّما يريد الله ليعذّبم بـا في الحـياة الدّنيا وتزهق أنفسه وهم كافرون ﴾ [التوبة: 55].﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ [الأنعام: 93].

3= النّفس مكان الضّمير، وبذا المعنى تضاف لله تعالى وللإنسان، كما في هاته الآيات:﴿ ويحذّركم الله نفسه﴾ [آل عمران: 28]، ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سّيئة فمن نفسك﴾ [النساء: 79]، ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب﴾ [المائدة: 116].

4= الـنّفس: صفة في الإنسان توجّهه إلى الخير والشّر، كما في هاته الآيات:﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ [المائدة: 30]،﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ [يوسف: 18].

5= النّفس: صفة في الإنسان يكون با الإحساس والإدراك، وتفارقه في النّوم، كما في قوله تعالى:﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتا، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى﴾ [الزّمر: 42].

6= الـنّفس بصـيغة الجمع لتبادل الشيء، كان تقول: أكرموا، أي فليكرم أحدكم الآخر، مثل هذا ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ [البقرة: 54]،﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾[البقرة: 85].

---

[1] : انظر علم النفس النبوي ل: قاسم شهاب صبّاح. (مؤسسة الرسالة: بيروت-لبنان، ط:1: 1421هـ-2000م) ص: 45.

[2] : انظر: التأصيل الإسلامي لدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية و المنظور الإسلامي لـ: محمد عز الدّين توفيق. (دار السلام: القاهرة-مصر، ط: 1: 1418هـ-1998م). ص: 64-65.

7= النّفس للرّجل والمرأة، جنسه وقبيله، شل قوله ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ﴾[الروم: 21]، ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ [النحل: 72]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة: 128].
8= النّفس: شخص معّين (آدم –عليه السلام-)، كما في قوله تعالى: ﴿يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ [النساء: 1].

فهذه معاني النفس في القرآن الكريم، وعند التأمّل فيها، نجد أنّها «ترجع إلى معنيين أساسيين :
أ-عام: ترادف فيه النّفس، الإنسان، ويقابله في القرآن الكريم، "الآفاق".
ب-خاص: ترادف في النّفس، الرّوح، ويقابله في القرآن الكريم، "الطين" أو "الجسد"، وبقّية المعاني صفات للنّفس بأحد معنييها»[1].

أمّا ما أقصده بالنّفس في هذه الدراسة هو معناها الخاص، وسأعمد إلى بيان درجة تأثير الإيمان بالله –عزّ وجلّ- عليها من خلال بيان ما يأتي:
أوّلا: قدرة الإيمان على تكوين النّفس المطمئّنة البنّاءة.
ثانيا: قدرة الإيمان على تكوين النّفس القوّية المدافعة.

المطلب الأول
الإيمان وتكوين النّفس المطمئّنة البنّاءة

لو حاولنا البحث في أغوار النّفس البشرية، واستكناه حقيقتها، وكشف أسرارها، لوجدنا، أنّ أعظم مؤثر فيها، وأكثرها تحكما في توجّهاتنا، هو الإيمان، ليس هذا وحسب، بل هو مؤثر لا يمكن للنّفس الإنسانية، أبدا الاستغناء عنه، فقد وجد الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، أنّ «الإنسان منذ أقدم العصور، يتديّن، ويتعبّد، ويؤمن بإله، حتى قال أحد كبار المؤرخين: لقد وجدت في التّاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد أبدا، مدن بلا معابد»[1].

أمّا التأثير الذي سأتحدث عنه، هو تأثير الإيمان بالله –عزّ وجلّ- وليس تأثير الإيمان بأيّ إله آخر، ويتجلّى تأثير الإيمان به تعالى، في كونه العامل الوحيد، القادر على جعل النّفس الإنسانية، نفسا ثابتة، مطمئنة، راضية، سوّية، متّزنة المشاعر والأحاسيس، فهي نفس لا يغرّها يسر،، مهما بلغت سعته،ولا

---
(1): المرجع السّابق. ص: 65.
(1) : الإيمان والحياة لـ: يوسف القرضاوي. (مؤسسة الرّسالة: بيروت- لبنان، ط: 9: 1403هـ-1983م). ص: 99.

يقنطها عسر مهما عظم أو اشتد ضيقه، نفس لا يعتريها أيّ ضرب من ضروب الاضطرابات والأمراض النّفسـية،الناتجة عن ضغوط الحياة المختلفة، فالإيمان بالله تعالى، يجعل لكلّ ضغط منها مخرجا، إنّه يخرج البشـرية، مـن ضـيق الهموم والكرب، التي تعيشها تلك الحياة التائهة، إلى سعة السّكينة والراحة، الّتي تعيشها في ظلّ الإيمان بالله تعالى وفي كنفه.

ولعـلّ أحدا ما يتساءل، عن سرّ قدرة الإيمان على تهدئة، تلك الاضطرابات العاتية، التي تضرب بالـنّفس الإنسانية، فتطوّح بها إلى غير قرار، وكذا عن سرّ قدرته على التغيير العجيب لأحوال النّفس، فمن شرّيرة إلى خيّرة، ومن مضطربة إلى متّزنة، ومن أنانية إلى مؤثرة، ومن مستكبرة إلى متواضعة، ومن قلقـة إلى رصـينة،...، وغيرها من تلك الحالات النّفسية المرضية التي تنتاب النّفس، والّتي ما فتئت أن تحوّلـت إلى عكـس ما كانت عليه، فصارت النّفس هادئة، آمنة، مطمئنة، بسبب الإيمان، وأصبحت قادرة بهذه الصفات على بناء المجتمع وتشييده على أكمل وجه، وعلى أحسن حال؛ إذ لا ننتظر أبدا من نفـوس مضـطربة، بناء مجتمع آمن أو متزن، أو متماسك، ولعلّ السرّ في قدرة الإيمان، يكمن في هذين الأمرين:

أوّلا: عمل الإيمان على ترسيخ ثقة الإنسان بالله ثمّ ثقته بنفسه، وصولا به إلى الاطمئنان.
ثانيا: عمل الإيمان على استمرارية صلة الإنسان بالله تعالى، للوصول به -أيضا- إلى الاطمئنان.

أوّلا : عمل الإيمان على ترسيخ ثقة الإنسان بالله ثمّ بنفسه، وصولا به إلى الاطمئنان

ذكرنا فيما سبق أنّ الإيمان بالله تعالى، يجعل النّفس الإنسانية، راضية، مطمئّنة، وذلك بطريقة من الطرق، وقبل الحديث عن هذه الطرق علينا أوّلا، أن نعرف ما هو هذا الاطمئنان الذي يحدثه الإيمان في النّفس، والذي كان ولا يزال حلم نفوس البشرية بأجمعها.

«الطمأنينة والاطمئنان، السّكون بعد الانزعاج، قال تعالى:﴿ ولتطمئن قلوبكم به ﴾ [آل عمران: 126]، وقال:﴿ ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: 260]، وقال: عز من قائل:﴿ يا أيتها النّفس المطمئنة﴾ [الفجر: 27]. وهي ألاّ تصير أمّارة بالسّوء»[1].

والنّفس المطمئّنة، والاطمئنان، يعرّفهما بعض علماء النّفس كما يأتي:

«الـنّفس المطمئّنة، هي النّفس الّتي تتمتّع بالصّحة النّفسية، وسلامة العقل، وراحة البال والاطمئنان حالة عقلـية، انفعالية، مركّبة –دائمة نسبيا- من الشعور بأنّ كلّ شيء على ما يرام، والشعور بالسّعادة مع

(1) : المفردات في غريب القرآن لـ: الراغب الأصفهاني. (دار المعرفة: بيروت- لبنان، ط:1: 1418هـ-1998 م). ص: 310.

الـذّات والآخـرين، والشعور بالرضا والأمن وسلامة العقل، والإقبال على الحياة، مع شعور بالنّشاط والقـوّة والعافية، فتتسم الشخصية بالخلق القويم،والكفاءة والاتزان،والسلوك السّوي، والتّكامل والقدرة على مواجهة مطالب الحياة، وضغوطها، والتّغلب على الأزمات»[2].

ولعلّ كلّ هذه المعاني، قد حققها ولا يزال يحققها الإيمان بالله تعالى، في نفس الفرد المؤمن ولعلّه مـن بين أهمّ السّبل، التي يسلكها الإيمان، للوصول بالفرد المؤمن إلى هذه الحالة؛ حالة الطمأنينة، سبيل ترسيخ ثقته بالله تعالى، الّتي يستمد منها ثقته بنفسه، فالإنسان غير المؤمن كان ولا يزال خائفا، متردّدا في هـذه الحياة، فهو لا يعرف أقرب الأقربين إليه، نفسه التي بين جنبيه، إنّه لا يعرف أصلها، أتراه كان في بدايـة خلقـه إنسانا أم قردا؟! ! أكرمكم الله وهو لا يعرف، كيفية وصوله إلى كوكب الأرض هذا، أيكـون هـذا من عمل الصّدفة العمياء؟ ! . أم أنّه من عمل الطبيعة الصّمّاء؟ ! وهو لا يعرف لنفسه، مكانـة بـين الخلق، فهو يرى في ذاته كائنا، كبقية الكائنات، عاش ليموت! ! ، لا ميزة تميّزه عن بقية العـالمين، إلاّ العقـل، هذا الذي مكّنه من ارتياد وتسخير بعض ما في هذه الأرض، وما في هذا الكون، حـتى يعـيش حـياة مريحة، والحقيقة أنّ هذا الفارق أيضا، سيتلاشى، إذا نظرنا إليه من هذه النّاحية، وسـينعدم، فكلّ الكائنات والمخلوقات، لها غير العقل، أعضاء أخرى، هي بمثابة المبرمج الذي يسطّر لها حـياة مريحة أيضا، ويصبح الإنسان حين ذاك لا يختلف عن النمل والنحل وغيرهما، فإذا كان الإنسان يعيش حياة مريحة بفضل عقله، فالحيوان يعيشها أيضا بفضل غريزته! !

وحالـة الضياع الآنفة الذكر التي يعيشها الإنسان الملحد، لا سبيل له للخروج منها، إلاّ بالإيمان بـالله تعالى، الذي سينقذه من ذاك الانزعاج الدّائم، ويضفي عليه سكينة وأمنا، وذلك بإجابته عن كلّ تلـك التّسـاؤلات، وحلّه، لكلّ تلك المعضلات، وترسيخ ثقته بنفسه، من خلال بيانه للمكانة الرّفيعة والسامية، الّتي يتمتع بما بين الخلق، ذلك أنّ الإنسان إذا استطاع «أن يتبين مكانته السامية...، وإذا هو أدركهـا حـقّ إدراكها، فإنّه في هذه الحالة، يشعر بأنّه جدير بالحياة، وأنّ الحياة بالنّسبة إليه، إنّما هي إبـداع وابتكار، وهكذا ينبغي أن تكون مهمّته فيها، وهذا من شأنه أن يبعث في نفسه الأمل فلا ييأس، ولا يمـرض نفسيا، ولا يفسد أخلاقيا، ولا ينحرف اجتماعيا»[1]، وبالتالي يكوّن لنا الرد الحقيقي الجدير ببناء المجتمع المنشود.

---

(2) : علم النّفس النّبوي لـ: قاسم شهاب. ص: 126.

(1) : القرآن وعلم النّفس: نداء الفطرة لـ: الجسماني. ص: 237.

ثمّ إنّ الإيمـان بـالله تعـالى، قد رسم صورة بّينة، واضحة عن مكانة الإنسان الرّفيعة السامية، وخطّهـا، بخطـوط واضحة على صفحات التاريخ، إنّها مكانة يفخر بها الإنسان ويعتزّ بها أيّما اعتزاز، فمكانـته عالية وكريمة، منذ اللّحظة الأولى، التي خلق فيها، وستبقى كذلك، إلى آخر نفس من حياته، ولعلّ من أبرز معالم هذه المكانة ما يأتي:

1= خلقـه من قبل الله تعالى: يشهد لهذا قول الله -عزّ وجلّ- ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقته بيدي﴾ [ص: 75]، وبهذا يكون «قد أضفى الله تعالى على هذا الكائن أجلّ ألوان الكرم والفضل، فقـد نسـب خلقه إلى ذاته جلّ وعلى،...وهذه هي المرة الوحيدة، التي يستعمل الله تعالى فيها، هذه الصّيغة، بالنسبة لأيّ خلق من خلقه، فكلّ الخلائق أخبر عنها، بأنّه تعالى خلقها، أو فطرها، أو سوّاها أو جعـلها،...الخ، لكـنّه جلّ شأنه، لم يضف شيئا من الخلق إلى يديه –سواء قصد بهما الصفة الخبرية أو القدرة الإلهية- إلاّ الإنسان، وفي هذا الموضع فقط من القرآن، وفي هذا دلالتان في غاية الأهمية:

أ-غاية الإكرام من الرّب الأعلى، لهذا المخلوق، أن تولى خلقه بيديه، ولم يكلّف به أحدا من خلقه.

ب- التصريح بابتداء خلقه على هذا النّمط الفريد،من غير أن يأتى متولدا أو متطوّرا عن غيره من الأحياء»[1].

2= نفـخ الـروح في جسد الإنسان: يعدّ نفخ الرّوح بجسد الإنسان، خصيصة أخرى، ترفع من شأنه، وتعلـيه بـين المخلوقات الأخرى، وقد أثبت له الله تعالى هذه الميزة، في العديد من الآيات الكريمة، التي نذكر منها قوله تعالى:﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون (28) فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (29) ﴾ [ ] وكذا قوله تعالى:﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشرا من طين (71) فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (72)﴾ [ص: 71-72]، إذن فقـد «كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطّين اللّزج، المتحوّل إلى صلصال، ثمّ مـن الـنّفخة العلوية، التي فرّقت بينه، وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائصه الإنسانية، التي أفردته منذ نشـأته عـن كلّ الكائنات الحيّة، فسلك طريقا غير طريقها منذ الابتداء، بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعدّاه! هذه النّفخة، التي تصله بالملأ الأعلى وتجعله أهلا للاتصال بالله وللتّلقي عنه، ولتجاوز

---

(1) : نعمة الله في خلق الإنسان كما يصوره القرآن الكريم لـ: عزت محمد حسن. (مكتبة المعارف: الرياض- المملكة العربية السعودية، ط: 1: 1404هـ-1984م). ص:

النّطاق المادّي، الذي تتعامل فيه العضلات والحواس، إلى النّطاق التجريدي، الذي تتعامل فيه القلوب والعقول»[1].

كما يلاحظ من خلال هاتين الآيتين الكريمتين، تكريم آخر للإنسان، وهو إسناد تلك الرّوح المنفوخة في جسده، إلى ذاته الكريمة، فقال –عزّ من قائل-:﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وهي إضافة تشريف وتكريم، كقوله تعالى: "بيتي" و"شهر الله"[2]. ولا ريب أنّ هذه الميزات تبعث السّعادة والطمأنينة والسّكينة، في نفس العبد المؤمن، عكس الكافر، الذي لا يزال يتخبّط في متاهات النّظريات المتذبذبة، والّتي لا خلاص له منها إلاّ بالرّسو على برّ الإيمان.

3= خلق الإنسان في أحسن صورة : أكّد القرآن الكريم، في العديد من الآيات الكريمة، أنّ الله –عزّ وجلّ- قد أكرم الإنسان –مرة أخرى-، وحباه بتحسين صورته، وبخلقه في أحسن تقويم، حيث قال تعالى:﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسّماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطّيبات ، ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين﴾ [غافر: 64]، وقال تعالى:﴿ خلق السماوات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ [التغابن: 03]، فهذه الآيات الكريمة «تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه،في تحسين صورته، صورته الخلقية وصورته الشعورية، فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجسماني، كما أنّه أرقاها من ناحية تكوينه الشّعوري، واستعداداته الروحية، ذات الأسرار العجيبة»[1]، كما أنّ تخصيص الإنسان، وفي مواضع قرآنية أخرى، «بحسن التركيب وحسن التّقويم. وحسن التعديل، فيه فضل عناية بهذا المخلوق، وإنّ عناية الله بأمر هذا المخلوق...لتشير إلى أنّ له شأنا عند الله، ووزنا في نظام هذا الوجود»[2]. وهذا الشأن العظيم الذي يمتاز به الإنسان عند خالقه، يعد من أكبر دوافع الرّضا على الذات، ومن أكبر منابع الطمأنينة والسّكينة لدى المؤمن، أمّا الكافر –المسكين- فإنّه يرى نفسه أحقر من هذا بكثير، فما هو إلاّ كائن وجد بطريقة عبثية على هذه الأرض، ليحيا حياة عبث عليها ! !

4= سجود ملائكة الرّحمان له : ويشهد لسجود الملائكة آدم عليه السلام، آيات عديدة، نذكر من بينها قوله تعالى:

---

(1) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2139/4.
(2): انظر الجامع لأحكام القرآن لـ: القرطبي. ص: 24/10.
(1) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 3585/6.
(2) : المرجع نفسه. ص: 3933/6.

- ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة:34].
- ﴿ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين﴾ [الأعراف: 11].
- ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم إلاّ إبليس قال أ أسجد لمن خلقت طينا﴾ [الإسراء: 61].
- ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه ﴾ [الكهف: 50].

"والسّجود في الأصل تذلّل مع تطامن ...، وفي الشرع، وضع الجبهة على قصد العبادة، والمأمور به، إمّا المعـنى الشّرعي، فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى، وجعل آدم قبلة لسجودهم، تفخيما لشأنه، أو سببا لوجوبه –أي وجوب السّجود-...، وإمّا المعنى اللّغوي، وهو التواضع لآدم تحّية، وتعظيما له، أو التذلّل والانقياد بالسّعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم"(1). وفي كلّ هذه المعاني،تكريم عظيم للإنسـان، وتفضـيل جليل لبني جنسه عن غيره من المخلوقات وهذا ممّا يزرع في المؤمن الشّعور بالثقة بالذّات، والإحساس بالراحة والسكينة النّفسية لأنه قد تأكّد من شرف أصله ومن علوّ مكانته، أمّا الذين كفروا فهيهات.

5= جعـل الإنسان خليفة الله في أرضه : يشهد لهذه الحقيقة قوله تعالى:﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جـاعل في الأرض خلـيفة﴾ [الـبقرة:30]؛ فالله سبحانه وتعالى، قد اختار الإنسان، وميّزه عن بقّية المخلوقـات، ليكون خليفة له في أرضه، ومعلوم أنّ "الخلافة هي النّيابة عن الغير؛ إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف"(2)، وطبعا الأوجه الثّلاث الأولى، مستحيلة في حقّه –عـزّ وجلّ- بقي الوجه الرابع والأخير، هو المقصود من خلافة الإنسان عن الله تعالى في أرضه، ذلك أنّ مشـيئة الله تعالى : "تريد أن تسلّم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكـيل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتّكوين، والتّحليل والتركيب، والتحوير والتّبديل، وكشف مـا في هـذه الأرض مـن قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كلّه، -بإذن الله- في المهمّة الضّـخمة، الـتي أوكـلها الله –تعالى- إليه"(3). وكلّ هذه المهام التي تنضوي تحت المهمّة الضخمة –الخلافـة- تشـي بالمكانة الرّفيعة التي يتبوّؤها هذا المخلوق عند الله تعالى. والإيمان به تعالى، هو السّبيل

(1): معالم التنزيل لـ: البيضاوي. ص: 1/293-294.
(2): المفردات لـ: الأصفهاني. ص: 156.
(2) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 1/65.

الوحيد الذي يمكن الإنسان من الشّعور الكامل بذه المكانة المرموقة، وبالتالي يصل إلى درجة الرّضا عن نفسه، وعن مهمّته، ووظيفته في هذه الحياة، ويعمل بحرص على آدائها على أكمل وجه، ليصل في الأخير إلى رضى ربّه تعالى، الذي آمن به في أوّل أمره.

6= تسـخير كلّ ما في الكون لخدمة الإنسان : كذلك من بين ما يدلّ على مكانة الإنسان الرّفيعة عند الله سبحانه وتعالى، وعلّو شأنه، تسخير هذا الكون الفسيح له، والسّماح له بارتياده، واكتشاف خباياه، وبالانتفاع منه قدر ما استطاع، يتّضح هذا من خلال آيات عديدة نذكر منها قوله تعالى :

- ﴿ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه إنّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم﴾ [الحج: 64].
- ﴿ألم تروا أنّ الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان: 20].
- ﴿وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحما طريّا وتستخرجوا منه حلية تلبسونا﴾ [التوبة: 79].
- ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: 29].

إذن تبـيّن لنا من خلال الآيات الكريمة الآنفة الذّكر، أنّ الله سبحانه وتعالى قد سخّر للإنسان، كـلّ ما في الكون بسماواته وأرضه، ليكون في خدمته، وتحت تصرّفه، فقد أكرمه بالعقل، الذي يعنيه على فهمه، وعلى القدرة على استغلاله على أحسن ما يرام، كلّ هذا من إحسانه تعالى وفضله وامتنانه.

7= تكريم الإنسان في البرّ والبحر: يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا﴾ [الإسراء:70].

فالله سبحانه وتعالى، قد كرّم "هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه، كرّمه بخلقته على تلك الهيئة، بذه الفطرة، التي تجمع بين الطّين والنّفخة، فتجمع بين الأرض والسّماء في ذلك الكيان! وكرّمه بالاسـتعدادات الـتي أودعها فطرته، والّتي استأهل با الخلافة في الأرض، يغّير فيها ويبدّل، وينتج فيها وينشـئ، ويركّب فيها ويحلّل، ويبلّغ با الكمال المقدّر للحياة...وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم، الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق –جلّ شانه- تكريم هذا الإنسـان !، وكرّمه بإعلان هذا التكريم كلّه في كتابه المـّل من الملأ الأعلى، الباقي في الأرض، ﴿ولقد

كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا﴾ [الإسراء:70]»[1].

وأخـيرا بعـد بيان مكانة الإنسان من خلال آيات الذّكر الحكيم، وما أظنّ أنّ أحدا من البشر، يـتوق لنـيل مرتـبة رفيعة كهذه المرتبة، ولا مكانة مرموقة، قيمة كهذه المكانة، إلاّ بعد تذوقه حلاوة الإيمـان، الـذي يعمل على بناء المكانة اللاّئقة بالإنسان، وبيانـا له، ليشعر بعدها، بالثّقة والاطمئنان، المسـتمدّان من الثقة بالله تعالى، والاطمئنان لكلّ ما يقرّره، وما يأمر به، وينهى عنه، وبالتّالي، يمكنه أن يضـطلع –بعدهـا- بمهامّه على أحسن وجه، لأنّه يرى في نفسه قدرة على أدائها، وشوقا إلى الوصول إليها وإلى تحقيقها.

ثانيا: عمل الإيمان على استمرارية صلة العبد بربّه تعالى وصولا به إلى الاطمئنان

إنّ مـن بين أهمّ ما يميّز العبد المؤمن عن غيره، كونه دائم الصّلة بالله –عزّ وجلّ-؛ ربّه وخالقه، هذه الصّلة التي تؤمّنه من كلّ ما يروّعه، وتريحه من كلّ ما يتعبه، وتجلو عنه كلّ ما يغمّه، إنّها الصّلة التي تفتح له منافذ السّعادة، والطمأنينة والسّكينة، لأنّها تربطه بالله، مالك السماوات والأرض، وتشعره بأنّه في حماه، وتحت رعايته وحفظه، وبالتّالي فلن يصيبه أيّ سوء. ويعدّ ذكر الله تعالى، عاملا مهمّا في تمتين هذه الصّلة، وبالتّالي يعدّ عاملا هامّا في سير العبد في طريق السكينة، والاطمئنان، حيث يقول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾ [الرعد: 28]. اختلف المفسّرون في بيان معنى "ذكر الله" على أقوال عديدة «فقيل الذّكر هنا الطّاعة، وقيل بوعد الله، وقيل بالحلف بالله، فإذا حلف بالله سكن قلبه وقـيل بذكـر رحمته، وقيل بذكر دلائله الدّالة على توحيده،...وقال مجاهد: بمحمد ﷺ وأصحابه»[1]، «وقال الحسن : بوعده بالجنّة، وقال مقاتل[2] : بكلامه وهو القرآن، الـذي هـو أعظم معجزة»[3]، ولعلّ قول مقاتل أقرب الأقوال إلى الصّواب، فهو جامع لكلّ ما ذكره المفسـرون من وعد، ودلائل توحيد، وذكر رحمة، وذكر لمحمد ﷺ وأصحابه وغير هذا كثير، ممّا يسكن القلـق والاضطراب ويملأ القلب طمأنينة وأنسابه تعالى ورجاء في مغفرته وقربه، ودفعا للشّك والتردّد، وسبيلا للسكينة واليقين، فكلّ هذه الفتوحات النّفسية، لا يمكن أن تحصل للإنسان، إلاّ من خلال ذكره

---

(1) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2241/4.

(1): فتح البيان في مقاصد القرآن لـ: القنوجي. ص: 54/7

(2) : مقاتل: أبو الحسن مقاتل بن سليمان، أصله من بلخ، وانتقل إلى بغداد، كان مشهورا بتفسير كتاب الله العزيز، توفي سنة 150هـ بالبصرة. انظر وفيات الأعيان لـ: ابن خلكان. ص: 255/5.

(3) : هيمان الزّاد إلى دار المعاد لـ: محمّد بن يوسف الوهبي. (سجل مطابع العرب: سلطنة عمان، ط: 1406هـ-1986م). ص: 349/8.

–عـزّ وجلّ-، وبقدر اتّصال المؤمن بهذا الذّكر، وعدم انقطاعه عنه، يكون اتّصاله بالله تعالى، فقد قيل: "مـن أراد أن يكلّمـه الله فلـيقرأ القرآن"، وكلّما تواصل هذا التّكليم، ازداد الإنسان شعورا بالأمن، والفـرح والسّـعادة، والقوّة، والحيوية، والنّشاط، والاتزان،...، وغيرها من المشاعر والأحاسيس، التي تجعل النّفس ساكنة مطمئّنة، ثمّ إنّ ذكره تعالى يتضمّن أمورا عديدة، تلّبي حاجات النّفس البشرية، نذكر منها:

1= حاجة الإنسان إلى مرشد كريم، وموجه عليم، ليرشده في هاته الحياة، إلى سبيل الخير والفلاح، وهذا مـا يجسّده القرآن الكريم، فقد أبان للإنسان سبل الفلاح وأمره باتباعها وحذّره من سبل الفساد، ونهاه عن الاقتراب منها.

2= حاجـة الإنسان إلى من يكون معه، وقت ضيقه، يسمع نداءه، ويجب دعاءه، ويفرّج كربه، وييسّر عسره،...الخ، ويأتيه ذكر الله، مطمئنا له في كلّ أحوال قلقه، ومسكنا له في كلّ حالات جزعه، فيقول تعالى:

- ﴿وإذا سـألك عبادي عني فإني قرب أجيـب دعـوة الـدّاع إذ
- ﴿ومن يّتق الله يجعل له مخرجا ..﴾ [الطلاق: 32].
- ﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة إنّ الله مع الصابرين ﴾[البقرة: 146].
- ﴿والله يحّب الصابرين ﴾ [آل عمران: 146].
- ﴿وبشر الصابرين (155) الـذين إذا أصـابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّ إليه راجعون (156)أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (157)﴾ [البقرة: 155-157].

3- حاجة الإنسان إلى علاج ما ترسّب في نفسه من أمراض؛ كالكبر، والرّياء والنفاق، والعجب، ولبى القـرآن الكريم للنّفس الإنسانية هذه الحاجة، بأن نّبهها إلى أخطر الأمراض النّفسية، التي تفتك بالنّفس، وبّين عواقبها الوخيمة على الفرد، ليس هذا وحسب، بل قد ضرب لبعض تلك الأمراض أمثلة تجسّدت على أرض الواقع، وبّين للإنسان، أنّ مآلها، هو الوقوع في قاع جهنّم نذكر من ذلك :

أ- الكبر : وهو من أعظم الأمراض التي تصيب القلوب، وتحيل النّفوس إلى نفوس ضارية، جبّارة، عاتية، «فالفخـر والبطر والأشر والعجب والحسد، والبغي والخيلاء والظلم والقسوة، والتجبّر والإعراض وإباء قبول النصّيحة، والاستئثار وطلب العلو، وحبّ الجاه والرّياسة، وأن يحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك كلّها

ناشـئة عن الكبر»[1]، لأجل هذا، كثيرا ما ينّبه الله في القرآن الكريم، عباده المؤمنين إلى هذا المـرض الخطير، فتارة تجده ينّبه المؤمن إلى اجتناب الأعمال، التي تحمل بين طّياتا، معاني الكبر، فقال عزّ من قائل: ﴿ولا تصاغر خدّك للنّاس ولا تمش في الأرض مرحا إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾ [لقمان: 17]، وتارة ثانية، يضرب لهم أمثلة على سوء عاقبة المتكّبرين، ليعتبروا با، ويتّعظوا منها، قال تعالى: ﴿إذ قـال ربّـك لـلملائكة إّني خالق بشرا من طين (70) فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (71)فسجد الملائكة كلّهم أجمعون (72) إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين (73) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالمين (74) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (75) قال فأخرج منها وإّنك رجيم (76) وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدّين (77)﴾ [ص: 70-77].

فهذا أوّل المستكبرين وأعتاهم إبليس –لعنة الله عليه-، كانت عاقبة استكباره، عن طاعه تعالى، وعـدم انصـياعه لأمره، عزّ وجلّ، هي اللّعن إلى يوم الدّين، والعياذ بالله. وضرب لنا تعالى مثالا آخر، عمّـن حذا حذوه، وسلك دربه، فقال تعالى: ﴿ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هارون (45) بآياتنا وسلطان مبين (46) إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين (47) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عـابدون (48) فكذّبوهما فكانوا من المهلكين(49)﴾ [المؤمنون: 45-49]، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم السّـاعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾ [غافر: 46]. وتارة ثالثة كان تعالى ينّبه عباده إلى أن الكبر، صفة من صفاته العليا، فلا يجوز لأيّ بشر أن يتشبه با، ولا أن يتصف با، قال تعالى: ﴿وله الكبرياء في السـماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [الجاثية: 37]، وقال –عزّ وجلّ-: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجّبار المتكّبر، سبحان الله عما يشركون﴾ [الحشر: 23].

وقد عالج الإيمان به تعالى هذا المرض بما يأتي:

- الترغيـب في التواضع، بجعله سمة من سمات عباد الرّحمان حيث قال تعالى: ﴿وعباد الرّحمان الذيـن يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [الفرقان: 63]. وقد صدق الشاعر حين وصف المتواضع والمتكبر بقوله :

تواضع تكن كالبدر لاح ۞ لّناظر على صفحات الماء وهو رفيع

---

(1): الفوائد لـ: ابن قيم الجوزية. (دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط:2: 1393هـ-1973) ص: 143

ولا تكن كالدخان يعلوه ❁ بنفسه فوق طبقات الجوّ وهو وضيع

- لترهيب من الكبر، حيث قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾ [لقمان:17]. كما قال ﷺ : ((ألا أخبركم بأهل النّار، كلّ عتل جواظ مستكبر))[1].

- جعل بعض ما في القرآن الكريم شفاء لهذا المرض –ولغيره- فقد قال ابن القيم : «ثمّ إنّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، تراميا به إلى التّلف، ولا بدّ، وهما الرّياء والكبر، فـدواء الـرّياء ﴿إيّاك نعبد﴾ ، ودواء الكبر ﴿إيّاك نستعين﴾ فالمستكبر يظنّ نفسه في غنى دائم عن الآخرين، ولعلّ جهله يطوّح به، إلى الظنّ بأنّه مستغن أيضا، عن الله تعالى، فإذا ما أقرّ بضعفه، ولجأ إلى إظهـاره له تعالى،وطلـب المعونة منه تعالى، في كلّ حين وحال، تخلّص من هذا الدّاء الذي قد يتسلّل إلى نفسه دون أن يشعر»[2].

ب- الحسـ ـد : وهو أن يتمنّى المرء زوال النّعمة عن صاحبها، وانتقالها إليه، وإلاّ فعلى الأقل، يتمنّى زوالهـا وهذا المرض الذي يصيب النّفوس، فيعكّر صفوها، ليس بمرض حديث، وإنّما هو مرض،ضربت جـذوره في أعمـاق الماضي، وكان حامل لوائه أحد ولدي آدم –عليه السلام- والذي عبّر عن قصته القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخـر قال لأقتلنّك قال إنّما يتقبّل الله من المتّقين(29) لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنيّ أخاف الله ربّ العالمين(30) إنّي أريد أن تبوأ بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب الـنّار وذلك جزاء الظالمين(31)فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين(32)﴾ [المائدة: 29-32]، إذن قد جر الحسد قابيل إلى قتل أخيه هابيل، لحظة، بلغ حسده له أوجه، ولعلّ هذه النتيجة قريبة من كلّ حاسد، لذا نجد القرآن الكريم، يعالج هذا المرض من جوانب عدة، نذكر منها :

- بـيان أنّ الله تعالى، عادل في حكمه، حكيم في توزيع نعمه ورزقه، حيث قال تعالى : ﴿وما ربّـك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: 46]، فإذا استقر هذا المعنى في نفس المؤمن علم يقينا، أنّ الله تعالى، لم يمـيّز غيره عنه، بمنحه نعمة معيّنة، فإن كانت نعمة غيره ظاهرة، فلا بدّ أن يكون له نعمة أخرى

---

[1] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب الجنة وصفة نعيمها...، باب: النّار يدخلها الجبّارون...رقم: 2853. ص:4/ 2190؛ وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: الأدب، باب: الكبر...، رقم: 5723. ص: 2255/5.

(2): مدارج السالكين لـ: ابن قيم الجوزية. ص:

لكـنّ الحسد يعميه عنها، كما أنّ هذا المعنى، يجعله يوقن بأنّه تعالى ما أعطى لهذا نعمة إلاّ لحكمة، وما حرمه منها إلاّ لحكمة.

- أنّ الله تعالى، ما جعل حجابا بينه وبين عباده، فإن اشتهى المؤمن نعمة معّينة أسبغها الله على مؤمن آخر، فما عليه إلاّ أن يرفع يديه إليه تعالى، ويدعوه لتحقيق كلّ ما اشتهته نفسه، ولن يعيد الله تعالى إليه يديه فارغتين أبدا.

- أنّ الـتفاوت في الـنّعم لا يعني التفاوت في الرّتب، فما تلك النّعم إلا متاع الدنيا الزائل أمّا الـتفاوت في الدرجـات فـيكون بقـدر تقوى العبد قال تعالى: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: 13]، ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [المطففين: 26].

كـان هـذا عرض لمثالين يوضّحان كيف أنّ القرآن الكريم قادر على شفاء تلك العلل النفسية، الرّابضة على صدور المؤمنين، فهو بحق كما قال تعالى: ﴿ونـ ل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا﴾ [الإسراء: 82].

بقـي أن نشـير في ختام هذا المطلب إلى أنّ القرآن الكريم، قد أولى اهتماما بالغا ببيان أمراض النّفوس والقلوب وبيان علاجها، في حين أنّ ذلك لا يلاحظ بالنّسبة لأمراض البدنية، وما ذلك إلاّ لكون الأولى أخطـر وأعظم من الثانية ذلك «إلى أن غاية مرض البدن، أن يفضي بصاحبه الموت، وأمّا مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي»(1)، وهذا ما يعمل الإيمان على إبعاده عن المؤمنين، فهو يعمل عـلى إحيائهم حياة طّيبة في الدنيا، والآخرة، وبالتالي يكون قد ضمن لهم السعادة الأبدية. ﴿من عمل صـالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طّيبة ولنجزيّنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل:97].

ولا بأس بأن نشير أنّه كثيرا ما ينّبه القرآن الكريم إلى أهمّية الصّلاة والدّعاء باعتبارهما من أهمّ ما يوطّد صلة العبد بربه، حيث يقول تعالى :

- ﴿واستعينوا بالصبر والصّلاة إنّ الله مع الصابرين﴾ [البقرة: 153].
- ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان ﴾ [البقرة: 186]

---

(1): مفتاح دار السعادة لـ: ابن قيم الجوزية. ص: 111.

ففـي العبادتين الآنفتي الذّكر أهمية بالغة، في جعل النّفس متوازنة، راضية، هادئة مطمئنة، وذلك من خلال ما يأتي :

أ-الـنّفس في حاجة إلى التخلص ممّا بداخلها من مشاكل وهموم[2]، والدّعاء وسيلة ناجعة لتحقيق ذلك، فبه تحقّق النّفس هدف التّخلص من مكبوتاتا، وبه تسعى إلى إيعاد حلّ لمشكلاتا، وتخفيف أحمالها، من خلال استجابته تعالى لدعائه.

ب-الصّلاة تجعل الفرد ، يبيع كلّ العالم، ولا يشتري إلاّ الله، فيكون همّه الوحيد هو الاقتراب منه تعالى، والعـيش في ظلال ذكره ، فيصبح وكأنّه بعالم آخر، تتلاشى فيه كلّ القيم إلاّ قيمة صلته به تعالى، التي تبعـث في نفسـه الطمأنيـنة والسكينة، وتبعده عن كلّ ما يعكر صفو حياته، إنّها صلة، تربط السّماء بالأرض، والمخلوق بخالق.

ج-«الصّـلاة، تدفعنا إلى العمل والإقدام، بل الصّلاة هي الخطوة الأولى نحو العمل وقد قال أحد علماء الغرب[1] : «الصلاة هي أعظم طاقة مولّدة للنشاط، عرفت حتى الآن، فلماذا لا ننتفع با»[2].

وهكذا نخلص إلى أنّ الإيمان بالله تعالى يضفي على حياة المؤمنين الهدوء والطمأنينة، من خلال ما يبـثه في أفئدتم من الثقة بالله والتّوكل عليه والرضا بقضائه وقدره من خلال التوجيهات النفسية المبثوثة بـين آيات الذّكر الحكيم، والتي كان لها الأثر الواضح في جعل نفسية المؤمن أكثر اتزانا من نفسّية أيّ شخص آخر.

---

(2): انظر الإيمان والحياة لـ: القرضاوي. ص: 128.
(1): هو العالم ألكسيس كاريل.
(2) : الإيمان والحياة لـ: القرضاوي. ص: 129.

المطـلب الثانـي
الإيمان وتكوين النفس القوية المدافعة

لا ينحصر الإيمان بالله تعالى في العمل على بناء وتكوين نفس المؤمن، المطمئنة الهانئة، الهادئة، التي تقوى على بناء المـتمع المتوازن، الذي يمكنه أن يجسّد خلافة الله على أرضه كما ينبغي، بل إنّه إضافة إلى هـذا، عمل على صعيد ثان، لا يقلّ أهمية عن الأوّل، والذي لا يمكنه أن يكتمل –بل ولا أن يقوم- إلاّ بـه، إنّه صعيد القوّة والثبات، فالإيمان لا يعترف بالضّعف ولا بالوهن، أليس نبّينا ﷺ القائل: ((المؤمن القوي، خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف))[1]؟! نعم إنّه لا يعترف بما؛ لأنّ المؤمن لا يحيا وسط جنّة النّعيم، كلّ آماله محقّقة، وكلّ أوامره مجابة، بل أنّه يعيش وسط حياة، دربه فيها طويل وشاق، حياة مليئة بالمتاعب، والعقبات، لهذا كان لا بدّ عليه أن يتحصّن منها، بركن ركين، وعون شديد، يلجأ إليه كلّما أوصدت الحياة بوجهه أبوابا، وهذا لن يكون إلاّ بتمسّكه بإيمانه الذي سيكون بمثابة الدّرع الحافظ له من كلّ ضربات الحياة أو بمثابة الحصن الصامد وجه كلّ الأمواج والعواصف، التي قد يصادفها خلال مسـيرته الشّاقة، ولعلّ أعتا تلك الأمواج، وأقوى تلك العواصف، وأعظمها خطورة، مواجهته لمن يهدّد أمـنه وحـياته ووجوده وحضارته، مواجهته لعدو الله وعدوّه، الذي لن يرتاح له بال، ولن تستكين له نفـس، إلاّ إذا أضعف المؤمن وسلبه قوّته، ورجّ نفسيته رجّا، وهذا بأحد الأمرين؛ إمّا أن يسلخ المؤمنين مـن ديـنهم ويردّهم عنه، كما قال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا نصارى حتى تتّبع ملّته ﴾ [البقرة: 120].

وإمّـا أن يحاربم بكلّ ما أوتي من قوّة ليفنيهم من على وجه الأرض، ويقضي على حضارتم، حتى تصبح قاعا صفصفا. وهيهات أن يتحقّق لهم هذا، بل وهيهات لهم أن يحلموا به، إذا ثبت المؤمنون عـلى دين الإسلام، وبقوا، معتصمين بحبل الله تعالى، محافظين على عهده؛ ذلك لأنّ الإيمان يضمن لهم كافّة عوامل القوّة والمناعة والمواجهة والصمود، وذلك من خلال ما يأتي:
أوّلا : عمل الإيمان على تكوين النّفس المؤمنة القويّة المدافعة.
ثانيا : عمل الإيمان على بيان ضعف العدو.

أوّلا: عمل الإيمان على تكوين النّفس القويّة المدافعة

[1] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم 2664، ص: 2052/4؛ وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: التوكّل واليقين، رقم: 4168، ص: 1395/2؛ أخرجه أحمد في مسنده، رقم 8815. ص: 370/2.

لقـد رسـخ الإيمان في نفس المؤمن، مشاعر القوّة والصّمود، والدّفاع، والمواجهة، وغيرها من المشاعر النّبيلة، التي صنعت منه ذلك الشجاع النّبيل، الذي لا يعييه تعب، ولا يثنيه عطب، والتي كوّنت ذلك البناء المرصوص، الذي كان جديرا بقيادة الحضارات وبصناعة أمجادها، فكان بحق خير أمّة أخرجت للعالمين، قال تعالى: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس﴾ [آل عمران: 110].

وفي ذات الوقـت، قد عمل الإيمان على محو كلّ عوامل الضعف والوهن والتردّد والخوف، التي كـان يمكن للفرد المؤمن أن يعاني منها، وحوّلها إلى مراكز إشعاع للقوّة والثقة والشجاعة، وقد استطاع الإيمـان أن يجمع بين هذين العنصرين وأن يحكم بّناء النّفس المؤمنة القوّية، من خلال غرسه لهذه المبادئ السامية فيها وهي :

1= الموت أمل المؤمنين لا ألمهم : «إن أخوف ما تخافه البشرية، وأرهب ما يرهب الفرد؛ جنديا كان، أم فردا عاديا، في أيّ موقع في الأمّة، وإنّ أضعف نقطة يمكن التسلّل منها لإحداث انيار نفسي، هي نقطة خوف الموت. ولقد عملت تربية القرآن ومبادئ الإسلام على تحويل هذه النّقطة في الشخصية الإنسانية مـن نقطـة ضعف سلبية إلى ثكنة قوّة، وترسانة إمداد للطاقة البشرية، ومن هنا صحّ من خالد القائد العظـيم أن يقول لقادة عدوّه: جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »[1] وقد استطاع الإيمان أن يصل إلى هذه النتيجة المذهلة عن طريق :

أ- بـيان أنّ الموت مصير كلّ كائن حي، حيث قال تعالى: ﴿كـــلّ نفـس ذائقــة الــــــــــــــموت﴾ [آل عمـران:185]، وقال عزّ من قائل: ﴿بكـــلّ نفـس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾ [العنكبوت: 57].

ب-بيان أنّ للموت ميعاد محدّد لا يقدّم ولا يؤخّر لأي سبب، قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلاّ بـإذن الله كتابا مؤجل﴾ [آل عمران: 145]، وقال تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [النحل: 61].

وهكذا استقرّ في النفس المؤمنة، أنّ هذا الموت لا بدّ وأن تلاقيه في أجل محدّد، لا يتقدّم ثانية ولا يـتأخر، وعليه فلا مجال للخوف من الأسباب الموصلة إليه؛ فقد يكون العبد أقرب النّاس إلى الموت ولا يموت، لأنّ أجله لم يحن بعد، وقد يكون أبعدهم عنها وفجأة يموت، وما ذاك إلاّ لأنّ ساعته قد أزفت.

(1): الحرب النّفسية بيننا وبين العدّو الإسرائيلي لـ: أحمد نوفل. (دار الشهاب: باتنة ـ الجزائر، ط:1988م). ص: 353.

ج-بيان أنّ الموت ما هو إلاّ نقطة وصل بين الحياة الزّائفة الفانية، وبين الحياة الحقيقة الأبدية، لهذا فإنّ المؤمن يتوق إليه، ليرى ربّه تعالى، ويوفّيه أجره: ﴿فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء: 173].

د-بيان أنّ الجهاد ليس كما يراه الكافرون، أعظم سبب للموت والفناء، بل إنّه على عكس ذلك تماما، هو أعظم سبب للحياة الحقيقية وللبقاء الدائم، قال تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربّهم يرزقون (169) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون (170) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين (171)﴾ [آل عمران: 169-171].

كما أنّ الجهاد بالنسبة للمؤمن سبيل لإدراك نعم جليلة، تبدو واضحة من خلال قوله ﷺ : ((إنّ للشهيد عند الله ست خصال ، أن يغفر له في أوّل دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنّة، ويحلّى حلّة الإيمان ويزوّج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، و يأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصّع بالدرّ والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج من اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفّع في سبعين إنسانا من أقاربه))"[1].

ولعل أبرز مثال ضربه الله تعالى لنا، لبيان درجة قوّة الإيمان في تحويل الموت من نقطة ضعف في حياة الإنسان، إلى نقطة قوّة في حياة المؤمن، قصة سحرة فرعون الذين ماهمّهم أن يقتلوا، ولا حتى كيف يقتلوا، فلقد أدركوا حقيقة الموت بعد إيمانهم، إنّه سيأخذهم إلى ربّهم، ويقرّبهم منه، قال تعالى: ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (42)فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون (43) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقّف ما يافكون (44) فألقي السّحرة ساجدين (45) قالوا آمنّا بربّ العالمين (46) ربّ موسى وهارون (47) قال أ أمنتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبيركم الذي علّمكم السّحر فلسوف تعلمون (48) لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنّكم أجمعين (49) قالوا لا خير إنّا إلى ربّنا منقلبون(50) إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنّا أوّل المؤمنين(51)﴾ [الشعراء : 42-51].

---

[1] : أخرجه الترمذي في سننه؛ كتاب: فضائل الجهاد، باب: ثواب الشهيد، رقم 1663. ص: 187/4. وأخرجه أحمد في مسنده. ص: 200/4.

نعـم إنّ إيمانهم، جعلهم يدركوا أنّهم إلى ربّهم منقلبون، سواء اليوم أو غدا، وسواء كان ذلك، بالصّلب أو القتل أو الشنق..، المهمّ أنّهم عائدون إلى ربّهم تعالى، وهم موقنون أن لا منقلب أحب ولا أروع بالنّسبة إليهم من هذا المنقلب الكريم، ولهذا قالوا «لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا ضير في التصلب والتعذيب، لا ضير في الموت والاستشهاد،...لا ضير إنّا إلى ربنا منقلبون،.. وليكن في هـذه الأرض ما يكون : فالمطمع الذي نتعلّق به ونرجوه ((أن يغفر لنا ربّنا خطايانا)) جزاء ((أن كنّا أوّل المؤمنين))، وأن كنّا نحن السّابقين...يا لله ! يالروعة الإيمان إذ يشرق في الضّمائر، وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النّفوس، وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين»[1]، فيجعل من الحياة شيئا هيّنا، يبذل في سبيل الله، ولأجل إعلاء كلمته، بكلّ سهولة ويسر، بل وبكلّ محبّة وشوق.

2= الهزيمة ابتلاء لا ضعف : يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيّام نداولها بين النّاس وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتّخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (140) ولـيمحّص الله الذيـن آمـنوا ويمحق الكافرين (141) أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين (142)﴾ [آل عمران: 140-142].

فالمؤمن يعلم بإيمانه أنّ هاته الأيام التي يعيشها، منها ما يكون له، ومنها ما يكون عليه، وما كان علـيه ليس ضعفا أو غضبا من الله تعالى، وإنّما هو لحكمة منه -عزّ وجلّ-، ورسوله ﷺ يقول : ((إنّ أشـدّ النّاس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))[2]، وقال ﷺ : ((ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلاّ كفّر الله با سيئاته، كما تحطّ الشجرة ورقها))[3]، فإذا انقلبت الهزيمة إلى ابتلاء، ثم صار الابتلاء نعمة، تخفّف من ثقل الخطايا والذنوب ما عادت تشقّ على النّفس بل تطيب لها.

---

(1): في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2597/5.

[2] : أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء، رقم:4023، ص: 1334/2. وأخرجه الدارني في سننه. (تح: فواز أحمد وأخرون، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان،ط:1: 1407هـ)- ى

(3): أخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: المرض، باب اشدّ النّاس بلاء النبياء، رقم: 5324. ص: 2139/5.

3= قـوّة المؤمـن بمعّية الله وتوكّله عليه : إنّ من أكثر ما يضعف الإنسان، ويحطّ من عزيمته، شعوره بـالوحدة في هذا الكون الفسيح، فلا أحد يحرسه، أو يرعاه، ولا أحد يهتم لأمره أو لحاله، بل لا أحد يهتم لوجوده أو عدمه أصلا، إنّ شعورا كهذا كفيل بأن يهزّ نفسية الإنسان هزّا، وأن يخل توازنا، فلا يتمكن صاحبها من القيام بأيّ شيء، ولهذا يقول أحد الأطّباء [1]: «إنّ مرض إحساس الإنسان بوحدته لمن أهمّ العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية»[2]، غير أنّ الإنسان المؤمن محصّن من هذا المرض الخطير، فهـو في أنس دائم مع الله -عزّ وجلّ- أينما كان وحيثما حلّ، ولهذا يكتسب قوّة نفسية، يستطيع بها مواجهـة كلّ المصائب وكلّ الصّعاب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : 04]، وقال : ﴿وَأَن اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: 19].

وعليه فإنّ «شعور المؤمن بمعّية الله دائما يجعله في أنس دائم بربّه، ونعيم موصول بقربه، يحسّ أبدا بالـنّور يغمر قلبه، ولو أّنه في ظلمة اللّيل البهيم، ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين، ينشد ما قاله العبد الصّالح يناجي ربّه :

إنّ قلبا أنت ساكنـه ❁ غير محتاج إلى السّـرج

وجهك المأمول حجّتنا ❁ يوم يأتي النّاس بالحجج»[3]

وهـذا الشعور بالأنس الإلهي، وبالقرب الرّباني، لا يفارق المؤمن في كلّ أحواله فرحه أو قرحه، أمـنه أو حـربه، بـل عـلى العكـس، قـد يقوى ويشتد لهيبه عند القرح أو الحرب، أو غيرها من المصـاعب، قـال تعـالى: ﴿رَبَنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 250]. وقـال عزّ من قـائل: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا

رّبنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا

في أمرنا وثّبت أقـدامنـا وانصرنا على القوم الكـافـريـن ﴾ [آل عمران: 147].

[1] : هو: موزيس جوبتهيمل: مدير إدارة الصّحة العقلية بنيويورك.
(2): الإيمان والحياة لـ: القرضاوي. ص: 124.
(3) : المرجع نفسه. ص: 125.

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ وسيّدنا موسى ﷺ أروع مثالين في بيان مدى قدرة الإيمان على تكوين النّفس القوية، الواثقة بربّها، المعتصمة بحبله، الموقنة بنصره، أمّا المثل الأوّل، فيصّوره لنا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السّفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ [التوبة: 40].

فالله سبحانه تعالى، يبّين لنا من خلال هذه الآية الكريمة نصره لرسوله - ﷺ حينما ائتمرت قريش على قتله، "وخرج وحيدا إلاّ من صاحبه الصّديق، لا جيش ولا عدّة،... والقوم على إثرهما يتعقّبون، والصّديق –رضي الله عنه- يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه-، أن يطّلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب"[1]، إذ يقول لرسول ﷺ: ((لو أنّ أحدهم – أي من المشركين- نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال ﷺ: ((ما ظنّك باثنين الله ثالثها))[2]، هذا الجواب الذي ينمّ عن إيمانه خالص لله تعالى، وثقة كبيرة بنصره -عزّ وجلّ- وتأييده له. كانت نتيجته أنّ الله سبحانه تعالى، كان عند حسن ظنّه ﷺ ؛ إذ نصره على المشركين، بإنزال السّكينة عليه، وتأييده بجنود كرام لم يروها وكانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذّين كفروا هي السفلى.

أمّا المثال الثاني، فيصوّره القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿فأتبعوهم مشرقين (60) فلمّا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون (61) قال كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين (62) فأوحينا لموسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فرق كالطّود العظيم (63) وأزلفنا ثمّ الآخرين (64) وأنجينا إلى موسى ومن معه أجمعين (65) ثمّ أغرقنا الآخرين (66)﴾ [الشعراء: 60-66].

فهؤلاء أصحاب موسى –عليه السّلام- حينما تراءى لهم جنود فرعون، فزعوا وظنّوا أنّهم مدركون لا محالة، "ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربّه، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربّه، واليقين بعونه، والتأكّد من النّجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بدّ كائنة، والله هو الذي يوجّهه ويرعاه ﴿قال كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين﴾ كلاّ، في شدّة وتوكيد، لن نكون مدركين ﴿كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين﴾ بذا الجزم والتأكيد واليقين"[1]، وقد كان الله تعالى حقا، عند حسن ظن موسى –

---

(1): في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 1556/3.

[2] : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: فضائل الصّحابة -رضي الله عنهم-، باب: من فضائل أبي بكر الصديق، رقم: 2381، ص: 1854/4. وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب؛ فضائل الصحابة -رضي الله عنهم-، باب: مناقب المهاجرين ومنهم أبو بكر، رقم: 3453، ص: 1337/3.

(1):في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2599/5.

عليه السلام- به، وجاءت هدايته تعالى له، وحلّ نصره، بأن أرشده إلى ضرب البحر ﴿فانفلق كلّ فرق كالطّود العظيم﴾، ونجا موسى –عليه السلام-. وأصحابه، وهلك فرعون ومن معه.

إذن هـذه معّية الله تعالى لعباده، التي لطالما أحسّ بها أنبياؤه -عليهم السّلام- واستعانوا بها على متاعب الدّهر، والتي نّبه إليها الله تعالى عباده المؤمنين بقوله: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السّلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ [محمد: 35]، فمعنى قوله تعالى: ﴿والله معكم﴾، "أي: ناصركم"[1]، ولأنّه تعالى، دائما بمعّية عباده المؤمنين، يسمع ويرى، وينصر، فقد أمرهم بالّتوكّل والاعتماد عليه، في كلّ آن، حيث قال تعالى :

- ﴿وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ [آل عمران: 122].
- ﴿وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت﴾ [الفرقان: 58].
- ﴿وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ [النساء: 81].

وما أمره تعالى بالتّوكّل عليه، إلاّ لأنّ "المتوكّل يحصل له بتوكّله من جلب المنفعة، ودفع المضرّة، ما لا يحصل لغيره"[2]، كما أنّ في الّتوكّل عليه تعالى وحده، دون غيره، والاعتماد عليه دون سواه، دليل على إفراده بألوهّيته، وعلى الإقرار له، بكلّ صفات الجلال والكمال.

4= بـيان علـو مكانة المؤمنين على الكافرين : عمل القرآن الكريم على رفع الرّوح المعنوية للمؤمنين، وذلـك ببيان علو مكانتكم على أعدائهم الكافرين، وذلك لتقوية نفوسهم، وشحذ هممهم على مواصلة الدّفـاع، والمواجهـة، والجهاد في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمته، ونشرها بين العالمين، إذ يقول الله تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السّلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ [محّمد: 35].

إنّ الله -عـزّ وجـلّ- يخاطب المؤمنين قائلا: ﴿وأنتم الأعلون﴾، مبّينا لهم مكانتهم الرّفيعة بين الخلـق، إنّ الله يقـول: ﴿وأنتم الأعلون﴾، لأنّ "عقيدتكم –أيّها المؤمنون- أعلى، فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج مـن صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى، فأنتم الأوصياء على هذه

[1]: الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون القاويل في وجوه التأويل لـ: محمود بن عمر الزّمخشري (تصحيح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي: بيروت-لبنان، ط:3: 1407هـ-1987م). ص: 329/4.
[2]: رسالة في تحقيق التوكل لـ: ابن تيمية (تح: محمّد رشاد ورفيق سالم. دار العصر: مصر). ص: 88. نقلا عن قرص مؤلفات شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم.

البشـرية كلّهـا، الهداة لهذه البشرية كلّها، وهم شاردون عن النّهج، ضالّون عن الطّريق، ومكانكم في الأرض أعـلى، فلكم وراثة الأرض، التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء، فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإنّما هي سنّة الله، أن تصابوا وتصيبوا على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتّمحيص»[1].

وهكـذا يكـون لشعور المؤمنين برعاية الله تعالى، ونصره لهم، وكذا لإحساسهم بعلّو مكانتهم، ونبل غايتهم، الأثر العميق، في تقوية نفوسهم، ودفعها قدما، نحو تحقيق الهدف، إذ لا مكان فيها للخوف، ولا للضعف، ولا للوهن، ولا للحزن، وإنّما الصّبر والقوّة والاحتمال، والاحتساب لله وحده.

5= الصّـبر مفتاح الفرج : عمل القرآن الكريم، على تربية المؤمنين على فضيلة الصّبر، لتقوى أنفسهم، وتصبح قادرة على مواجهة المصاعب والمشاق، وبيّن لهم بأنّ هذا الخلق الكريم، هو مفتاح النّصر، حيث قـال: ﴿فـإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصّابرين﴾ [الأنفال: 66].

الملاحـظ مـن خلال هذه الآية الكريمة، أنّ الله سبحانه وتعالى، قد قيّد غلبة المائة على المائتين، وغلـبة الألف على الألفين، بقيد الصّبر، ذلك أنّ «ملاك الشجاعة هو الصّبر، الذي يتضمّن قوّة القلب وثباته، ولهذا قال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، والله مع الصّابرين﴾ [البقرة: 249]. وقال تعـالى: ﴿يـا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلّكم تفلحون (45) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنّ الله مع الصّابرين﴾ [الأنفال: 45-46].

كمـا أكّـد الله –سبحانه وتعالى- أنّه مع الصّابرين، في غير موضع يحفظكم ويرعاهم ويثّبت أقدامهم، ذلك لأنّ الصّابرين، قد تشرّبوا صدق العقيدة، التي يدافعون عنها، فانفجرت منهم ينابيع القوّة والعزيمة، وانبعثت سهام المواجهة والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وما عاد لقلّة عددهم، أو كثرته معـنا، ما دام إيمانهم ثابت، وعقيدتهم راسخة، وعزيمتهم متّقدة، وإرادتهم خاضعة لله ولرسوله ﷺ فهم بكلّ هذه الصّفات، قد جسّدوا حقيقة الصّبر، الذي أمرهم الله تعالى به، حيث قال –عزّ من قائل-: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾ [آل عمران: 200]، والذي كان بحقّ، مفتاحا وحيدا للفرج، وطريقا معبّد النّصر.

---

[1] : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 480/1.

6= نصـر الله وعد محقّق : كذلك من بين ما كان يشدّ به القرآن الكريم أزر المؤمن، ويقوّي به نفسه، وعـده بالّنصر المحقّق، والثّابت من عنده تعالى، إن هو أخلص نّيته له تعالى، وصدق في إيمانه، وتوجّهه إليه.

والوعد بالّنصر، يدفع المؤمن إلى اقتحام ساحات الوغى، دون خوف أو تردّد، بل بثقة كبيرة من أّنه سوف ينتصر لا محالة، فالّنصر بالّنسبة إليه، إمّا الغلبة على العدو، وإعلاء كلمة الله، وإمّا نيل الشّهادة والمغفرة. قال تعالى: ﴿قل هل تربّصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين ونحن نتربّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربّصوا إّنا معكم متربّصون﴾ [التوبة: 52].

وقـد تتالـت آيـات القرآن الكريم، تتـّل على عباده تترى، تعدهم بالّنصرة والغلبة، وتشحن نفوسهم، بشحنات العزّة، والثقة بالله وبدينه، وتبعث فيهم القوة، والقدرة على المواجهة والمناجزة، نذكر من بينها قوله تعالى :

- ﴿ولـن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ [الّنساء: 141]، أي لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين «تسلّطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرّهم من خذلهم، ولا من خالفهم»[1].
- ﴿وكـان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم: 47]، أي: أنّ الّنصر «حقّ أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة تكرّما وتفضلاّ»[2].

ثانيـا : بيان ضعف العدو.

حيـنما يكتشف المؤمن، ضعف عدوّه الكافر بالله، تختفي من قلبه كلّ أحاسيس الذّعر، ومشاعر الخـوف، التي كانت تعتم عليه حياته، وتنهار كلّ مظاهر الرّهبة والرّعب، التي كان ينسجها له خياله، فـتجعله جاثما لا يستطيع الحراك، أمام تلك القوى المزعومة، فما بالك أن يحاول مجاهدتها! ! أو يحاول صدّها والوقوف بوجهها ولهذا بّين الله تعالى في كتابه الكريم صفات شخصية العدوّ المخادعة، التي تبدي نفسها في حلّة الكبر والقوّة والاستعلاء، وما هي في واقع الأمر، إلاّ شخصية ذليلة، ضعيفة، دنيئة، يقطّع أوصالها الخوف والرّعب، فتموت قبل مماتها ألف مرّة ومرّة، ولعلّ أبرز سمات تلك الشخصية ما يأتي:

---

(1):تيسير الكريم الرحمان لـ: السّعدي: ص: 210.
(2):تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 437/3.

1= الحرص الشّديد على الحياة : إنّ إنكار الكفار وجود حياة آخرة، جعلهم يحرصون كلّ الحرص على الحفـاظ على عيشهم في الحياة الدّنيا، فهم يعلمون يقينا أن ليس لديهم سواها، قال تعالى: ﴿ولتجدّنّهم أحرص النّاس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّـر والله بصير بما يعملون﴾ [البقرة: 96]. فهؤلاء الكفّار لا يحرصون على الحياة الهانئة، الكريمة، بل إنّهم يحرصون على أيّة حياة، مهما قلّ شانـا، وخفّ وزنـا، المهمّ أنّها حياة، وما ذلك إلاّ لمعرفتهم -بـل ويقينهم- أنّها مهما وصلت إليه من سوء، فلن تكون أسوأ من مصيرهم الذي ينتظرهم بعد الموت، والذي سوف يكون قتال المؤمنين، من الأسباب الكفيلة بإيصالهم إليه، ولهذا تجدهم مذبذبين، هلعين من مواجهة المؤمنين، إنّهم لا مولى لهم، والله مولى المؤمنين، ولا عقيدة لهم حقة يدافعون عنها وكلمة الله هي عقيدة المؤمنين، يبذلون لأجل إعلائها أرواحهم وأنفسهم، بلا خوف أو تردّد.

2= اختلافهم وتفرقهم: يشهد لاختلاف الكفّار وتفرّقهم، قوله تعالى: ﴿لا يقاتلوكم جميعا إلاّ في قرى محصّـنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتّى ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشـر: 14]؛ فهـؤلاء لا يملكـون الشجاعة الكافية، ولا الإرادة القويّة، ولا العزيمة الصّادقة، التي يواجهون بها المؤمنين، لذا تجدهم دوما يتخفّون في قرى محصّنة أو من وراء جدر، ولا يزال هذا مسلكهم حـتّى الـيوم، فهم قلّما يواجهون المؤمنين وجها لوجه، بل إنّهم يتخفّون، ويرتعدون خوفا وهلعا، من أطفـال صغار، -كما هو حال اليهود عند مواجهتهم أطفال الحجارة بفلسطين- فما قولك من أبطال عظام؟! ، ثمّ إنّ المؤمنين بصدق، لا يهزّهم حتّى الجبابرة فكيف نجينا هؤلاء قال تعالى : ﴿الذين قال لهم الـنّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (173) فانقلبوا بـنعمة مـن الله وفضل لم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان الله والله ذو لفضل عظيم (174)﴾ [آل عمران: 173-174].

ورغم أنّ ظاهرة هؤلاء، يوحي أنّهم ذوو قوّة، ويخلع عليهم مظاهر الهيبة، إلاّ أنّ القرآن الكريم، يكشـف باطـنهم، بكـلّ بساطة ووضوح قائلا ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾، أيّ «تراهم مجتمعين، فتحسـبهم مؤتلفـين، وهـم مختلفون غاية الاختلاف»[1]، ولهذا تسهل على المؤمنين هزيمتهم، وكسر شوكتهم بلا عناء.

---

[1] : المرجع السّابق. ص: 341/4.

3= ذلّهـم ورعـبهم من المؤمنين : إنّ وعد الله المؤمنين بالّنصر حقّ، لا وشاحة فيه، لأنه تعالى سوف يمكّنكم منه، بأّية وسيلة من الوسائل، والتي من بينها، تثبيت قلوب المؤمنين

وزعزعة قلوب الكافرين، بإلقاء الرّعب فيها، فيحسّوا بالذّل والصّغار وتضاق نفوسهم، وتخور عزائمهم، عن المواجهة والقتال، يتبّين هذا من خلال قوله تعالى:

- ﴿إِذْ يُوحِـي رَبكَ إِلى الْمَلائِكَةِ أني مَعَكُمْ فَثَبتُوا الذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُوا الرعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُل بَنانٍ ﴾ [الأنفال: 12].
- ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُوا الرعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151].

➢ ﴿هُـوَ الـذِي أَخْـرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَولِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنوا أَنهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعْبَ يُخْرِبُونَ بُيوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: 2].

فالواضـح مـن خلال هذه الآيات الكريمة، أنّ الله –عزّ وجلّ- يقذف في قلوب الذين كفروا الرّعـب، "وهو الخوف الشّديد الذي هو جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عدد ولا عدّة ولا قوّة ولا شـدّة،... نـزل على قلوبهم –أي قلوب الكافرين- الّتي هي محلّ الثبات والصّبر، أو الخور والضّعف، فأزال قوّتها وشدّتها أورثها ضعفا وخورا وجبنا، لا حيلة لهم ولا منعة معه، فصار ذلك عونا عليهم"[1]، و نقطة ضعف ظاهرة عندهم، تعين المؤمنين على غلبتهم.

وفي خلاصة يمكن القول، بأنّ الإيمان بالله تعالى يزرع في نفس المؤمن بذور القوّة،و يقضي على كلّ مولدات الضّعف فيها، ويكشف له حقيقة عدوّه، ويبيّن له درجة ضعفه، كلّ هذا ليجعل من نفسه، نفسا قوّية، ثابتة، شجاعة، لا تميلها الرّياح حيثما مالت، بل تبقى ثابتة، سائرة على درب الإيمان إلى أن تعلي كلمة الحقّ، أو ترجع إلى ربّها راضية مطمئّنة.

كانت البشرية في القديم، تدكّ تحت أقدام الشّرك، الّذي يحمل لواء الجهل ويعليه؛ ذلك أنّ السّدنة والكهنة والرّهبان كانوا يستولون على العلم الدّيني، ويحرصون كلّ الحرص على بقاء البشرية أسيرة تفاسيرهم، ليحكموا السّيطرة عليها، ويتمكّنوا من توجيهها كيفما شاءت أهواؤهم وأغراضهم، وقد كـان عمدتـهم في ذلك أنّ "أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى"[1] ، ولا تزال البشرية اليوم أيضـا تـدكّ وتسحق، لكن هذه المرّة تحت وطأة طاغوت آخر، ألا وهو طاغوت الإلحاد، الّذي لا يحمـل لـواء الجهل، وإنّما لواء العلم الأعمى، هذا الأخير،الّذي شوّهت ملامحه الأهواء، وطمست بصيرته الشّهوات، فصار كأن لم يكن، بل صار وجوده أضّر من عدمه؛ إنّه –هذا العلم- يدّعي أن لا موجد لهذا الكون، ولا مبدع له ولا مسبّب، ولا مسيّر له ولا منظّم؛ كون أوجدته وسيّرته الصّدفة العمياء، نتيجة لتظافر عمليات عديدة هي من فعل الطبيعة الصّماء، والغريب في الأمر، أنّ هذا العلم ذاته، وفي الوقت نفسه يرسي قواعد السّبب والمسّبب، والحدث والمحدث،...، ثمّ إنّه لا يتساءل يوما، ترى لماذا لم يصل العالم إلى ما وصل إليه من هذا الرّقي بواسطة تلك الصّدفة العمياء؟، لماذا عمل هو

---

[1] : تيسير الكريم الرّحمان لـ: السّعدي. ص: 849.
[1] : التكامل في الإسلام لـ: أحمد أمين. (دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط:2: 1406هـ-1986م) مج: 43/1.

عـلى إيجـاده والوصول إليه؟ أيمكن أن يقوم هذا الكون العظيم كلّه، على الصّدفة، ولا يقوم هذا الرّقي التافه عليها؟! ! إنّ هذا ما يقرّره العقل الموجّه، والعلم المزّيف! ! .

أمّا الإيمان، فشتّان بينه، وبين هذان الرّديفان –الشّرك والإلحاد- إنّه السّبيل الوحيد، الّذي يفكّ البشرية ممّا صفدّت به، ويسمو بها عن تلك الأدران، الّتي لطالما دّنستها؛ إنّه الوحيد الّذي يدعو البشرية أجمعهـا بأعـلى صوت ﴿فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله﴾ [محمّد: 19] وأن ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: 111].

إنّـه يدعو إلى استعمال العقل الصّريح، وإلىاكتساب العلم الصّحيح، لأنه يعلم يقينا أنّه الحقّ، الّـذي لا حقّ بعده، والّذي لا شيء بعده إلاّ الضّلال، الذّي لا سبيل له إلى الوجود والاستمرار، ، إلاّ الحجـر عـلى العقول، أو العمل على توجيهها وتزييفها؛ قال تعالى :﴿وليعلم الّذين أوتوا العلم أنّه الحقّ من ربّك فيؤمنوا به، فتخبت له قلوبهم ﴾ [الحج: 54].

إنّ الإيمـان بالله تعالى، فتح –ولا يزال- سجلّ الحياة الإيمانية، ليكتب بقلم العقل، وليزان بنور العـلم، فكان أوّل خطاب له تعالى، لعباده المؤمنين –بعد نبّيه- ﷺ أنّ ﴿اقرأ باسم ربّك الّذي خلق(1) خلـق الإنسان من علق (2) اقرأ وربّك الكرم (3) الذّي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم(5)﴾ [العلـق: 1-5]. فالقـراءة إذن هي أوّل لبنة يضعها الإيمان لتشييد فكر المؤمن، وأوّل خطوة يخطوها، لتوسـعه عقله ومداركه، فكانت هذه بداية لعمل حثيث، متواصل، لتحرير الفكر البشري من كلّ قيد يشلّ حركته، ومن كلّ عائق يقف في طريقه، كما كانت بداية لعمل جادّ، يبشر بقدوم عهد جديد نّير، يتبوّأ العقل فيه، مكانته اللائقة به، وبأصحابه.

إذن فأبـرز الآثـار، الّتي يحدثها الإيمان في فكر البشر، أنّه يعمل على بعثه، وتحريكه، والرّفع من شـأنه، وتوجيهه التوجيه القويم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يعمل على إزالة كلّ ما يقف بوجه هذا البعث، أو هذ الحركة. وهذا ما سأحاول بيانه في المطلبين الآتيين :

المطلب الأول : الإيمان محراب العلم.

المطلب الثاني : الإيمان حرب على الجهل.

وأختم الفصل بالمطلب الثالث ،الذي أبين فيه سبب عناية الإيمان بالعلم،وهو معنون كالآتي :

المطلب الثالث:العلم يهدي للإيمان.

المطلب الأول
الإيمان محراب العلم

أثبت الإيمان بالله تعالى، ولا يزال يثبت حتى الآن، قدرته الفائقة على التأثير في الفكر البشري، أو بالأخـرى، التأثير على فكر أولئك الذين انضووا تحت لوائه، ذلك أن الإيمان قد عمل على إعادة هيكلة هذا الفكر، وصياغته من جديد؛ فقد غير نظرته لكل شيء في هذا الوجود بل إنه قد غير نظرته حتى إلى نفسه ؛ فلم يعد ذلك المخلوق الذي لم يدرمتى وجد ولا كيف أو لماذا؟

و إنما صار ينظر إلى نفسه، على أساس أنه ذلك المخلوق المكرم، الذي وهبه الله تعالى مكانه رفيعة بين خلقه، و الذي حباه برعايته و عنايته، منذ بداية خلقه إلى غاية نهاية عمره.

لقد غير نظرته لهذا الكون الذي يحيط به، و لكل الكائنات من حوله ، فصار الكون معلما هاديا لله وحـده ،وأصـبح كالكتاب المفتوح «يحمل بذاته دلائل الإيمان و آياته و يشي وراءه عن يد تدبره بحكمـة، و يوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة و حساب و جزاء » [1]؛ قال تعالى : ﴿إن في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمرن: 190] وقال تعالى : ﴿الله الـذي خلـق السماوات و الأرض و انزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم و سـخر لكم الفلك لتجري في البحر و سخر لكم الأنهار﴾ [إبراهيم: 32]؛ ثم صارت الكائنات- بعد هـذا -كـلها مخلوقات عابدة لخالق هذا الكون و مبدعه، قال تعالى : ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السـماوات و الأرض و الطير صافات كل قد علم صلاته و تسبيحه و الله عليم بما يفعلون ﴾ [النور: 41].

كمـا انه قد غير نظرته للموت و الحياة؛ فبعد أن كان الموت أكثر شيء يفر المرء منه حيث قال تعـالى: ﴿قـل إن الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم﴾ [الجمعة: 08] ،و بعدما كانت الحياة ، أكثر شيء يحرص عليه المرء إذ يقول تعالى: ﴿... و لتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم أن يعمر ألف سنة...﴾ [البقرة: 96]، بعد هذا صارت الحياة و الممات سواء بالنسبة اليه و هو مؤمن، فكلاهما لله تعالى . ليس هذا و حسب بل ان الإيمان قد غير لدى معتنقيه حتى موازين الحكم على الأشـياء ؛فـبعد أن كان يحكم عليها بمنطق الأهواء ، و العادات و التقاليد ،... الخ ،صار يحكم عليها بمنطق الحكمة و العقل المستنير بتوجيهات الوحي .

---

(1) : في ظلال القران ل: سيد قطب ص:1 / 543.

ثم إن الإيمان لم يحدث في عقول المؤمنين كل هذا التغيير، و لم يثر كل هذه الحركة هكذا فجأة، و إنما في أثناء ذلك أسس لذاته ركنا ركينا يستند إليه، و يعتمد عليه ألا و هو : العمل على تحرير العقل، و توسيعه و إنارته بنور العلم، وذلك لكي يصبح المؤمن قادرا على التمييز بين الصحيح و الخطأ ،و بين الخير و الشر ،و بين الحق و الباطل، و يصير بعدها قادرا على الجهر بإيمانه بكل ثقة و عزة، و قادرا على الدعوة إليه فهو الحق الذي تشربه ، و تيقن من أحقيته ،و فوق كل هذا و ذاك يصير المؤمن قادرا على مواجهة أي فكر أو معتقد ضال ، يحاول إضلاله أو خداعه. ولعله من اجل هذا كله – و غيره- كان الإيمان خير محراب يحتضن العلم ، و يحفظه بين جنباته ؛فقد عمل على تمكينه من قلوب المؤمنين و أفئدتهم بشتى الأساليب التي تجعلهم يقتربون منه اكثر فاكثر؛ و يسعون لتحصيله و اكتسابه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

و مـن بـين تلك الأساليب التي جذبت المؤمن إلى طلب العلم، و التي بدت واضحة في القران العظيم و سنة نبيه الكريم ﷺ نذكر :

أولا : بيان فضيلة العلم و الدعوة الى تحصيله

إن المتدبر لكتاب الله تعالى ، و المتمعن في آياته الكريمة يكتشف بسهولة و يسر ، فضيلة العلم و المكانة المرموقة التي يحتلها في ديننا الحنيف ذلك انه يجد زخما كبيرا من الآيات الكريمة التي توالت مثنى و فرادى، تستثير عقول المؤمنين و تستنهض هممهم د اعية إياهم إلى طلب العلم، و تحريك العقل باعتباره الأداة الـتي بواسـطتها يـتم اكتساب العلم و تحصيله، فمادة "علم" في القران الكريم وردت بمختلف مشـتقاتها مئات المرات« فصفة "تعلمون" في خطاب الجمع 56 مرة ، بالإضافة إلى ثلاث مرات بصيغة "فستعلمون "، و تسع مرات بصيغة "تعلموا " ، و خمسة و ثمانين مرة بصيغة " يعلمون" ، و سبع مرات بصيغة " يعلموا " و نحو سبعة و أربعين مرة تكرر فعل "علم " و ما يشتق منه و ما يتعلق كما تكررت صفة " ع_ليم" معرفة و نكرة مائة و أربعون و كلمة علم معرفة ونكرة مائة و ثمانين مرة ، وهناك صيغ أخرى تكررت كثيرا أيضا » [1] اما بالنسبة للفظ " عقل "، فان «لم يرد في القران الكريم على الإطلاق، فقد وردت صيغ فعلية كثيرة للكلمة تدل على استخدام العقل و تحكيمه ، و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام القران الكريم بفعل التعقل الذي هو عملية حقيقية و جادة لها أثرها في حياة الإنسان و

[1] الغقل و العلم في القران الكريم لـ: يوسف القرضاوي (مكتبة وهبة ، القاهرة – مصر ط 1 1416هـ -1996) ص 71.

ارتباطه بواقعه »[1] و من بين تلك الصيغ نذكر صيغة " تعقلون" ، التي تكررت أربعة و عشرين مرة ، و صيغة " يعقلون" التي تكررت اثنين و عشرين مرة، و صيغة " نعقل" ، التي وردت مرة واحدة في سورة الملك، و صيغة " يعقلها التي وردت مرة واحدة في سورة العنكبوت و صيغة " عقلوه " التي وردت مرة واحدة في سورة البقرة [2].

ليس هذا وحسب ، بل قد وردت مرادفات للعقل في القران الكريم مثل :[3]

- "اللب " : كما في قوله :﴿ و لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ..﴾ [البقرة: 179]
- " الحلم " : كما في قوله تعالى :﴿أم تأمركم أحلامكم بذا أم هم قوم طاغوت ﴾ [الطور: 32].
- "الـنهى " : كما في قوله تعالى :﴿ كلـ ـوا و ارعوا إنعامكم أن في ذلك لآيات لأولي النه﴾[طه: 54].
- " الحجر" : كما في قوله تعالى :﴿و الفجر و ليالي العشر و الشفع و الوتر و الليل إذا يسر هل ...﴾

في ذلك قسم لذي حجر﴾ [الفجر: 1-5]. أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى»

القلب: كما في قوله تعالى :﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون با ﴾ [الحج: 46].

هذا بالنسبة للحضور المكثف لما ذلك علم "وعقل"في القرآن الكريم، ودلالته الواضحة على الأهمية البالغة، التي يوليها القرآن الكريم للعلم.

أما بالنسبة لبيان مكانة العلم والتعلم من خلال معاني الآيات الكريمة،فلنا أن نشير إلى دلالة بعض منها ولتكن بدايتنا بقوله تعالى :

- ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [العلق:01].

كانـت هـذه الآية الكريمة، هي أول أية من أول سورة نولت لتصل مرة أخرى الأرض بوحي السـماء، بعد انقطاع دام مئات السنين، أنا أول أية من أخر رسالة إلهية ترسل إلى الأرض،« تبدأ باسم

---

[1] البعد الحضاري للعقيدة الاسلامية بين نظرة الانسان و توجيه القران الكريم (رسالة ماجستير من اعداد نبيل مشكاريني، اشراف عمار جيدل ، ت،2000 -2001) ، ص ،72

[2] المرجع نفسه ، ص 72-73 نقلا عن المعجم المفهرس .ص 468-469.

[3] انظر ، القران الكريم و النظرة ، لفاطمة اسماعيل محمد (المعهد العالمي للفكر الاسلامي : و . م .أ ، 6. 1413 هـ - 1993م) . ص 76 – 78.

الله، ونوجه الرسول ﷺ أول ما توجه، في أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى، وفي أول خطوة في طريق 1دعوة، التي أختير لها...توجهه الى لأن يقرأ باسم الله ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾»[1]، وفي هـذا الدلالـة البينة على الترابط الشديد بين هذه الرسالة الخاتمة، وبين العلم، فهذه الرسالة العظيمة لم تعـتمد المعجزة الفارقة، لتصف أحنحتها على الناس وتجبرهم على الإيمان با، إذ لا خيار للعقل إلا أن يصدق بأن تلك المعجزة، تفوق قدراته، ولا بد أن تصدر عن عظيم قدير ألا وهو الله، إن الرسالة الخاتمة لم تعـتمد على هذا المنهج، كسابقاتا من ارسالات الأخرى، إنما اعتمدن مهجا أخرا، ومعجزة أخرى، معجزة الفرأن الكريم، القرآن الذي جاء "بمنهج جديد يتفق مع ما يراد للبشرية من اكتمال ورشد، منهج العقـل والتدبر والنظر والتفكير»[2]، وهو منهج لا يتأثر بالزمان ولا بالمكان، فهو دائم، باق، بقاء العقل البشري، فأيما بشر يملك عقلا سليما، فالفرصة سانحة أمامه لولوج باب الإيمان، وليس كالسابق من لم ير معجزة النبي،أولم يصدق وقوعها، فلا مجال لإيمانه.

= قسم الله تعالى بالقلم، وبالكتابة في قوله : ﴿والقلم وما يسطرون﴾ [القلم: 01].

ومعلـوم أن الله عزّ وجل- لا يقسم بشيء إلا لرفعة شأنه، ولبيان أهميته، ولتنبيه العباد إلى هذه الأهمـية، فقسـم الله تعالى بـ: نون، والقلم، ﴿ وما يسطرون﴾. الدالة على الكتابة،" تعظيم لقيمتها وتوجيه إليها، في وسط أمة لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق، وكانت الكتابة فيها مختلفة ونادرة، في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله، يتطلب نمو هذه المقدرة فيها، وانتشارها بينها، لتقوم بـنقل هذه العقيدة، وما يقوم عليها م مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض، ثم لتنهض بقيادة البشرية، قيادة رشـيدة، ومـا م شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بذه المهمة الكبرى»[1] وقد أثبت التاريخ حاجـة الأمة الإسلامية للكتابة، في كثير من المواطن، نذكر منها على سبيل المثال، الحاجة إلى الكتابة، لتوثـيق العمـود، لتدوين القرآن الكريم، وكتابة السنة الشريفة، للدعوة إلى الإسلام، وبيان حاجة الأمة إلـيه، للدفاع عنه، ورد المطاعن الموجهة إليه،....الخ، ولو لم ينبه إليها القرآن الكريم، والى أهميتها، لما وصلت إليه من الرقي،في خلال ذلك الوقت القصير.

الـرحلة بغرض التفقه في الدين، حيث قال تعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذ رجعوا لعلهم يحذون ﴾ [التوبة: 122]، وقـد قال حماد بن زياد أن هذل في كل من رجل في طلب العل/والتفقه، ورجع إلى ما وراءه،

---

[1] : في ضلال القرآن لـ: سيد قطب.(دار الشروق: بيروت- لبنان، القاهرة: مصر، ط:11 1405ه- 1985م). 3938/6.

[1] : في ضلال القرآن السيد قطب. 3654/6- 3655.

فعـلمه إيـاه"[2]، وهذا ما استوعبه المؤمنون جيداً، وطبقوه في حياتم ايما تطبيق، لدرجة انه لم يعرف الـتاريخ أمـة من أمم، رحلت في سبيل العلم، وضربت في ذلك أروع الأمثلة، وخلدت في ذلك وقائع تذكـر فتشـكر، مثل الأمة الإسلامية، ولا سيما، علماء الحديث[3]، وكان هذا دليلا أخر، يضاف إلى سـابقيه، يثبت مدى احتضان الإيمان للعلم، ذلك أن المؤمنين الذين خرجوا إلى طلب العلم، إنما خرجوا استجابة منهم لأوامر الله تعالى، ورغبة منهم في الحصول إلى رضاه تعالى، وعلى ثوابه أيضا.

= الدعـوة إلى السياحة في الكون، والتفكر في مخلوقاته، حيث قال تعالى :﴿ انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [يونـس: 101]، وقال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ [الأعراف: 185]، فالله تعالى من خلا ما تبين الآيتين الكريمتين، يحث عباده، ويوجههم إلى الـتدبر والـنظر الشامل، لما في ملكوت السماوات والأرض، ثم يفصل تعالى هذه النظرة، ويجعلها أكثر تحديـدا وبيانا[1]، فيقول تعالى :﴿ سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم الحق ﴾ [فصلت: 53] ونلاحظ أن قوله تعالى،(سنريهم): يضمن حقيقتين هما :

= أن الله تعـالى زوّد عباده بالحواس والعقل والمدرك، حتى يتمكنوا من الرؤية[2]، وفي هذا دليل على أنه تعـالى قـد زود الإنسان بالحواس والعقل المدرك لأعمالها والاستفادة منها، وليس لتعطيلها، ولا الحجر عليها.

= أنّ الله تعـالى بثّ آياته ودلائل قدرته في الأفاق والأنفس، ودعاهم جميعا الى التفكر فيها، والاعتبار با، للوصول إلى الحق3، وفي هذا دليل على تكريم الله العقل وذلك بأن حرزه من كل القيود، وجعل له الأفاق والأنفس، مسرحا، ويسيح بين جنباته، حتى يتوصل إلى معرفة وتبين الحق.

كانت هذه يعض الآيات الكريمة، الداعية إلى العلم، والحاثة على استخدام العقل، والرغبة في الرحلة لنيل العلم، والمنبهة إلى بعض ما يتعلق به من كتابة وقراءة، وغير هذه الآيات الكريمة، كثير وكثير لكن يصعب الحديث عنه في هذا المقام، لذا اكتفينا بذكر هذا التري القليل، كتبه عليه وإشارة إليه.

كما أنه لم تتخلف السنة النبوية الشريفة عن أداء هذه المهمة، مهمة غرس العلم في قلوب المؤمنون،بتعريفهم بفضله، وفضل طلبه، والساعين إلى نيله، فقد قال ﷺ من بين ما قال في هذا الباب :

---

[2] : العقل والعلم في القرآن-ص: 222، نفلا عن الرحلة في طلب الحديث.ص 87

[3] : المرجع نفسه.

[1] : أنظر قضية أليمان بين الفلسفة والعلم والقرأن لـ: نديم الجسر.(طرابس، د ت).ص: 303.

[2] : أنظر دلائل التوحيد ل: محمد جمال الدين الفاسمي.(دار النفائس: بيروت- لبنان،1412ه-1992م)-ص: 154-155.

((من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله به طريقا إلى الجنة،وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة)).

﴿ ونزلت عليهم السككينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده﴾[1]

ويقول ﷺ : ((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع))[2]

« وحسـب هـذا العـلم فضـلا على مجالسه تحفها ملائكة الله وتـ ل عليها السّكينة وتفشاها الرحمة، ويذكـرها الله مـن الملأ الأعلى، وهذه الملائكة التي تحفّ مجالس العلم تضع أجنحتها لطالبيه، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل،...والحق حفظ وصيانة»[3] .

وفي كـل هـذا دلالة على علو مكانة العلم وطلبته عند الله تعالى، الذي سخر ملائكته الكرام، لحفظ طلبة العلم وتوفيرهم.

ويقـول ﷺ: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له))[4]

ويقـول عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم : «لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله -عزّ وجلّ- حكمة فهو يقضي با ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فسلكه على هلكته في الخير»[5]

ثانيا: مع العلماء مكانا عليّا :

كذلـك من بين تلك الأساليب، التي اعتمدها الإسلام في مصدرية القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، عباد الله المؤمنين إلى طلب العلم، وولوج أبوابه المختلفة، رفعه تعالى، لحملة العلم إلى درجات

([1]) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم:2699، 2074/4، وأخرجه بن حيان في صحيحه في ذكر حقوق الملائكة بالقوم يجتمعون على ذكر الله مع نزول السكنية عليهم، رقم 3551، 136/3، وأخرجه ابن ماجة في سننه: باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم:223، ص:82/1.

([2]) أخرجه ابن حيان في صحيحه في باب: ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل..، رقم:88، ص:289/1، وأخرجه ابن الحاكم في المستدرك، كتاب العلم: رقم 340، 341، 180/1.

([3]) الرسول والعلم: يوسف القرضاوي (دار الصحوة للنشر: القاهرة، مصر، دت، ص:10.

([4]) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم:1255/9631.3 ، وأخرجه الترمذي في سننه: كتاب الأحكام عن رسول الله باب الوقف، رقم 1376، 669/3، وأخرجه الدرامي في سننه، باب البلاغ عن رسول وتعليم السنن، رقم: 559.

([5]) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب، صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.....رقم: 816 559/1، دار أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: إنفاق المال في حقه، رقم:1343، 510/1. كما أخرجه في: كتاب: الأحكام، باب: أجر من قضى بالحكمة لقوله تعالى" ومن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون"رقم: 67221، 2612/6.

عالـية عنده، جعلتهم بشؤون مكانة مرموقة ومتميزة عند الناس أجمعين، وقد كان لهذا الأسلوب أهميته بـالله، لأنـه يتسرب إلى أفئدة المؤمنين، لنيل القرب منه تعالى، والراغبين في الوصول إلى تلك الدرجة العالية، التي خصّهم بها الله تعالى، دون غيرهم من العالمين، والتي تتجلى فيما يأتي:

1= اقتران شهادة العلماء مع شهادة الله تعالى وملائكته على وحدانيته :

من بين أهم ما يتبنى مكانة العلماء العالية عند الله تعالى، قرن شهادته تعالى، بشهادتهم، وبشهادة ملائكته، وذلك لإثبات أعظم قضية في هذا الوجود، إنها قضية وحدانية الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾ [آل عمران:18] فهذه الآية الكريمة، تبين مكانة العلماء، من وجوه عدة نذكر منها:

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني : اقتران شهادتهم، بشهادته تعالى.

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع : أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول.

والخـامس: أنـه سبحانه استشهد بنفسه، وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه، وهم ملائكته، والعلماء من عـباده، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا"[1] وأكيد أن مكانة عظيمة كهذه، لا بدّ أن تشحن الهمم للوصول إلـيها، وأن تبذل لأعمار في سبيل بلوغها، وهذا ما قام به حقا عباد الله المؤمنون، فقد قدموا أعمارهم على أطباق من ذهب، في سبيل طلب العلم، وإعلاء كلمة الله تعالى من خلاله.

2= رفع العلماء درجات عالية بالجنّة:

يخبرنا الله تعالى، في كتابه العزيز، أنّه أكرم العلماء ورفعهم درجات قائلا: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ [المجادلة:11]، نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله –عـزّ وجـلّ- قد عطف الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا عطف الخاص على العام، تعظيما لهم، كأنهم جنس آخر، ولذا أعيد الموصول الذين "في النظم الكريم"[2] إذن فالنظم بذاته يدل على تميز مكانة العلماء، وهذا ما عضده البعض من خلال لفظ"يرفع"، فالله تعالى" يرفع الذين أوتوا العلم على من ليس بعالم، وهذا الرفع في الدنيا أم في الآخرة فيه وجهان :

([1]) مفتاح دار العادة ومنثور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية، (تح، حسان عبد المنان الطيبي وعصام فارس الحرستاني، دار الجيل: بيروت، لبنان، ط: 1414هـ-1994م)، ص93-94.

([2]) روح المعاني للألوسي، 29/28، نقلا عن قرض، مكتبة التفسير وعلوم القرآن.

أحدهمـا : أنه إخبار عن ارتفاع درجاتم في الجنة، والثاني أنه ارتفاع مجالسهم في الدنيا، فيكون ترتيـبهم فيها بحسب فضائلهم في الدين والعلم، وكان ابن مسعود يقول: أيها الناس افهموا هذه الآية، ولترغبكم في العلم، فإنّ الله، يرفع المؤمن العالم، فوق من لا يعلم درجات"[1] ، ويروى عن ابن عباس أنه قال" للعلماء درجات فوق المؤمنين، سبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام"[2]

ومـا يشير إلى ارتفاع درجات العلماء عنده تعالى في الآخرة، ما روي عنه ﷺ من أنه قال : ((يشفع يوم القيامة ثلاثة، الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشهداء))"[3]

ومعلوم أن أعلى درجات الحنة للأنبياء ثم الذين يلونم من الشهداء والصدّقين، ومرتبة العالم من خلال هذا الحديث قد توسّطت مرتبة النبوة والشهادة.

وأمّـا ما يشير إلى ارتفاع في الدنيا، فما رواه الإمام أحمد بسنده، أنّ نافع ابن عبد الحـارث، لقي عمر بن الخطاب، بعسفان، وكان قد استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم "ابن أبزى" من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟!، فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاص، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : ((إن الله يرفع بذا الكتاب قوما، ويضع به آخرين))[4] .

3= مشابة مرتبة العلم لمرتبة النبوة :

تعتـبر مرتبة العلم مقارنة لمرتبة النبوة ومشابة لها، لأنا تضطلع بحمل مهمتها، بعد ناية فترتا، فالعلماء هم من يتقلد مهمة إرشاد الناس وحدايتهم على الطريق السليم، اعتمادا على ما ورثوه من علم النـبوة لهـذا روي ﷺ قوله : ((إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء ولم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه، أخذ بحظ وافر))[5] ، وبعد قوله هذا ﷺ " من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتم خير الخلق من بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته، إذ هم

([1]) زاد المسير لابن الجوزي، 194/8، نقلا عن قرص، مكتبة وعلوم القرآن.
([2]) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (دار الكتاب العربي، د ط، د ت)8/1.
([3]) أخرجه أحمد بن اسماعيل الكنالي في المصباح الزجاجة، باسناد وضعيف، باب، ذكر القاعة260/4، وأخرجه ابن ماجة في سننه، باب ذكر الشفاعة، رقم 43131، 1443/2.
([4]) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في المسند المستخرج على الصحيحين، باب: من قال:"إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما" رقم 1849، 411/2، وأخرجه الدرامي في سننه، باب إن الله يرفع بهذا القرآن أقواما...رقم:3365-2/ 536.
([5]) تم تخريجه في الصفحة رقم:9، تابع لحديث" من سلك طريقا يلتمس فيه علما".

الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلى العلماء، كانوا أحق الناس بميراثهم"[1] .

ومـا يدل أيضا على مشابهة مرتبة العلماء، المرتبة الأنبياء، قوله :" إنما بعثت معلما"[2] فنلاحظ كيف أنه ﷺ جعل وظيفته وهو نبي هي التعليم، وهي ذاتا وظيفة العلماء.

(1) مفتاح دار السّعادة لابن قيم: 126/1.
(2) أخرجه الدرامي في سننه، باب في فضل العلم والعالم، رقم 3491، 111/1، وأخرجه بن ماجة في سننه باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم:229، 83/1.

المطـب الثانـي
الإيمان حرب على الجهال

سـبق وأن عرفـنا من خلال المطلب السابق، أن الإيمان محراب أحاطه برعايته التامة، بأن رفعه وأهلـه وطلبته، مكانا عليا في الدنيا والآخرة، والآن سأحاول من خلال هذا المطلب، بيان شق آخر في هـذه المسـألة، وهو أن الإيمان كما أولى عنايته البالغة بمعلم والعلماء، شنّ حربا هوادة فيها على الجهل وعلى كل ما يؤدّي إلى تعطيل العقل، أو تشبيطه عن أداء وظيفته على أحسن ما يرام، خاصة وأن العقل هـو مـناط الاعتقاد والتكليف، في ديننا الإسلامي الحنيف، ولذلك ذمّ الله تعالى التقليد، وألئك الذين عطّلوا عقولهم فصاروا لا يعقلون، رغم ما يملكونه من عقول، كما نجده تعالى، قد ذمّ أولئك الذين اتبعوا الأهـواء والظـنون، وآثروها على ما تمليه عليهم ضمائرهم، ليس هذا وحسب، بل إنه تعالى حزم على عباده المؤمنين إتباع الطرق العقلية لاكتساب المعارف، تلك الطرق التي توهم بقدرتا على الإيصال إلى العلم، وهي في حقيقة الأمر، لا توصل إلا إلى

ولا تقـوم على أي أساس من الصحة، حيث يضيع وقت المؤمن وجهده، وماله -أحيانا- في طلبه من غير طائل، في حين أنه كان حر ، أن يبذل ذات الجهد والوقت والمال في سبيل الوصول إلى العلم الحقيقي النافع، وبطرقه المشروعة.

ولنبدأ بـ :

أولا : ذم التقـليد

لمّـا كـان الإيمـان بالله تعالى، انطلاق للفكر، وتحرير للعقل، كان لا بدّ أن يحق بوجه التقليد الأعمـى، الذي يلغي للإنسان إنسانيته وكرامته، بأن يفقده أهم ميزة مَيّزَه الخالق تبارك وتعالى بها... .مـيزة الـتعقل والـتفكير، والـنظر: فالتقليد يجعل الإنسان متبعا لغيره، "فيما يقول أو يفعل، معتقدا فيه من غير نظر وتأمل في الدليل"[1] ، فيصير الإنسان حينذاك مخالفا لتعاليم الله الدّاعية إلى التفكر والتدبر في التعـلم، بل والداعية إلى الإيمان به، عن قناعة وعلم، حيث قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [محمـد: 19] ولهـذا كثيرا ما نجد القرآن الكريم، يعيب ويعاتب أولئك الذين تمسكوا بأفكار آبائهم الأولـين: فقـال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ [لقمان:21].

([1]) التعريفات لـ: علي بن محمد السيد شريف الجرجاني، (تح: عبد المنعم حنفي، دار الرشاد القاهرة، مصر، د ت، د ط) ص:72.

وقال عز من قائل : ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ [البقرة: 170].

وقال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ [المائدة: 102].

وقال تعالى : ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ [المؤمنون: 68]

إذن فـ الله –تعالى- يعاتبهم، وينكر عليهم ذلك، التقليد الجامد الذي لا يقوم على علم، ولا يعتمد على تفكـير، التقليد الذي يريد الإسلام أن يحزوهم منه، وذلك بأن يطلق عقولهم لتتدبر، وتشيع فيها اليقظة والحركة والنور، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضي المنحرف، ويتمسكوا بالأغلال والقيود"(1) ولذلك كـان ردّه تعالى عليهم منهمكا حيث قال: ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ "أي أن الدّين الذي جـاءهم لا عهد لهم به، فتعين أن يكون في الكلام تكم بم، إذ قد أنكروا دينا جاءهم، ولم يسبق مجبته لآبـائهم، ووجـه التهكم أن شأن كل رسول جاء بدين أن يكون دينه أنفا، ولو كان للقوم مثله لكان مجيئـته تحصيل حاصل"(2) غير أن هذا الرّد الشديد أيضا لم يؤثر لهم، وضلوا على آثار آبائهم وأجدادهم يهـرعون، ثم إن هذا الذم الذي وجهه تعالى للكفار بسبب تقليدهم لأوليهم، به تنبيه واضح للمؤمنين على عدم اتباع السبيل لأنه سبيل غير المؤمنين، وشتان بين سبيل الإيمان والكفر.

ثانيـا : ذمّ اتّباع الهوى

تـابع القـرآن الكريم مسيرته الجادة، نحو إعلاء كلمة العلم بين المؤمنين، وعمل على إماطة كل العوائـق التي قد تقف بوجه مضيه قدما في هذه المسيرة، وكان ّتباع الهوى، من بين أخطر تلك العوائق، الـتي عمل على إستئصالها من نفوس العباد، ولذلك قال ابن عباس- : «ما ذكر الله الهوى في القرآن إلا ذمّه حيث قال تعالى : ﴿. ..ولكنّه أخلد إلى الأرض واّتبع هواه فمثّله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[الأعراف: 176] .

﴿واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ [الكهف: 28].

﴿بـل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين﴾ [الروم: 29].

﴿ ومن أضل ممن إ تبع هواه بغير هدى من الله﴾[القصص: 50]

---

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب، 2793/5.
(2) التحرير والتنوير بن عاشور، 88/18.

﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾.[ص:26] »[1].

كمـا أن الله تعـالى وإمعانا في تنبيه المؤمنين إلى خطر اتباع الهوى، أطلق عليه لفظ "إله" وذلك لشـدة تعلق الناس به، واتباعهم لسبيله، لدرجة أنم سلموه زمام أمورهم كلها، بعد أن أقالوا عقولهم، وسحبوا منها صلاحية القيادة، حيث قال تعالى: ﴿ أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (43) أم تحسـب أن أكـثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أظل سبيلا (44) ﴾.[الفرق :43-44].

وقال عّز من قائل :﴿ أفرأيت من إتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على قلبه غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ [الجاثية: 23].

معـنى الآية أّنه ما «استحسن العبد من شيء ورآه حسّنا في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه»[1]، وكان إلهه الّذي يعبده[2]، إلى أن يختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، فلا يبقى له أية وسيلة من وسائل التفكير، التي تمكنه من اكتساب العلم، الّذي قد يعيد إليه رشده.

أما قوله تعالى :﴿وأضله على علم﴾؛ « فيحتمل قولين :

أحدهما : وأضلّه الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

ثانـيهما : وأضلّه الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجّة عليه»[3]، لكن هيهات أن ينفعه علم، أو أن تقـنعه حجّـة، فقد أغلق الهوى، كلّ منافذ النور، الّتي يمكنها أن تنفذ إليه، فختم على سمعه، وعلى قلـبه،وجعل عـلى بصره غشاوة، من شدّة هرعه خلف أهوائه وشهواته، ولا عجب بعد ذلك في عدم إيمانـه بـالله تعالى، وعدم استجابته لرسوله ﷺ، فهذا ومن كان على شاكلته، خربوا مصابيح عقولهم وأطفؤوهـا، وهي الشيء الوحيد، الّذي يربطهم بوحي السّماء، وأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، فكـانوا أضـلّ سـبيلا من الأنعام، وصدق الله تعالى حين يقول :﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلـون، إن هـم إلا كالأنعـام بل هم أضل سبيلا﴾.[الفرقان:44]، فهؤلاء « أسوأ حالاّ من الأنعام السارحة، فان تلك صحيح ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلم يفعلوا»[4]، بل وعبدوا أهواءهم، فهوت بم في الدنيا إلى كل دنيئة، وهوت بم في الآخرة إلى الهاوية.

---

(1): أحكام القرآن لـ: القرطبي. ص: 167/16.

(1): تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 321/3.

(2): انظر المرجع نفسه. ص: 151/4.

(3): المرجع نفسه. ص: 151/4.

(4): تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 321/3.

ثالثــا : إتّبــاع الظّــن :

إضافة إلى ما ذكرنا، عمل القرآن الكريم، على تثبيت التفكير العلمي والعقلي، عند المؤمنين، عن طريق ذم أتباع الظن، الذي هو خلط بين الشك واليقين[1]، فالظن يجعل المؤمن في حيرة من أمره، يجعله غير قادر على اتخاذ القرارات السليمة،وهذا طبعا مما ينافي العلم ويعاوضه، أما العلم، فإنه يمكن العبد من إدراك الشــيء عــلى حقيقته[2]، وبالتالي يعينه على اتخاذ القرارات الصائبة، التي تبعث الراحة في نفسه، والطمأنينة في قلبه، لأنها صادرة عن قناعة العقل.

وكــثيرا ما عاب القرآن الكريم، على المشركين أتباعهم الظن، الذي أدى بهم إلى إنكار الرسل، والبعــث، حيث قال تعالى، بعد إثباته لألوهيته ﴿وما يتّبع أكثرهم إلا ظنا إنّ الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون﴾ [يونس: 36] فالقرآن الكريم يجعلهم يتّبعون "ظنّا"، وقد جاء هكذا بصيغة التّــنكير، «للــتّحقير؛ أي ظــنّا واهيا، ودلّت صيغة القصر "إلاّ" على أنّهم ليسوا على عقائدهم المنافية للتّوحيد، على شيء من الحقّ، ردّا على اعتقادهم أنّهم على الحق»[3].

وقــال- تعالى، منكرا عليهم، تكذيبهم بالبعث:﴿ وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكــنا إلاّ الدّهــر ومــالهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنّون﴾، [الجاثية: 24]؛ « فهؤلاء يظنون ظنا غامضا، واهيا،لا يقوم على تدبر، ولا يستند إلى علم،ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور، لا ينظرون إلى مــا وراء ظاهر الحياة والموت، من سرّ يشهد بإرادة أخرى، غير إرادة الإنسان،وبسبب آخر غير مرور الأيام»[4].

وهكــذا نجد أنّ القرآن الكريم، يرفض الظّن، في المواطن الّتي يجب أن تقوم على العلم، واليقين، والّــتي مــن أهمّها مقام التأسيس للعقائد، الّتي تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود 3، وفي هذا دعوة ضمنية إلى أن يؤسّس المؤمن عقيدته، على العلم واليقين، حتّى لا تكون قابلة للزعزعة أو الخلخلة، كما

---

(1): أنظر لسان العرب. ص: 13 /272.
(2): المفردات لـ: الأصفهاني. ص: 343/1.
(3): التحرير والتنوير لـ: ابن عاشور. ص:
(4): في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص:

أنّـه دعوة ضمنية إلى أن يقيم المؤمن حياته كلّها على العلم بحقائق الأمور، وليس على الظّن أو الفرض والتخمين.

رابعا: تحريم كل ما يعطل عمل العقل : ومن الواضح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إضافة إلى ما ذكـر العمل على إنقاذ عقول العباد، من الضياع في متاهة الخرافات والترهات، التي كانت توجه حياة العباد، وتحكم السيطرة عليها، أيما إحكام، والغريب في الأمر، أن هذه الخرافات،كانت من نسج خيالهم، بعـد أن أرخـوا سدول عقولهم، فلم تحرك ساكّنا حيالهما، ولعلّ السبب يكمن في ذلك الفراغ الكبير، الّـذي يحـتل جانبا كبّيرا من حياتم، وقد كانوا يعلمون أن العقل وحده، عاجز على ملئه، لأنه يفوق قدرته، فانصاعوا لما تأمرهم به تلك الخرافات.

وقـد كان موقف الإيمان بالله تعالى، واضحا وصريحا، يتجلى في كون الإيمان بالله يقتضي الكفر بكل ما وراءه، ويوضح هذا قوله ﷺ :

((من أتى كاهنا فصدّقه بما يقول، فقد بريء ممّا أنزل الله على محمد ﷺ))[1].

((من أتى عرافا، فسأله عن شيء، فصدقه، لم تقبل صلاته أربعين يوما))[2].

((العيافة والطيرة والطرق من الجبت))[3].

ولنـبدأ بالحديث الأول، الذي يقرر بأن إتيان الكهنة وتصديقهم فيما يقولون، يستلزم البراءة مما أنزل على نبينا محمد ﷺ فما هي الكهانة ياترى، التي توقع المؤمن بذه القوّة السحيقة؟.

« الكهانـة : هـي ادعـاء علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض، مع الإستناد إلى سبب، والأصـل فـيه استراق كلام الملائكة، فيلقيه الجن- في أذن الكاهن»[1]، وأوّل ما نلاحظه، في تعريف الكهانة، أنا إدعاء،بمعنى أنا تنسب إليها شيئا ليس لها، والخطورة، لا تقف عند هذا الحد، بل تتعداه إلى عظـم الشيء المدعى، ألا وهو علم الغيب. إن الكهنة يدعون، وبكل جرأة، أنم يعلمون شيئا، هو في الحقيقة من اختصاص الله وحده، تتجلى من خلاله ربوبيته، وألوهيته أيضا، قال تعالى: ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السّماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: 33].

---

(1) أخرجه البيهقي في سننه كتاب: باب: إتيان النساء-رقم، 13902.7/ 198، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب: باب: النهي عن اتيان الحائض. رقم، 639. ص: 209/1 .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة واتيان الكهان. رقم 2230. ص: 1751/1.

(3) أخرجه البيهقي في سننه؛ كتاب: ، باب: العيافة والطيرة، رقم: ص: 139/8، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: ، باب: في الخطّ وزجر وطير، رقم: 3907. ص: 16/4.

(1) :

﴿ ولله غيـب السـماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [هود: 123].

- ﴿ ولله غيب السماوات والأرض﴾ [النحل: 77].
- ﴿ له غيب السماوات والأرض ﴾[الكهف: 26]
- ﴿إنّ الله عالم غيب السماوات والأرض إّنه عليم بذات الصدور﴾[فاطر: 38].
- ﴿إنّ الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعلمون ﴾[الحجرات: 18].

ثمّ إنّ هؤلاء الكهنة يتعاملون مع الشياطين،لتناسبهم معهم، ومعلوم أن الشياطين، ومن ولاهم،لا يهدون إلاّ إلى الضلال، وقد أمرنا الله تعالى بعدم اتباع خطوات الشيطان، لأنه هو العدو المبين.

قال- تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا..﴾ ، [الكهف: 50]، «أي بئس ما اختاروا - أي الظالمون- لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشـاء والمنكر، عن ولاية الرحمان، الذي كل السعادة،والفلاح والسرور في ولايته، وفي هذه الآية- الكريمة-، الحث على اتخاذ الشيطان عدوّا والإغراء بذلك»[2].

وعلـيه، فلا عجب من أن أتباع الكهنة، مع المعرفة باتصافهم بتلك الصفات الشّنيعة يؤدّي إلى البراءة مما أنزل على سيدنا محمد ﷺ.

بقي أن نعرف، كيف تؤدّي الكهانة إلى تعطيل العقل، ببساطة، إنّ الكهانة تدعي علم الغيب، وهو علم يتجاوز المكان والزمان، وهذا ما يفوق طاقة العقل البشري، فيتوقف عن التفكير، فيما يظن أنه يتجاوز إمكاناته، وأنه يقع تحت سيطرة الكهانة، فينحني بين يديها مقرّا بضعفه أمامها،ولو أنه حرك عقله قليلا، وأمعن النظر في حقيقة الكهانة، لما كان هذا حاله.

أمّا الحديث الثاني، فانه يجعل من الذهاب إلى العراف، ذنبا، عقابه عدم قبول صلاته أربعين ليلة، والعـراف قد عرف بأنه : «الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق، ومكان الضالة ونحوهما»[1]، وقد عاقب الشـارع كل من يقصده،بعدم قبول صلاته،أربعين ليلة «ومعناه، أن لا ثواب له فيها، و إن كانت مجزئة في سقوط الفرض، ولا يحتاج معها إلى إعادة»[2].

---

[2] : تيسير الكريم الرّحمان لـ: السّعدي. ص: 479.

[1] : الديباج لـ: عبد الرحمان بن ابي بكر، أبو الفضل السيوطي.(تح: أبو إسحاق الجو يني الأثري، وابن عفان السعودية ط: 1416-1996م). ص: 248/5.نقلا عن قرص، مكتبة الألفية.

[2] : شرح النووي على صحيح مسلم لـ: النووي.

أمّـا عـن علاقة قصد العرافين، بتعطيل العقل، فهي شبيهة بعلاقة الكهنة بتعطيل العقول، لأن «العـراف مـن جملـة أنواع الكهان»[3]، وإن كانت إمكانية تحريك العقل، وإستخدامه، فيما يقوم به العـراف، أوسـع مما هي عليه، فيما يقوم به الكاهن، فالعبد العاقل، بإمكانه أن يعمل عقله، بالتحري، عمـن قـد يكـون سرقه، أو مكان وجود مسروقاته، أو اقتفاء أثر ضالته، أو الإعلان عن مواصفاتها، لإمكانية التعرف إليها، وإعادتها له ....الخ، فكل هذه الإجراءات من عمل العقل، لكن العرافة، تختصر لـه الطـريق، وتريح عقله من كل هذا العناء، وتخبره عما يريد، وقتما يريد بقدرة قادر"! ! . بقي الحديث الأخير، الّذي يجعل العيافة والطيرة والطرق من الجبت، أي من الشيطان- كما قال الحسن[4].

أمـا العـيافة، فهـي «زجر الطير،والطرق، الخط، يخط يعني في الأرض»[1]، وأما الطيرة، فهي «التشـاؤم بالشـيء، وهي مصدر تطير طيرة،...، وأصل التطير،التفاؤل، واستعمل لكل ما يتفاءل به، ويتشـاءم، وقد كانوا في الجاهلية، يتطيرون بالصيد، كالطير والظبي، فيتيمنون بالسوائح[2]، ويتشاءمون بالبوارح[3]. وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، ويمنع عن إلى سير إلى مطالبهم"، وهنا لنا أن نتساءل : أين كانت عقول هؤلاء، وهم يعطلون قضاء حاجاتهم، لمجرد، أن طيرا خطا معينا في الأرض، أو أنه اتجه اتجاها معينا ؟ ترى ما علاقة هذا الطير أو الصيد أيا ما كان، بمقاصدهم وحاجاتهم ومطالبهم؟! الحقيقة أنه لا علاقة بينهما، فوجهة الطير أو الصيد تحددها غريزته، أما وجهة الإنسان، فيوجهها جهله،وغفلته، بعد أن سرّح عقله، وأقاله! ! .

في الأخير يمكننا القول، بأن البعد الفكري للإيمان، يتجلى من خلال تلك الأحاديث الثلاثة، التي سبق ذكرها؛ حيث نجد أن الشارع يجعل الكهانة والعرافة والطيرة، أمورا كلها معطلة للعقل، وتثبطه عن أداء مهامه ويجعلها إمّا مستلزمة للبراءة من الوحي، أو لإتباع الشيطان، أو لاضطراب علاقة العبد بربه، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن تحكيم العقل، وتفعيله، يؤدّي إلى الابتعاد، عن كل ما من شأنه أن يفسـد العلاقة بين العبد وربه هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تحريم تلك الأمور، وربط اقترافها بالعقاب، إنما هو حراسة للعقل، وحفاظ عليه من كل ما قد يفسده.

وإضـافة إلى كل ما سبق يمكن أن نشير إلى أن الإيمان لا يحرص على حماية العقل من المعنويات الـتي تفسده وحسب، بل قد حفظه وصانه حتى مما يفسده من ماديات، ومن ذلك أنه حرم عليه شرب

---

[3] : المرجع نفسه. ص: 227/14.

[4] سنن البيهقي الكبرى لـ: البيهقي. ص: 139/8.

[1] : المرجع نفسه. ص: 139/8.

[2] : السوائح ما مر من الصيد من المياسر إلى الميامن.

[3] : التمهيد لـ: ابن عبد البرّ.

الخمر، أو تعاطي كل ما من شأنه أن يذهب بعقله كالمخدرات أو غيرها.قال تعالى : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ [المائدة : 90].تلاحظ كيف أنه تعالى قد جعل الخمر، التي تذهب بالعقل من عمل الشيطان، وبمفهوم المخالفة يمكننا القول بأن اجتـنابها من عمل الإيمان، ذلك الإيمان الذي لا يقوم إلا على العقل، إذ بدونه يرفع التكليف بالإيمان،أو بمقتضياته على العباد.

المطلب الثالث
العلم يهدي إلى الإيمان

عرفنا من خلال ما سبق ذكره، أنّ الإيمان خير حاضن للعلم، وخير حافظ له، وخير داعية إليه، وهذا واضح وجلي من خلال آيات الذكر الحكيم، حيث نلاحظ أن الله تعالى، يعطف الإيمان على العلم، إشارة إلى العلاقة الوطيدة التي بينهما، فقال :﴿ وقال الدين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ [الروم : 51]، وتارة يعطف أهل العلم على أهل الإيمان[1]، فيقول تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والدين أوتوا العلم درجات ﴾ [المادلة: 11]، وتارة ثالثة يطلق لفظ العلم "مرار كمصطلح على الدّين نفسه، الذي علمه الله أنبياءه عليهم السلام"[2]، ومن دلك قوله تعالى: ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين ﴾ [البقرة: 145]. وتارة أخرى نجده تعالى، يأمر بالقراءة باسمه، "فكانت قراءة مؤمنة، وبتعبير آخر، علم في حضانة الإيمان"[3] حيث قال تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: 01]، وغير هذا كثير مما ذكر في بيان مكانة العقل والعلم، وهنا لنا أن نتساءل عن سبب إحاطة الإيمان، العقل والعلم، بكل هذه الرعاية الخاصة، والعناية المتميزة، ففيما يكمن يا ترى؟. يمكننا الإجابة عن هذا السؤال، استنادا إلى القرآن الكريم، فقد بّينه بوضوح، نظريا وعمليا

أولا : بيان لمكانية هداية العلم إلى الايان نظريا من خلال القرآن الكريم :

إن سـبب إحاطة الإيمان العلم، برعايته، يعود إلى أن العلم موجب للهداية إليه غنى أنه العلم-" صالح للاهتداء مقتض له، وقد يتخلف عنه مقتضاه الذي هو الاهتداء لقصوره، أو فوات شرط كصدق التوجه إلى الطالب أو قيام مانع"[4]، وتتضح هده المسألة أكثر من خلال قوله تعالى :﴿ لكن الراسخون

---

(1) : أنظر العقل والعلم في القرآن الكريم لـ: القرضاوي. ص: 95.
(2) : مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم. عماد الدين خليل، (مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان،ط:1405هـ-1985م).ص: 97.
(3) : العقل والعلم في القرآن لـ: القرضاوي.ص:95.
(4) :مفتاح دار السعادة لابن القيم..179/1.

في العـلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ [النساء: 162] فالراسخون في العـلم، "هـم الّذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التّام، العام ﴿ بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾، وأثمر لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة وإتاء الزكاة"(1).(1)

- ﴿شـهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ [آل عمران: 18]، فهؤلاء العلماء يشهدون بما لديهم م علم على أنه لا اله إلا الله.
- ﴿ألم تـرى أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانه ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانا وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، [قاطر: 28-29]، فهذه الصفحات التي قلبها تعالى في هذا الكتاب الكوني-، هي بعض صفحاته، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويشعرون حقيقة عظمته، برؤية حقيقة الداعية، ومن ثم يخشونه حقا، ويتقونه حقا، ويعبدونه حقا... انهم يعبدونه لمعرفة العلم المباشر"2(2)
- ﴿وتـرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ [سبأ: 6]؛ "فأهل العلم يـرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من أخبار هو الحق، أي الحق منحصر فـيه، ومـا خالفه وناقضه فهو باطل، لأنهم وصلوا من العلم الى درجة اليقين"3(3)، وهذا م يقرّه الواقع، ويثبت صحته، فكم من عالم، معترف له بعلمه، يصل إلى حقيقة أن ما أنزل على سيدنا محمد ﷺ هـو الحق، ويصل قبلها إلى حقيقة أن لا اله لهذا الكون، إلا الله الواحد الأحد، تماما كما قررته الآيـة الثامنة عشرة من سورة آل عمران. ولنا أن نذكر بعضا من أولئك الذين توصلوا بعلمهم إلى إدراك تلك الحقائق :

- قـال هيرشـل4(1) : "فكلما تسع نطاق العلم، ازدادت البراهين الدافعة، القوية على وجود خـالق أزلي، لا حـد لقدرتـه ولا نهايـة، فالجيولوجيون و الفلكيون والرياضيون، قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمه الله وحده"5(2).

---

(1) تيسير الكريم الرحمان للسعدي- ص:214
(2) في ضلال القرآن لسيد قطب.5/ 2943.
(3) تيسير الكريم الرحمان للسعدي.ص:675

(1)هيرشل: عالم فلكي إنجليزي.
ء(2) طريق الإيمان ل: عبد المجيد عزيز الزنداني.[مطبعة ماليزيا،دط، دت].ص:35.

- يقـول فرانك ألن1[1] : « أنّه لابد لأصل الكون من خالق أولي، ليس له بداية عليم، محيط، بكل شيء، قوي، ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه2 ».
- يقـول كارو3 : " إذا أرجعنا وتوغلنا، في الرجوع الى الماضي، معاينين ومدققين للحلقات، الـتي تتشكل منها سلسلة الحادثات الميكانييكية، نرى دائما فرار أصل هذه الحادثات من أملنا وانسحابه إلى الوراء، فنحن نجد في كل موضع آثار القوة، ولا نجد القوة نفسها"4،

وهـذا يعني أن العلم التجريبي يعترف بوجود قوة، مسؤولة عن إحداث تلك الآثار، وهو عاجز على إخضاعها لتجربته.

ويقـول آخر[1] : « إذا أحسست في حين من الأحيان، أن عقيدتي بالله قد تزعزعت وجهت وجهـي إلى أكاديمـية العلوم لتثبيتها»[2]، ذلك لأن تلك الأكاديمية، تعنى ببيان مظاهر الدقة والإتقان اللامتناهي والتنظيم والتقدير المعجز لكل ما في هذا الكون؛ تلك المظاهر التي تؤكد عظمة القوة، التي أبدعتها ونظمتها، والتي يتزايد الإيمان با واليقين بوجودها، كلما ازداد العبد معرفة لكمال صفاتا.

وبعـد هـذه الشـهادات الحية، يتبين لنا بوضوح، كيف «اجتمع العلم والأيمان، وتعانق العقل والضـمير، في عقدة تستعصي على الفك، واندمجا في وحدة عضوية، نامية، متطورة، تذب الإنسان وتقـرّبه من الرّحمان الرّحيم ﴿ وَيَرَى الذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبكَ هُوَ الْحَق﴾ [سبأ: 06] »[3]، كمـا تبين لنا بوضوح أن لا عجب قي أن يكون الإيمان حاضنا للعلم، وخير داعية إليه، لأنه صار من الواضح، أن العلم طريق معبد للوصول إلى الإيمان، كما أن العلاقة بينهما، تكاد تكون علاقة انعكاسية،إذ أن كل عالم سائر في طريق الإيمان، وكل مؤمن سائر في سبيل العلم.

ثانيـا: بيان إمكانية هداية العلم للإيمان تطبيقيا من خلال القرآن الكريم :

: مدخل إلى موقف القرآن من العلم ل: عماد الدين.ص،72، نقلا عن، الله يتجلى في عصر العلم:ص:،10
موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ل: مصطفى صبري.[دار
(1) إحياء التراث العربي، بيروت- لبان، د ط، دت،.ص:290/2.
(2) : طريق الإيمان للزنداني.ص،36
(3) : مدخل إلى موقف القرآن من العلم لعماد الدين.ص:74

[1] : هو العالم ووتر.

[2] :طريق الإيمان : لـ : الزنداني. ص : 36.

[3] : الإيمان والتقدم العلمي لـ : هاني رزق وخالص جبلي. (دار الفكر المعاصر: بيروت- لبنان، دار الفكر: دمشق- سوريا، ط:1: 1421 هـ - 2000م). ص: 233، 234.

صـار مـن القائم في العقول الآن أن القرآن الكريم قد عمل على توسعة مدارك العقل، بالدعوة المتكررة الى طلب العلم، واكتساح مختلف مجالاته لأن نمو العقل واكتماله وثرائه، لن يؤدي إلا إلى مزيد مـن القـناعة، والإيمـان واليقين[1]، ولهذا كثيرا ما تحدى القرآن الكريم، الكافرين، بالبراهين العقلية، المختلفة، التي كانت تبهتهم، وتكبتهم، وتجعلهم يتقلبوا الى أنفسهم خاسئين. كما نجده أيضا، يطالبهم، بكل قوة وثقة : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: 111]، ﴿ أم اتخذوا من دون الله آلهة، قل هاتوا برهانكم﴾ [الأنبياء: 24]، ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجونا لنا أن تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون ﴾ [الأنعام: 148].

كمـا أن تقدمنا الحثيث في العلوم، يقربنا من الاعتراف بجهالتنا، والإقرار ا بأن مثل ما نعلمه من الكـون، في جانب ما نجهلهمنه، كمثل قطرة واحدة، من محيط خضم عميق، ذلك أن كل باب جديد يفـتحه العـلم[2]، إنما هو دليل من دلائل عظمة هـ 148 لذي لطالما عمل القرآن الكريم على بيانه وإبـرازه ، ونشـر صفحاته للعالمين، ليجعله" المنطلق للوصول إلى الإيمان بالله، والى سائر حقائق عالم الغيب، ليكون الانتقال من الحسي القريب ، الى الـرد البعيد"[3]، وعليه فان القرآن الكريم، لم ينكر هذا الكون، بمختلف ظواهره الكونية،لاكتشافها والوقوف عندها وحسب، بل ذكرها أيضا، على أساس أنها "مرتـبطة بقـدرة مدبـرة وقوة مسيرة لهذا الكون، فهي إذن دعوة عملية للإيمان من منطلق أن كل ما نشـاهده في هـذا الكون، خاضع للنظام الدقيق، والعناية الفائقة، ولرحمة الله بعباده"[4] وصدق من قال" وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[5].

ولبـيان هـذا كلـه، سأعرض بعضا من البراهين العقلية، وكذا الكونية، التي وردت في القرآن الكـريم، والتي تبين ضمنا مدى حاجة الإيمان للعقل والعلم، ليكونا، سبيلا الى الوصول إليه، أو ليكونا سبيلا الى تثبيته، والسمو به الى درجة اليقين، ولنبدأ ب :

أ/البراهين العقلية : ونذكر من بين ما ورد منها في الكتاب العزيز :

---

(1) : الإسلام والوعي الحضاري لـ: أكرم ضياء. (دار المنارة: جدة، السعودية، ط: 1987). ص: 19.

(2) الدين:بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ل: محمد عبد الله دزاز.[دار القلم: الكويت،ط:2041ه-1982م ص:88.

(3) الإسلام والفكر العلمي:محمد مبارك.[دار الفكر:بيروت،ط:2:1400ه-1980م].ص،116.

(4) الإنسان في الكون بين القرآن والعلم: عبد العليم عبد الرحمان خضر.[عالم المعرفة: جدة- السعودية،ط،1 : 1403ه،83]ص:174

(5) مفتاح دار العادة لابن قيم.ص: 402.

الدليل الذي استنتجه العلماء من قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: 22]، ومعنى آخـر: أن كل شيء يريد ممن ينسب أيليه اثباته، يريد الآخر نفيه، وما يريد أحدهما إيجاده، يريد الآخر اعدامه، وكذلك في الإبقاء والافناء، وفي ذلك تناقض وتناف، فدل الوجود على أن محدث العالم واحد"[1].

ب/ضـرب الأمثال : ففهم الأمثال يحتاج الى ذكاء وحدة في الفهم، ولذلك قال تعالى:(وتلك الأمثال نضـربا للناس وما يعقلها إلا العالمون) أي لا يعقل حسنها وفائدتا إلا العالمون، الذين يتدبرون الأشياء عـلى مـا ينبغي"[2] ولهذا قال بعض السلف الصالح: إذا سمعت المثل في القرآن، فلم أفهمه بكيت على نفسـي لأن لله تعالى قال : ﴿وتلك الأمثال نضربا للناس وما يعقلها إلاّ العالمون﴾"([3] [العنكبوت: 43].

وفي الـبرهان بضرب الأمثال،" زيادة فهم، وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأن المعني العقلية المحضة، لا يقبلها الحس والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يساويها م المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة، وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول الى المطلوب"[4].

ج/ السـير المنحصـر: يتجلى من خلال قوله تعالى :﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذا لذهب كل ا اله بما خلق ولعل ا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ [المؤمنون: 91]؛ فهذه الآية الكريمة تعرض ثلاثة أمور هي :

- «إمّا أن يذهب كل اله بخلقه وسلطانه.
- إمّا أن يعلو بعضهم على بعض
- وإمّـا أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله»[5].

والأمر الأوّل باطل، لأنّ الإله يتصف بكلّ صفات الكمال، ويتـ ّه عن كلّ النقص، وذهاب الإله بخلقه وسلطانه، وعدم قدرته على فرض سيطرته على غيره نقص يتـ ه عنه الإله.

---

[1] التوحيد: لابن منصور الماتردي.[تح: فتح الله خليف، دار المشرق: بيروت- لبنان،ط 2، ص:20 .
[2] تفسيرا لبيضاوي.317/4. نقلا عن قرص: مكتبة التفسير
[3] تفسير القرآن العظيم لابن كثير.66/1.
[4] مفاتيح الغيب للرازي.121/19،120
[5] القرآن والنظر العقلي ل: فاطمة إسماعيل.ص:171.

كما أنّ الأمر الثاني باطل، لأن الإله لا يزاحم في مكانته، ولا يعلى عليه، بل يكون هو الأعلى، وهو القاهر، وعيره مقهورين له.

وعلـيه لا يـبقى إلا الأمـر الأخير، الذي يعطي لإله كافة صفات الكمال من قهر المخلوقين والتصرف فيهم، بما يشاء وكيف يشاء ومتى شاء، بلا شريك أو متنازع، وهذا هو الصواب.

كانت هذه بعض إشارات قرآنية، تحتاج الى نظر العقل فيها، ولو لم يكن العقل محرر من كل القيود، لما استطاع فهمها، ولا الاعتراف با، أو الاستفادة منها، والوصول من خلالها الى الحق.

2=الـبراهين الكونية : ونقصد با الآيات الكونية، الّتي أشار إليها القرآن الكريم ودعا الى التفكر فيها، وإسـتكناه حقيقتها، حيث قال تعالى :﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [يونس: 101]. وهي دعوة مطلقة للسياحة في كافة أرجاء هذا الكون والنظر فيه، لاكتشاف خباياه، وغجائبه، وعظمته، الـتي تـدل على عظمة الله تعالى المطلقة . وقد تعهد الله عز وجل بكشف تلك الآيات لعباده، بشكل مستمر، الى أن يرث الأرض وما عليها، حيث قال – عزّ من قائل :﴿ سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسـهم حـتى يتـبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: 53]، والمقصود بآيات الأفاق على الأرجح : الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات حقيقة 2 الليل والنهار، وآيات الأضواء والإضلال والظلمات1[1]... الخ، أي الآيات الكونية، والمقصود بآيات الأنفس، الآيات الكامنة في النفس.

أما قوله تعالى، ﴿سنريهم﴾ بصيغة الاستقبال، فهي تشير الى أكثر من حقيقة2[2]

أ=أنّ إرادة الله تعـالى لغباده، آياته في الأفاق وفي أنفسهم، سنة مضطردةفي كل جيل، فكل جيل، يخلقه إلا ويريه آياته في الآفاق والأنفس

ب=أنّ إرادة الله تعـالى آياته لعباده، في الأفاق وفي أنفسهم، هي عملية مستمرة، فلا يكاد يرى آية إلا وهو على موعد مع رؤية آية أخرى.

ج=أن الله تعـالى يري الناس آيات جديدة ، في آيات معروفة، فالشمس مثلا- آية معروفة، لكن بمرور الزمن، اكتشفت فيها آيات أخرى، ولا تزال تكتشف، وكذلك الأرض والبحار والسموات....الخ.

ومهمـة اكتشاف هذه الآيات، يتولى القيام با، العلم، فهو المسؤول عن إماطة اللثام عن أسرار هذا الكون، وإعطاء حقلئق علمية ثابتة عنه، وقد حصل وان اكتشف العلم الحديث الكثير، الكثير، من الحقـائق العلمية القطعية، عن كثير من الظواهر الكونية،التي أشار إليها القرآن الكريم، وقد توافقت معه،

---

[1] : أنظر مفاتيح الغيب للرازي.120/27.

[2] أنظر دلائل التوحيد للقاسمي.ص:156-157.

توافقــا كلــيا،مما يجعل العاقل بأن " ورود هذه الحقائق الضخمة، والدقيقة في نفس الوقت، على لسان رجــل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم، دليل على أنه تلقاها ممن يعلم السر في السموات والأرض، ﴿قل أنزله الّذي يعلم السر في السّماوات والأرض إّنه كان غفورا رحيما﴾ [الفرقان: 06][1]" وهكذا يكون في هذا الإعجاز العلمي، «تأكيد على أن خالق الأكوان هو م ل القرأن، وتأكيد- أيضا- موصول، على أن العلم في خدمة الإيمان وأن العلماءء، هم أولى الناس بخشية الله تعالى2[2]»، هذا من ناحية، ومن ناحية أخــرى، يعد عامل جذب ودعوة لغير المسلمين إلى الإسلام، ويفيد إغلاق أبواب الإلحاد غندهم، وعند مــن يجاريهم من ناشئة الشرقيين ومستغربي الفكر والثقافة، حيث أن تأثيره على العقول، أعظم أثرا من ســائر الــبراهين"3[3]. وهــذه بعض النماذج التي أثبت فيها العلم دقة القرآن الكريم، ومدى اعجازه، وبالتالي أكد من خلالها لكل ذي لب أنه الحق الذي أنوله الحق تعالى.

أ- الجبال في القرآن : يقول الله تعالى متحدثا عن الجبال في كتابه العزيز :

- ...﴿ والجبال أوتادا﴾ [النبأ : 07].
- ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءا فراتا﴾ [المرسلات: 27].
- ﴿خلق السموات والأرض بغير عمد ترونـا وألقى في ارض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كــل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾ [لقمان : 10-11].

نلاحظ أن هذه الآيات الكريمة، قد أبرزت دور الجبال ووظيفتها من خلال ثلاث كلمات هي : أوتــادا، الرواســي، أن تمــيد9[1]؛ إذن «فدور الجبال يبرز في ترسية الأرض، وتثبيتها من الميدان، وهو الاضــطراب، عهــي كالأوتاد، التي تمسك الخيمة من الاضطراب والسقوط، ويفسر العلم الحديث هذا الدور، فيقول، نحري الحقيقة العلمية القاطعة، أن توزع الجبال على الكرة الأرضية، انما قصد بـا، حفظها من أن تميد الى الشمس أو تحيد عنها، وأنـا فعلا هي السبب الأول والرئيسي لحفظ توازن الأرض، فكأن الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانـا، وتحفظ عليها حركتها»[2].

---

[1] : مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم.[دار لمنارة:جدة- السعودية،ط:1408،1ه-1988م.]ص:150.
[2] من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: زغلول النجار-[مكتبة الشروق الدولية ومكتبة السرة: مصر،ط: 2002].7/1.
[3] المرجع نفسه:8/1.
[1] انظر مباحث في إعجاز القرآن ل: مصطفى مسلم.ص:80 نقلا عن" من الآيات العلمية" لعبد الرواق نوفل.ص،56-57
[2] المرجع نفسه.ص:181.

ب-مواقع النّجوم في القرآن : وانظر إلى قول الله تعالى : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: 75-76].

«هنا نجد عمقا في هذا القسم لم يدركه السابقون، فلماذا أقسم ربنا تبارك وتعالى بمواقع النجوم، ولم يقسـم بالـنجوم ذاتها على عظم شأنها؟ الجواب الذي أدركه العلماء منذ سنوات قليلة للغاية، أن الإنسـان من فوق سطح الأرض، لايمكن له أن يرى النجوم على الإطلاق، ولكنه يرى مواقع مرت با الـنجوم»3[3] ويضيف العل قائلا : «إنّ أقرب نجم إلينا بعد الشمس- التي لا نرى إلا مواقع ضوئها هي أيضـا- يـبعد عنا بـ:4.3 سنة ضوئية، وإذا انبثق منه الضوء، فانه يصلنا بعد خمسين شهرا- أي بعد سنوات. يكون النجم خلالها قد تحرك من مكانه لمسافات شاسعة»4[4]، ليس هذا وحسب، بل أن هناك نجومـا «مازالت تتراءى لنا مواقعها في صفحة السماء،في ظلمة الليل، وأثبت العلم أنها قد انفجرت منذ آلاف السـنين ولا وجود لها الآن، وهذا من رحمة الله تعالى بنا، لأن الإنسان لو نظر الى النجم مباشرة لفقد بصره» [1]، فسبحان الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

كانـت هذه إشارات بسيطة وسريعة، تشير الى سرّ عناية القرآن الكريم والسّنة الشّريفة بالعقل والعلم، في كون العلم، يعمل على جعل القرآن الكريم معجزة دائمة التجدّد، ومتواصلة التّوهج، يسري نورها، في كافة أوصال البشرية الى أن تفنى، من خلال ما يكتشفه من كنوز دفينة مخبّأة بأمان بين دفتي المصحف الشّريف، وصدق أهل الحق والعلم حين قالوا : «إنّ القرآن الكريم كـ لا ينفذ، وإنّ كلّ عصر يأخذ حظّه من حقائقه الخفّية، الّتي هي من قبل التّتمات، مع التّسليم بنصوص القرآن ومحكماته، من دون أن يـتعّرض أو يمس ما خفي من الحقائق من حظ أهل العصور الأخرى».[1]، وهكذا يكون بحقّ العلم خير مطّية للوصول إلى الإيمان، ويكون الإيمان خير راعية للعلم.

---

[3] من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للنجار.ص.39.

[4] المرجع نفسه.

(1) المرجع نفسه

(1) : المكتوبات للنورسي. ص:501،نقلا عن قرص، رسائل النور

الفصل الثالث :

البعدان:
الاجتماعي والأخلاقي للإيمان

المبحث الأول : البعـــد الاجتماعي للإيمان

المبحث الثاني : البعد الأخلاقي للإيمان

لاحظنا مما سبق، تجليات الإيمان بالله تعالى : على الفرد المؤمن، نفسه وروحه وفكره، والآن من هذا المبحث، سأحاول –بإذن الله- بيان تجلّيات على ا لتمع.

مـن المعروف أنّ الإنسان يعتبر كائنا اجتماعيا بطبعه، وهذا يعني أنّ لا يمكنه بحال من الأحوال، أن ينعزل عن بني جنسه، أو أن يعيش فريدا، وحيدا في هذه الحياة، فلا يتعامل مع أحد، ولا أحد يتعامل معـه، ذلـك لأنّه وإن كان قادرا على تلبية حاجات بدنه، من مأكل ومشرب، وملبس – كما صوّرت ذلـك بعض القصص الخيالية -، فإنّه أبدا لن يستطيع تلبية حاجات نفسه، من سكن نفسي، واطمئنان روحي، ممّا لا يمكن أن يتحقّق له إلاّ باجتماعه مع غيره، وعليه فإنّه باعتبار أنّ ا لتمع هو الوحيد القادر على تلبية تلك الحاجات، فإنّه يتبوّأ مكانة بالغة الأهمّية في حياة الفرد، فإضافة إلى ما ذكرنا، يعدّ ا لتمع الحاضن الثاني للفرد بعد أسرته، يترعرع بين حنباته، ويتشرّب أخلاقه وسلوكاته، ويتعايش مع أفراده.

والآن، بعدما أدركنا أهمّية ا لتمع بالنسبة للفرد، لنا أن نتساءل، بعدما لاحظنا أنّ للإيمان تأثيرات بيّنه على الفرد، فهل له تأثيرات على ا لتمع أيضا ؟

هل أحاط الله تعالى ا لتمع بالرّعاية والعناية، بحيث يكون الإيمان به سبيلا للوصول إليها ؟

- ماذا يحدث الإيمان بالله تعالى في ا لتمع ؟
- ماذا يقدّم الإيمان بالله تعالى للمجتمع ؟

إنّ مجـرّد إلقاء نظرة على ا لتمعات التي يؤمن أفرادها بالله الواحد، الأحد، وعلى ا لتمعات غير المؤمـنة، يجعلـنا نلاحظ وبجلاء، الفارق الواضح بينها، إذ تقلّ المشاكل الإجتماعي في الأولى، وتتفاقم تفاقما مخيفا في الثانية، وما ذلك إلاّ لأنّ ا لتمعات المؤمنة، قد أنار الإيمان بالله تعالى دربا، وحفظها من كـلّ شـرّ، وأرشـدها إلى كلّ خير، إنّها مجتمعات تسير بهدى ربّاني، تولّى الله تعالى تنظيمها، وتدبير شـؤونا، فصارت –بعد أن لم تكن – أمّة توحّدت واجتمعت على كلمة الله، وتحابّت وتوادّت لأجل الله، وتعاونت وتكافلت لوجه الله، لقد صارت بحقّ خير أمّة أخرجت للعالمين، قال تعالى:﴿كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران:].

أمّا عن إشراقات الإيمان على المجتمع، فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

1= الإيمان يشيّد المجتمع، تحت رعاية وتدبير الله تعالى.

2= الإيمان يزرع المحبّة في كافة أوساط المجتمع، ويبني المجتمع المتحابّ.

3= الإيمان يقيم المجتمع المتعاون المتكافل.

وكلّ إشراقة من هذه الإشراقات، سأحاول بيانها من خلال مطلب خاص، ولنبدأ بالمطلب الأوّل.

المطلب الأول

الإيمان يشيّد المجتمع الرّباني

أوّل مزيّة، يخصّ بها الإيمان بالله تعالى، المجتمع المؤمن، ويضفيها عليه، هي تحويله إلى مجتمع ربّاني، يسير في ظل الرعاية الرّبانية، والعناية الإلهية، ذلك أنّ الله -عزّ وجلّ- بجلاله وعزّته، يتولى توجيه أمور هذا المجتمع وتدبير شؤونه، فإرادته تعالى التي جاءت بعباده "إلى هذا العالم، وخطّت لهم طريق الحياة فيه، ومنحتهم القدرة على التّعامل معه، لهي وحدها التي تملك لهم كلّ شيء، وهي وحدها التي تعرف عنهم كلّ شيء، وهي وحدها الّتي تدّبر أمرهم خير تدبير، وإنّها وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لهم منهج حياتهم وأن تشرّع لهم أنظمتهم وقوانينهم، وأن تضع لهم قيمهم وموازينهم"[1]، وهذه الحقيقة يتبنّاها المؤمن، من خلال إيمانه بالله وبربوبيّته، حقّ الإيمان، فهو يردّدها في اليوم سبع عشرة مرّة -كأدنى حدّ- من خلال تلاوة قوله تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلهِ رَب الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: 02]، وكما هو معلوم، "الرّبّ هو المالك المتصرّف، ويطلق في اللّغة على السّيد، وعلى المتصرّف للإصلاح والتّربية،...والإصلاح والتّربية يشمل العالمين –أي جميع الخلائق- والله سبحانه، لم يخلق الكون، ثمّ يتركه هملا، إنّما هو يتصرّف فيه بالإصلاح، ويرعاه ويربّيه"[2].

إذن إيمان المؤمن بالرّبوبية، "يقتضي بالضرورة إفراد الله سبحانه وتعالى بالتّشريع، والتّدبير والتّنظيم في حياة البشر الفردية، والاجتماعية، وهذا يعني رفض أيّ نظام جاهلي، وضرورة الاقتصار على النّظام الاجتماعي الإسلامي، وموحّد الرّبوبية، هو من يرفض أن يتعامل مع

[1] في ظلال القرآن . لـ: سيّد قطب.ص: 573/1-574.

[2] المرجع نفسه. ص: 22/1.

النّاس بغير التّشريع الإلهي"[3]، هذا الأخير الذي عمل تنشئة الجماعة المؤمنة، تنشئة خاصة، ومميّزة، حيث نجد أنّ القرآن الكريم، يشكل "بسورة المكّية والمدنية، كلاّ متكاملا، في بدايته إرساء قواعد العقيدة، ويتدّرج منها، وعلى أساسها، إلى تحديد الإطار الّذي على الإنسان أن يلتزم به، في علاقته بنفسه وبالآخرين، ومن خلال تنظيم محكم، ودقيق، لحياة الإنسان في جماعته"[1]، وقد بلغت دقّة هذا

[1] أثر الإيمان في تحصين الأمّة الإسلامية ضدّ الأفكار الهدّامة لـ: عبد الله بن عبد الرّحمان الجربوع. (مكتبة أضواء السّلف: الرّياض ـ المملكة العربية السعوديّة، ط: 1: 1420هـ-2000م). ص: 468.

التّنظيم، مبلغا عظيما، إذ لم يهمل آية شاردة أو واردة –لها صلة بالمجتمع، إلاّ وضحها وأبانها، فإذا كان المجتمع عبارة عن مجموعة من الأسر، الّتي تربط بينها علاقات مختلفة ومشتركة، فإنّنا نجد أنّ الله تعالى، قد أرسى نظاما خاصّا بالأسرة، باعتبارها الخلية الأساسية في تكوين المجتمع، فبيّن كلّ ما يتعلّق بها من مسائل الزّواج والطّلاق، الرّضاع، الميراث،...الخ، كما أبان العلاقات الرّابطة بين أفرادها، وما تضمّنته من واجبات وحقوق، كما أرسى النّظام الإجتماعي على أسس صلبة، رصينة، كالتّوحد، التّكافل، التّوادد، التّراحم، ...الخ، وبيّن حقيقة العلاقات الرّابطة بين أفراد المجتمع، وكذا الرّابطة بين مختلف فئاته، كعلاقة الجوار، صلة الأرحام، كفالة اليتيم، عيادة المريض، ...الخ.

أمّا ما سأتناول بيانه – بإذن الله تعالى – فهو أصول هذا النّظام، أو بتعبير آخر، بيان هيكله[2]، ليكون دليلا على سير هذا المجتمع وفق تسيير ربّاني، يؤجر من أقامه، ويأثم من هدمه.

ويمكننا معرفة هيكل المجتمع من خلال تعريفه، حيث يعرّف على أنّه مجموعة من الأسر، التي تربط بينها علاقات مشتركة، أو هو مجموعة الأفراد، الذين تربط بينهم علاقات مشتركة[3]، وعليه فإنّ هيكله يتكوّن من :

1= الأسرة.
2= العلاقات الرّابطة بين أفرادها.
3= العلاقات الاجتماعية.

1= الأسرة :

توالت آيات القرآن الكريم، وتتابعت تترى، تقيم نظام الأسرة على أسس متينة، تحيط الأسرة بكلّ مظاهر العناية والإهتمام، وتبعدها عن كلّ المخاطر، وتحفظها من كلّ المفاسد، وترشدها إلى كلّ المصالح. ولعلّ من أهمّ مظاهر تلك العناية الإلهية نذكر :

أ= ذكــر الله تعالى، الرّابطة الأسرية، إلى جانب رابطة الرّبوبية في قوله تعالى:﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّــذي خلقكــم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء واتّقوا الله الّذي تسّــاءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبا﴾ [النّساء: 1] وفي هذا الذّكر، ما فيه من التّنويه بقدر هــذه الرّابطة وأهمّيتها في الحياة، فقد كان بإمكانه تعالى، أن يقتصر على ذكر رابطة الرّبوبية، كوشيجة قويّــة بين النّاس، ولكنّه –سبحانه- شاء لأمر يعلمه، ولحكمة يقصدها، أن يضاعف الوشائج، فيبدأ...

---

(2) لأنّ النّظام الإجتماعي الإسلامي، برمّته، يقتضي شرحا مطوّلا، أظنّ أنّنا لسنا في حاجة إليه
(3) أنظر الإيمان والحياة للقرضاوي. ص 201.

مـن وشـيجة الرّبوبية، -وهي أصل وأول الوشائج- ثمّ يثّني بوشيجة الرّحم، فتقوم الأسرة الأولى، من ذكـر وأنثى،...، ومن هذه الأسرة الأولى، يبثّ رجالا كثيرا ونساء، كلّهم يرجعون ابتداء إلى وشيجة الرّبوبـية، ثمّ يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة، التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني، بعد قيامه على أساس العقيدة"[1].

ب= إقامـة الأسرة على أساس يحفظ للإنسان، كرامته وسيادته، التي ميّزه الله تعالى بها، والتي يشهد لها قولـه تعالى:﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثير ممّـن خلقنا تفضيلا﴾ [الإسراء: 70]، وقد تمثّل هذا الأساس في الزّواج وهو النّظام الذي جعل اتّصال الـرّجل بالمـرأة اتّصالا كريما، مبنيا على رضاها، وعلى إيجاب وقبول، وإشهاد على أنّ كلاّ منهما قد أصبح للآخر[2]، وقد دعا إليه سبحانه وتعالى، في قوله:﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ..﴾ [النساء: 3].
كمـا بـيّن عز وجلّ، الغاية من هذا الزواج، فقال عزّ من قائل:﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواج لتسـكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾ [الروم: 21]، فيد الله تعـالى، "جعلـت في تلك الصّلة سكنا للنّفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرار للحياة والمعاش، وأنسا للأرواح والضّمائر،
واطمئنانا للرّجل والمرأة على السّواء"[1]، وكلّ هذه مطلوبة لكلا الزوجين، حتّى يتمكنا من تكوين أسرة مستقرّة، مطمئّنة، ومن إعداد نشئ متّزن، كريم الخلق، لا يعاني من الاضطرابات.

لم يكتف التّشريع الإلهي، بالدّعوة إليه، وبيان الحكمة منه، بل رغّب العباد فيه، إمعانا في صيانة الأسرة وأفرادها، وذلك من خلال ما يأتي :

- كـون الـزّواج من سنن النّبيين،س الّذين هم صفوة الله من خلقه، ونحن لهم مقتدون، حيث يقـول تعـالى:﴿ ولقـد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرّية﴾ [الرعد: 38][2]، بالإضافة إلى قوله ﷺ : ((أربع من سنن المرسلين: الحياء، التّعطّر، السّواك، النّكاح))[3].

---

(1) في ظلال القرآن لسيّد قطب. 574/1-575.
(2) العلاقات الأسرية في الإسلام لـ: محمّد عبد السّلام محمّد. (مكتبة الفلاح: الكويت، ط. 1: 1401هـ – 1981 م). ص: 41.
(1) في ظلال القرآن لسيّد قطب.2763/5.
(2) العلاقات الأسرية لمحمد عبد السلام. ص، 45.
(3) أخرجه أحمد في مسنده رقم: 23628. ص: 421/5، وأخرجه الخراساني في سننه. رقم: 503. ص: 167.

- كـون الزّواج عبادة يتقرّب با الله تعالى، حيث يقولﷺ : ((من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليّتق الله في الشّطر الباقي))[4].
- كـون خير متاع الدّنيا، المرأة الصّالحة، حيث قالﷺ: ((الدّنيا متاع وخير متاعها المرأة الصّالحة))[5].
- وعد الله تعالى من يقبل عليه الزّواج بسعة الرّزق[6]، يشهد لهذا قله تعالى:﴿ وأنكحـوا الأيامى منكم والصّالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ [النور: 32].

وقد روي عن أبي بكر الصّديق –رضي الله عنه – أنّه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به، من النّكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى،..وعن ابن مسعود التمسوا الكنى في النّكاح[1].

والآن اتّضح لنا من هذا التّشريع الحكيم، كيف أنّ الزّواج، هو البذرة الأولى، التي تتفرّع عنها الطّيبة، وكيف يحيط كلا الزّوجين، وأولادها، معها أيضا، بسياج الأمن والإستقرار، ويغمرهم جميعا بفيض من المحبّة والمودّة والرّحمة.

ج= من بين مظاهر العناية الإلهية بالأسرة، ما نلاحظه من تتّبع آيات الذّكر الحكيم، أنّه عند إيراد أحكام نظـام الأسرة، لا تذكر مجرّدة، بل إنّها تجيء في جوّ يشعر القلب البشري، أنّه يواجه قاعدة كبرى من قواعـد المنهج الإلهي للحياة البشرية، وأصلا كبيرا من أصول العقيدة، التي ينبثق منها النّظام الإسلامي، وأنّ هذا الأصل موصولا بالله سبحانه مباشرة، موصولا بإرادته وحكمته،...، ومنهجه لإقامة للحياة على الـنّحو الذي قدّره، وأرواه لبني الإنسان، ومن ثمّ هو موصولا بغضبه ورضاه، وعقابه وثوابه، وموصولا بالعقـيدة وجـودا في حقيق الحال[2]، ونذكر من بين تلك الآيات، التي تضمّنت أحكاما أسرية، والتي كانت موصولة بغضبه أو رضاه، وبالتّالي، موصولة بعقابه أو ثوابه:

- قو ـله تعـالى:﴿ إنّ الّذين يحّبون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدّنيا والآخـرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [النور: 19]، ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى غضبه

---

[4] أخرجه الحاكم في المستدرك. كتاب النّكاح، ربقم 2681، وقال: هذا حديث الإسناد ولم يخرّجاه، ص: 175/2 . وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط. (دار الحرمين القاهرة ـ مصر، ط: 1415)، رقم: 972. 294/1.
[5] أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الرضاع، باب: خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم: 1855.ص: 596/1. وأخرجه ابن حبان في صحيحه؛ كتاب: النكاح. باب: البيان بأنّ المرأة الصالحة، خير متاع الدنيا، رقم: 4031، ص: 340/9.
[6] العلاقات الأسرية لمحمد عبد السّلام ـ ص: 46.
[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير. 287/3-288.
[2] دستور الأسرة في ظلال القرآن: أحمد فائز. (مؤسسة الرسالة: ط: .: 1403هـ-1983م). ص: 52.

تعـالى من أولئك الذين "يختارون ظهور الكلام عن القبيح، لهم عذاب أليم في الدّنيا، أي بالحدّ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم،﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي فردّوا إليه الأمور ترشدوا[3].

- وفي قوـله تعالى:﴿ الرّجال قوّامون على النّساء، بما فضّل بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهـم فالصّـالحات قانـتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللّتي تخافون نشوزهنّ، فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ فإنّ أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا إنّ الله كان عليّا كبيرا﴾ [النّساء: 34]، إشارة للعقاب الذي سيوقعه، بمن بغى على النّساء سبيلا، وذلك من قوله:﴿ فإن أطعـنكم فـلا تبغوا عليهنّ سبيلا إنّ الله كان عليّا كبيرا﴾ ، فهو "تديد للرّجال إذا بغوا على النّساء من غير سبب، فإنّ الله العليّ الكبير، وليّهنّ وهو منتقم ممّن ظلمهنّ وبغى عليهنّ"[1].
- وقوله تعالى :﴿ والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ولا يحلّ لهنّ أنّ يكتمن ما خلق الله في أرحـامهنّ إن كـنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ [البقرة: 228]. يجعل الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، يقتضي

تربّص النّسـاء بأنفسـهنّ بعد الطّلاق، ثلاثة قروء، كما يقتضي، إقرارهن بما أرحـامهنّ، " فشرط هذا الإيمان ألاّ يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ...وذكر اليوم الآخر بصفة خاصّة له وزنه هنا. فهناك الجزاء...هناك العوض ممّا قد يفوت بالتّربّص، وهناك العقاب لو كتمن ما خلق الله في أرحامهنّ"[1].

والآن، بعـد التّعرف، على بعض مظاهر العناية الرّبانية، بالأسرة، تجدر بنا الإشارة، إلى أنّ تلك العـناية،لم تكـن عبثا –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – وإنّما كانت للوصول إلى تحقيق الهدف الهد العظـيم، ألا وهو : تسييد دين الله تعالى الذي ارتض لعباده، على الأرض، قال تعالى :﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]، فمن سلك طريقا سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين' إذن حفظ الله تعالى الأسرة، وأحاطها، بكافّة أسباب السّلامة والاستقرار، "ليشكل منها مجتمعا يقوم على أمانة دين الله في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في النّاس،...، ولا يتصوّر الإسلام قائما إلا في الوقت ذاته، بكل فرد فيها، هو: إقامة هذا المنهج الإلهـي، في الضّمير وفي العمل، مع إقامته في الأرض، وهو لا يقوم في الأرض إلاّ في مجتمع، ولا يقوم في

---

[3] تفسير القرآن العظيم لابن كثير. 276/3.

[1] المرجع نفسه. 493/1.

[1] : في ظلال القرآن لـ : سيد قطب. ص : 246/1.

مجـتمع إلاّ في أسرة، تعيش وتتحرك وتعمل في حدود ذلك المنهج الرباني"[1] وبالتالي، تصبح لدينا أسرة ربّانية، تعطينا باجتماعها مع نظيراتا مجتمعا ربّانّيا، وباجتماعه مع نظائره، نحصل على الأمة الرّبانية.

ثانيا: العلاقات الأسرية : أفراد الأسرة لعضهم ببعض.

عمد القرآن الكريم، إلى تحديد وبيان وتنظيم العلاقات الّتي تربط أفراد الأسرة الواحـدة، بعضهم ببعض، تأكيدا منه على رعـايته المتواصلة للأسرة، وحرصا منه على

تماسكها وتوّحدها، فهي المحضن الأول الّذي تنشأ فيه الأجيال، وتأخذ عنه أولى معالم توّجهاتا في الحياة.

وامتثال المؤمنين لأوامره تعالى، وتحسين لتلك الّتنظيمات، وإقامتهم لتلك الرّوابط، إّنما في الحقيقة، ترجمة واضحة، لجزء من الوظيفة الاجتماعية الّتي يؤدّيها في الحياة، ويمكن تلخيص تلك الرّوابط فيما يأتي:

- علاقة الزّوجية :

علاقة تربط الزّوجين، أحدهما بالآخر، وهي قائمة على المودّة، والمحّبة والعناية والرّعاية والإحترام، كما هو بّين من خلال قوله تعالى:﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعـل بيـنكم مودّة ورحمة ..﴾ [الرّوم: 21]، وهي علاقة قائمة على أساس تبادل عادل في الحقـوق والواجبات، كما يشهد لهذا قوله تعالى:﴿ تولهن مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرّجال علـيهنّ درجـة﴾ [الـبقرة: 228]، تلك الواجبات، الّتي راع فيها، الله تعالى، الطّبيعة البدنية والّنفسية لكلا الزّوجين، فلم يكلّف أيّ واحد منهما، إلاّ بما يطيقه، ويتلاءم مع طبيعته، وهو في الوقـت ذاتـه مّما يحتاج إليه طرفة الآخر، فمثلا من بين واجبات الزّوج، حسن عشرة الزوجة، وحسن معاملتها، ويوضّح هذا قول الله تعالى:﴿ وعاشروهنّ بالمعروف..﴾ [النساء: 19]، وكذا قوـلهﷺ: ((ألا واستوصـوا بالّنساء خيرا، فإّنما هنّ عوان[1] عندكم..))[2]، وقوله: ((أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم، خياركم لنسائهم))[3]. فالمرأة تحتاج إلى هذا

---

[1] : دستور الأسرة لـ : أحمد فائز. ص: 56.

[1] عوان: أسيرات والمراد أنّهنّ سلّمن أنفسهن ليكن في طاعتكم مثل الأسير.

[2] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرّضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها رقم 1163، ص: 467. وأخرجه ابن ماجة ابن حبان في صحيحه، باب: حق المرأة على الزوج رقم: 1851، ص: 594/1.

[3] أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب: بأن من خيار النّاس من كان خيرا لأمرأته. رقن: 4176، حسن صحيح. رقم: 1162، ص 466/3، وأخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب: النكاح، باب: حسن معاشرة النّساء، رقم، 1978. ص: 636/1.

الحـقّ، الـذي أثبته الشارع لها، لأنه يتلاءم وطبيعة بدنها الضعيفة، وكذا طبيعة نفسها الرقيقة، المرهفة، الحسّاسة.

وأيضا واجب النّفقة، الذي يثبته تعالى: للزوجة[4]، في قوله:﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتّم الرّضاعة وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتنّ بالمعروف﴾[البقرة: 233]، وكـذا يقـرّره ﷺ في قوله: ((ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتنّ بالمعروف))(1)، وكذا قوله: ((تطعمهـا إذا طعمـت وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تفتح، ولا تجر إلاّ في البيـت)). وهـذا الحقّ الذي أثبته الشارع للزّوجة، يتلاءم كذلك وحالتها، فهي بمقتضى عقد الـزّواج تصبح مقصورة على زوجها، ومحبوسة عليه، لاستدامة الإستمتاع با، كما يجب عليها طاعته وملازمته، وتدبير م له، ورعاية أولاده، فهي محبوسة إذا لحقّه.
أمّـا عن واجبات المرأة، فنذكر منها واجب طاعة زوجها، وهو ثابت في قوله تعالى:﴿ ...فإنّ أطعـنكم فـلا تبغوا عليهنّ سبيلا إنّ الله كان علّيا كبيرا﴾ بالنساء:34]، وهو ثابت أيضا من خـلال قولـهﷺ: ((لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها))، والطّاعة هي أمر عام يدخل تحته، تنفيذ كلّ أوامر الزّوج –في غير
معصية الله- والإبتعاد عن كلّ شيء لا يرضاه، أو ينهى عنه، أو يمنع منه. وواضح من أنّ هذا الحقّ، الذي أثبته الشّارع للزوج، يتلاءم وشدّة بدنه وقوّة عقله، القاضيتين بتميّز خبرته عن خبرة المرأة، التي كثيرا ما تؤثر عاطفتها على عقلها، كما أنّ هذه الطّاعة، هي وفاء بالعهد الذي أبرمته مع زوجها، بمجرّد موافقتها على الزواج به.
واجـب آخر تبذله الزّوجة للزوجها، يتمثل في التزّين له، فالزّوجة الصّالحة، من صفاتا، التّزين للـزوج لتسـرّ ناظره، فقد قالﷺ: -عند وصفه لسمّات المرأة الصّالحة -: ((إذا نظرت إليها سرّتك، وإذا أقسمت عليها أبرّتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها))[1] وبّين ملائمة هـذا الحق لطبيعة الزّوج، الذي يعود إلى بيته منهكا من عمله، يحتاج إلى ما يدرء تعبه ونصبه،

---

[4] انظر العلاقات الأسرية لمحمّد عبد السّلام. ص: 124.
(1) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الحج، باب: حجّة لنبيﷺ رقم 1218. ص2/886-888 وأخرجه البيهقي في سننه، كتاب الحرج، باب ما يدل على أنّ النبيﷺ أجرم إجراما مطلقا رقم: 8604، ص: 5/08 وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب، المناسك، باب: صفة حجة النبيﷺ، رقم: 1905، ص: 2/185.

[1].أخرجه أبو داود في سننه؛ كتاب:الزكاة، باب:في حقوق المال، رقم: ،ص:

ويجلب راحته وطمأنينته، ولا يخفى ما لحسن المظهر، وزينة المنظر من تأثير على النّفس، وبعث السّرور والرّضا فيها.

يتّضح لنا أنّ العلاقة الزّوجية، بما تضمّنته من حقوق وواجبات -ذكرنا بعضها - متبادلة بين الزّوجين، يمكنها أن تحافظ على استقرار الأسرة، وبالتّالي يمكنها المساهمة، وبقوّة في تشييد صرح المجتمع الفاضل. وهي في الوقت ذاته بما تضمّنته من حقوق وواجبات، تكشف عن الظّلال الّتي يلقيها الإيمان به تعالى على المجتمع.

2-علاقة الوالدين بالأولد :

تعتبر هذه العلاقة، علاقة فطرية أودعها الله تعالى في قلوب الأولياء، أكثر منها كسبية، ولعلّ ذلك يرجع أنّ هذه العلاقة، تشكّل المركز، الذي يدور حوله استمرار البشرية، ولذلك نجد أنّ توصّية الوالدين بالأولاد، لا ترد إلاّ نادرا، سواء في القرآن الكريم، أو في السّنّة الشّريفة-، "ولمناسبة حالات معّينة، ذلك أنّ الفطرة وحدها، تتكفّل برعاية تلقائية، مندفعة، بذاتها، لا تحتاج إلى مثير، وبالتّضحية النّبيلة، الكاملة العجيبة، الّتي

كثيرا ما تصل، إلى حدّ الموت، بدون تردّد، ودون انتظار عوض، ودون منّ ولا رغبة حتّى في الشّكران ! "[1].

ويمكن تلخيص علاقة الوالدين بأولادهم فيما يأتي :

أ= الرّعاية والعناية :

وهب أصل يندرج تحته، الرّحمة بالأولاد، والتلطّف معهم، وتسميتهم بأسماء حسنة، والنّفقة عليهم،..الخ، ولنا في رسول اللهﷺ الأسرة الحسنة في هذا، فقد كان يعامل الصبية معاملة، كلّها رحمة ورقّة وتلطّف بم،..فكان يحمل الصبيان ويقبّلهم، ويتركهم يركبونه، ويضعهم على حجره، و يحملهم على عاتقه وهو يصلّي..الخ. كما كانﷺ يلوم من كان جافّا، غليظا في معاملة الأولاد، فقد قال للأعرابي، الذي تعجّب من تقبيل الصبيان: ((أو أملك لك أن نزع الله الرّحمة من قلبك))[2].

كما حذّر ﷺ من إهمال نفقتهم قائلا: ((كيف بالمرء إثما أن يضّيع من يقوت))[3].

(1)
(2)
(3)

ب=التربية والتعليم:

تتربّع التربية وكذا التعليم على عرش مسؤولية الوالدين، ذلك أن تبعاتا، لا تعود على الأولاد وحسب، بل تعود على الوالدين –أيضا-، وعلى الأسرة ومن ثمّ على المتمع، الذي يسمو ويرتقي، بصلاح أفراده، وينحطّ وينتكس، بفساد أفراده أيضا.

والأصل في التّربية[1]، قوله تعالى :﴿ يا أّيها الّذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها النّاس والحجارة﴾[التحريم: 6]، فالمؤمن إذن وإصلاح بيته، كما مكلّف بداية أهله، هو مكلّف هداية نفسه وإصلاح قلبه"[2]، والتّربية، هي أوّل سبل الهداية والإصلاح.

وأمّا التعليم فهو مفتاح الحياة البشرية، ومن دونه، تبقى كلّ أبوابا مقفلة في وجه ذلك الجيل، لذلك كان على الوالدين لزاما، أن يعلّموا أولادهم بحاجة إليه، بل أن يعلّمهم حبّ التّعلم، ليتمكّنوا بعدها من مواصلة الدرب الشّاق وحدهم.

كلّ هذا، حتّى نتمكّن، من بناء السرة المؤمنة الخيّرة، انطلاقا من بناء البيت الواحد، الذي يعدّ "قلعة من قلاع هذه العقيدة، ولابدّ أن تكون القلعة متماسكة من داخلها، حصينة في ذاتا، كلّ فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ غليها، وإلاّ تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه، فلا يصعب على طارق، ولا يستعصي على مهاجم! "[3]

ب= العدل بينهم:

يشهد لهذا ما روي عن النّعمان بن بشير –رضي الله عنه- قال : تصدّق عليّ أبي ببعض ماله، فقالت أمّ –عمرة بنت رواحة-: لا أرض حتّى تشهد رسول اللهﷺ : ((أفعلت هذا بولدك كلّهم؟))، قال: لا، فقال : ((اّتقوا الله واعدلوا في أولادكم))، فرجع أبي عن تلك الصّدقة[1]، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّه يجوز التفاضل إذا كان لسبب معّين، كالعلاج، أو التّعليم أو الزّواج،...الخ[2].

* علاقة الأولاد بالوالدين:

---

(1) نظر السّلوك الإجتماعي لحسن أيّوب. ص: 212.
(2) في ظلال القرآن لسيّد قطب. 3619/6.
(3) المرجع نفسه.
(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الهبة وفضلها، باب: الإشهاد في الهبة، رقم: 2447. ص: 914/2 وأخرجه مسلم، كتاب: الهبات، باب كراهية تعقيل بعض الأولاد في الهبة: 1623. ص: 1248/3.
(2) انظر العلاقات الأسرية لمحمّد عبد السّلام. ص: 189.

أولى الله تعالى، وكذا رسوله الكريمﷺ هذه العلاقة، اهتماما خاصّا، حيث أمر بطاعتهما في غير معصية، وأمر بالإحسان إليهما، وبّين آداب معاملتهما، وأشاد بمكانة من أبرّهما، وتوعّد من عقّهما.

يشهد لهذا قوله تعالى:﴿ وقضى ربّك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا﴾ [الإسراء:24].

قوله تعالى:﴿ ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه﴾ جاء في صورة قضاء، فهو أمر حتمي، حتمّية القضاء، ولفظه "قضى" تخلع على الأمر معنى التّوكيد، إلى جانب القصر، الذي يفيده، النّفي والاستثناء، ﴿ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه﴾، فتبدو في جوف التّعبير كلّه، ظلال التّوكيد والتّشديد[3]. ثم يعطف على هذا الأمر الشّديد بقوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾، وفي هذا العطف، دلالة بّينة على أنّ "الرّابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هي رابطة الأسرة، ومن ثمّ يربط السّياق برّ الوالدين بعبادة الله، إعلانا لقيمة هذا البر[4] عند الله سبحانه وتعالى.

ثمّ يواصل السّياق، في جوّ من الرّحمة والمودة، والتذّلل، يواصل بيان آداب معاملة الوالدين :

أ- ﴿فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما﴾، وهي أوّل مرتبة من مراتب الرّعاية والأدب، ألاّ من الولد ما يدل على الضّجر والضّيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب.

ب- ﴿وقل لهما قولا كريما ﴾ ، وهي مرتبة أعلى إيجابية، أن يكون كلامه لهما يشي بالإكرام الإحترام.

جـ -﴿واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة ﴾ ، فهي الرّحمة ترق وتلطف، حتّى لكأنّها الذلّ الذي لا يرفع عينا، ولا يرفض أمرا"[1].

د- ﴿وقل لهما ربّي ارحمهما كما ربّياني صغيرا ﴾ ، وهذا توجّه "إلى الله أن يرحمهما، فرحمة الله أوسع، ورما الله أشمل، وجناب الله أوجب، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما، مّما لا يقدر على جزائه الأبناء[2].

---

[3] في ظلال القرآن لسيّد قطب 2221/4.
[4] المرجع نفسه.
[1] المرجع نفسه

كما بين رسول اللهﷺ أنّ برّ الوالدين من أحبّ الأعمال إلى الله تعالى، وأنّه ممّا يجازي به عباده، بدخول جنّته تعالى ﷺ : ((رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه،)) قيل : من يا رسول الله؟، قال : ((من أدرك والديه عند الكبر، أو أحدهما ثمّ لم يدخل الجنّة))[3]. وعن ابن مسعود –رضي الله عنه- قال : سألت رسول اللهﷺ : أيّ العمل أحبّ إلى الله؟، قال : ((الصّلاة على وقتها))، قلت ثمّ، قال : ((برّ الوالدين))، قلت : ثمّ أي؟، قال : ((الجهاد في سبيل الله))[4].

كما أنّ برّ الوالدين –أيضا- يعدّ سببا لزيادة الرّزق، ومدّ العمر، فقد روي عنهﷺ أنّ قال : ((من سرّه أن يمدّ له في عمره، ويزاد في رزقه، فليبرّ والديه وليصل رحمه))[5].

كان هذا بعض ما يميّز علاقة الأولاد بالوالدين، وما يجب أن تكون عليه، من عطف، ورفق، وإكرام، وتذلّل،..الخ، ذلك أنّها علاقة مربوطة وموصولة بعبادة الله وتوحيده، فرض الوالدين من رضاه تعالى، وسخطهما من سخطه.

ثالثا: العلاقات الاجتماعية

لاحظنا من خلال ما سبق، كيف اعتنى الله تعالى، بتنظيم السرة، وتقوية صلات أفرادها بعضهم ببعض، والآن، سنلاحظ كذلك كيف أنّه تعالى، لم يهمل العلاقات الاجتماعية أيضا، وأنه بنى الأسرة، بناء قويا متماسكا، لتكون لبنة قوّية، صالحة، ولأن تكون جزء من ذاك القصر المشيد، الذي تشدّ لبنائه، علاقات متينة، قوّية الرّبط شديدة التّماسك، ولا أدلّ على اهتمامه تعالى، بذه العلاقات الاجتماعية، من أنّه قلّما "تخلو سورة من السّور المكّية، من واجبات اجتماعية، يلزم الحرص عليها والإهتمام بأدائها، أمّا

---

[2] المرجع نفسه. 2222/4.
[3]
[4]
[5]

السور المدنية، فتوجد منها سور بأكملها، ذات إهتمام خاص بجوانب اجتماعية كثيرة، وخطيرة، منها سورة النّساء، المائدة، التوبة، النّور، الطّلاق..الخ"[1]. وما كلّ هذا الاهتمام، إلاّ لأنّ قوّة التمع وصلاحه مرهونة بصلاح وترابط علاقاته فيما بينها[2].

ومن بين العلاقات الاجتماعية الّتي خصّها القرآن الكريم بالذكر :

1= علاقة الأرحام وذوي القربى

ممّا يبيّن عظم صلة الرّحم عند الله تعالى، ما روي عن رسول اللهﷺ أنّه قال : ((إنّ الله خلق الخلق، حتّى إذا فرغ منهم، قامت الرّحم، فقالت: "هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال : نعم، أما ترضين أن اصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى، قال : فذاك لك، ثمّ قال رسول اللهﷺ : إقرؤا إن شئتم :﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) ﴾ [محمد: 22-23] [3].

وقوله تعالى : ﴿هذا مقام العائذ بك من القطيعة ﴾ -على لسان النبيﷺ المقصود به، "الإخبار بتأكّد أمر صلة الرّحم، وأنّ الله سبحانه قد أنزلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمّته وجواره، وإذا كان كذلك، فجار الله غير مخذول وعهده غير منقوض"[4]، وأدخله في ذمّته وجواره، ولهذا كثيرا ما نجد القرآن الكريم يحرص، ويحضّ على الإحسان إلى ذوي القربى، ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى..﴾ [النساء: 36]، كما يحضّ على الإنفاق عليهم، حيث يقول تعالى :﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السبيل ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: 38]، قال مجاهد وغيره :" صلة الرّحم فرض من الله –عزّ وجلّ-، وقال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة"[5].

(1) : السلوك الاجتماعي في الإسلام لـ : حسن أيوب. دار السلام: القاهرة-مصر، ط:1:1422هـ-2002م. ص: 153.

(2) : انظر : أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية لـ : عبد الله الجربوع. ص: 457.

(3) : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب : البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم: 2554. ص: 1980/4. وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: التفسير، باب: وتقطعوا أرحامكم، رقم: 4552، ص: 4/ 1828.

(4) : الجامع لأحكام القرآن لـ: القرطبي. ص: 249/16.

(5) : المرجع نفسه. ص: 35/14.

كما "وقد جعل النّبيﷺ صلّة الرّحم من العبادات الأساسية، التي توضع بجوار أركان الإسلام الكبرى، وجعلهاﷺ مدخلا رئيسيا إلى الجنّة، فعن أبي أيوبﷺ قال: جاء رجل إلى النّبيﷺ فقال : "دلّني على عمل يدنيني من الجنّة ويباعدني عن النّار، قال : ((تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصل ذا رحمك))، فلمّا أدبر، قالﷺ : ((إن تمسّك بما أمر به دخل الجنّة [1]))"[2].

ولعلّ ما يمكن ملاحظته ممّا سبق ذكره ما يأتي :

أ= أنّ عطف الإحسان إلى ذي القربى على الأمر بعبادة الله، والنّهي عن الإشراك به، إنّما يدلّ "على الوحدة الكلّية الشّاملة، المتكاملة في هذا الدّين، فليس هو مجرّد عقيدة تسكن في الضّمير، ولا مجرّد شعائر تقام وعبادات، ولا مجرّد تنظيم دنيوي منقطع الصّلة بالعقيـدة،

وبالشّعائر التّعبدية، إنّما هو منهج يشمل هذا النّشاط كلّه، ويربط بين جوانبه، ويشدّها جميعا إلى الأصل الأصيل وهو توحيد الله، والإيمان به –عزّ وجلّ.

ب= ذكر الإحسان إلى ذي القربى، وذلك بصلة رحمهم، إلى جانب عبادته تعالى وعدم الإشراك به، وكذا إلى جانب إقامة الصّلاة، يدلّ دلالة واضحة على الإلتحام الشّديد بين ما يسمّى بالعقيدة (توحيد الله) والعبادات : (إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة)، وبين المعاملات (صلة الرّحم)، وأنّ هذا، ما هو إلاّ تقسيم نظري، للشّرح أو التّفصيل، أمّا على أرض الواقع، فكلّها تعود إلى الأصل الأوحد: ألا وهو، الإيمان بع تعالى، وما يأتي بعده، من معاملات أو عبادات، فهو منبّثق عن هذا الأصل الأصيل، من خلال أوامره تعالى ونواهيه، وعليه تصبح المعاملات والعبادات شيء واحد، بالنّظر إلى جلال مصدرها، ولا شيء يميّز بينها إلاّ اختلاف مجالات تطبيقها.

- علاقـة الجـوار :

تظافرت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، على بيان مكانة الجار، وبيان حقوقه، وكيفية التّعامل معه، والتّحذير من إيذائه، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصّاحب بالجنب وابن السّبيل وما ملكت

([1]) : أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الإيمان، بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، رقم: 15، ص: وأخرجه البخاري في صحيحه؛ كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: 1310، ص:

([2]) : منهج القرآن في إصلاح المجتمع لـ :محمد السيد يوسف. (دار السلام: القاهرة-مصر، ط:1: 1422 هـ- 2002 م). ص: 214.

أيمانكم إنّ الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا﴾ [النّساء: 36]، إذن "فقد أمر الله تعالى بحفظه، والقيام بحقّه والوصاية برعي ذمّتي في كتابه وعلى لسان نبيّه، ألا تراه سبحانه أكّد ذكره بعد ذكر الوالدين والأقربين؟! فقال تعالى :﴿ والجار ذي القربى ﴾ ، أي القريب :﴿ والجار الجنب ﴾ ،أي البعيد،..وقال نوف الشّامي :﴿ والجار ذي القربى ﴾ ، المسلم،﴿ والجار الجنب ﴾ أي اليهودي والنصراني"[1].

وأمّا الأحاديث الشريفة، التي أكّدت على احترام حقوق الجار وعلى الإحسان إليه، والتي حذّرت من الإساءة إليه نذكر قولهﷺ:

- ﴿ما زار جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورثه﴾[2].
- ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره﴾[3].
- ﴿والله لا يؤمن، والله لا يؤمن والله لا يؤمن﴾ قيل : يا رسول الله ؟، قال : ((الذي لا يأمن جاره بوائقه))[4]، والإيمان المنفي هنا هو الإيمان الكامل[5]، الذي يؤدي وظيفته في المجتمع كما يجب.
- ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال : يا رسول الله إنّ فلانة تصلّي اللّيل وتصوم النّهار، وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها، قال : ((لا خير فيها هي في النّار))، وقيل : إنّ فلانة تصّلي المكتوبة، وتصّوم رمضان، وتتصدّق بالأثوار من الأقط أي القطعة العظيمة من اللّبن الجامد-وليس لها شيء غيره، ولا تؤذي أحدا قال: ((هي في الجنّة))[6].

وهكذا استطاع التّوجيه الرّباني، والإرشاد النّبوي، أن يوطّدا العلاقات الاجتماعية، بين الأقارب فيما بينهم، وبين الجيران، وحتى بين عامة المسلمين. ممّا لم نتطّرق لذكره، كوجوب إلقاء السّلام عليهم، وتشميت العاطس منهم، وعيادة مريضهم وإجابة دعوتهم،..الخ –لتشّيد المجتمع المتماسك المتّحد، القادر على حمل الرسالة الخالدة، وتبليغها للعالمين.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي .183/5، نقلا عن قرص : مشاهير القراء.

(2)

(3)

(4)

(5)

(6)

المطلب الثاني

الإيمان يبني المجتمع المتحاب

يضفي الإيمان على المجتمع ميزة أخرى، تميّزه أيما تميّز، وترقى به أيما رقيّ عن المجتمعات الكافرة، إنّما ميزة تسمو به كما تسمو الرّوح عن المادّة، وكما تعلو الثريّة عن الثّرى، إنّما ميزة الحبّ، الحبّ الذي يأخذ معنى "أخصّ من الرضى، وأعمق أثرا، فقد يرضى الإنسان بالشّيء أو يرضى عن الشّخص، ولا يفضي ذلك إلى حبّه وتعلّق القلب به، فإنّ ذلك شأن الحبّ لا شأن الرّضى"[1].

وبهذا المعنى يتميّز المجتمع المؤمن عن المجتمعات الكافرة، فإذا كانت هذه الأخيرة، ترضى –أو تخضع- بالقوانين الوضعية الّتي تنظّمها، من منطلق تحسين التّعايش أو تسهيل التّعامل بين أفرادها، فإنّ المجتمع المؤمن، على عكس ذلك تماما، إذ يستجيب للتّشريعات الإلهية، الّتي تنظّمه وتقود حياته، من منطلق الحبّ الخالص لله وحده، هذا الحبّ الذي يضمّ بين جنباته علاقات المؤمن كلّها، بدءا بعلاقته بربّه وخالقه، فنبيّه وصفيّه، فإخوانه في الإيمان، ثمّ إخوانه في الإنسانية.

فالمؤمن يحبّ الله تعالى، لأنه المتّصف بكافّة صفات الجلال والجمال والكمال، يحبّه لذاته، لأنّ ذاته تستحقّ ذلك.

ويحبّ لإحسانه العظيم عليه، "فالنّفوس مجبولة على حبّ من أحسن إليها، وأيّ إحسان كإحسان من خلقه من عدم، وجعله بشرا سويا، واستخلفه في الأرض، وسخّر له الكون جميعا، قال تعالى :﴿ هو الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: 29]، وقال تعالى :﴿ ألم تروا أنّ الله سخّر لكم ما في السّماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ [لقمان: 20][2].

والمؤمن يحبّ نبيّ الله ﷺ لأنه المبلّغ عن ربّه، ولأنه الحبل الذي يصله بوحي السّماء.

والمؤمن يحبّ إخوانه المؤمنين، لأنهم يشاركونه عبادة الخالق الواحد، ويقاسمونه الائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه.

---

(1) الإيمان والحياة للقرضاوي. ص: 175.

(2) المرجع نفسه. ص: 178.

إذن فهذا هو الحبّ الذي يسري في أوصال المجتمع المؤمن، حتّى جعله كالجسد الواحد، إذا اشتكى من عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسّهر والحمّى، نعم إنّه الحبّ لله تعالى وفيه، حبّ لوجه الله الواسع، الذي لا تحدّه حبّ ينبع من الإيمان ويترعرع بين أحضانه، ليشدّ المؤمن إلى ربّه وإلى إخوانه، وإلى العالم كلّه بأمتن الصّلات، وأجملها في الوقت ذاته.

وتأكيد العلاقة الرّابطة بين الحبّ –الّذي تحدّثنا عنه- والإيمان، يقول الرّسولﷺ: ((ثلاث من كنّ فيه وجد بنّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسول أحبّ غليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النّار))[1].

"قال الشيخ محي الدّين[2]! هذا حديث عظيم، أصل من أصول الدين، ومعنى حلاوة الإيمان، استلذاذ الطّاعات وتحمّل المشاق في الدّين، وإيثار ذلك على أعراض الدّنيا، ومحبّة العبد لله تحصل بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك الرّسول[3] وقولهﷺ : ((أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما)) معناه أنّ من استكمل الإيمان علم أمّ حقّ الله ورسوله أأكد عليه من حق أبيه وأمّه وولده، والنّاس، لأنّ الهدي من الضلال، والخلاص من النّار، إنّما كان بالله على لسان رسوله[4]ﷺ .

وكخلاصة لمعنى الحديث نقول بأنّ من أراد أن يستلذّ ويتذوق حلاوة الإيمان، ويصبح قادرا على تحمل مشاقّ الدّين، فعليه أوّلا أن يستكمل إيمانه بما يأتي :

* محّبة الله تعالى.

* محّبة رسوله –صلّى الله عليه وسلم-.

* محّبة النّاس لوجه الله.

كراهية الرّجوع إلى الكفر، كما بقدر كراهية قذفه في النّار.

وسأتناول بالشّرح العناصر الثلاثة الأولى، لأنها تندرج في مضمون المطلب.

أولا: الإيمان يثمر محّبة الله تعالى :

---

(1)
(2)
(3)
(4)

اثبت الله سبحانه وتعالى، في العديد من الآيات الكريمة، محّبة عباده المؤمنين لذاته الجليلة، فقال عزّ من قائل :

- ﴿والّذين آمنوا أشدّ حبّا لله...﴾ [البقرة: 165].
- ﴿يا أّيها الّذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحّبهم ويحّبونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ [المائدة: 54].
- ﴿إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيجعل لهم الرّحمان ودّا﴾ [مريم: 96]، روي عن ابن عباس أّنه قال :﴿ سيجعل لهم ودّا﴾ ، أيّ يحّبهم ويحّبونه.

بّين ابن رجب معنى محّبة الله الواجبة فقال : "هي أن يحبّ الله سبحانه محّبة، توجب له محّبة ما فرضه الله عليه، وبغض ما حرّمه الله عليه، ومحّبة رسوله المبلّغ عنه أمره ونيه، وتقديم محّبة على النّفوس والأهلين،...والرّضى بما بلّغه عن الله من الدّين، وتلقّى ذلك والّتسليم، ومحّبة الأنبياء والرّسل والمّتبعين لهم بإحسان الله عزّ وجلّ، وبغض الكفّار والفجّار لله -عزّ وجلّ- وهذا القدر لابد منه في تمام الغيمان الواجب، ومن أخلّ بشيء منه فقد نقص من غيمانه الواجب بحسب ذلك"، وإذا كانت محّبة الله تعالى تحمل بين طّياتا كلّ هذه المعاني، "ف'نّ إنعام الله تعالى على العبد بدايته لحّبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحبّ كلّها ولا شبيه، هو إنعام هائل عظيم،...وفضل غامر جزيل:، وقد وصل الشوق بأحد المؤمنات القانتات لله تعالى، رابعة العدوية، أن صوّرت ما يجيش بصدرها من حبّ عظيم، قائلة :

فليتك تحلو والحيـاة مريـرة ۞ وليتك ترضى والأنام غضاب.

وليت الّذي بيني وبينك عامرة ۞ وبيني وبين العالمين خراب.

إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هّين ۞ وكلّ الّذي فوق التراب تراب.

فهذا حبّ الله تعالى، الذي به تصفوا الحياة وتحلوا، وتون معه الصعاب وتخبو، وهو الحبّ الصادق العميق، الذي يبذل لجله كلّ عزيز، ويرخص لوجهه كلّ غال، ولهذا عّبر عنه الله سبحانه وتعالى قائلا :﴿ والّذين آمنوا اشدّ حّبا لله﴾ بالبقرة : 165]، نعم، "أشدّ حّبا لله، حبّ

مطلقا من كلّ موازنة، ومن كلّ قيد، أشدّ حبّا من كلّ حبّ يتّجهون به إلى سواه، والتّعبير هنا بالحبّ تعبير جميل، فوق أنّه صادق، فالصّلة بين المؤمن الحقّ، وبين الله هي صلة الحبّ، صلّة الوشيجة القلبية، والتّجاذب الرّوحي، صلة المودّة والقرب، صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحبّ المشرق الودود"[1].

ثمّ إنّه لمحبّي الله تعالى صفات واضحة، وسمات بيّنة تميّزهم، وتؤكّد حبّهم لله تعالى، نستشفّها من خلال قوله سبحانه وتعالى :﴿ يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ [المائدة: 54].

إذن فأوّل سماتهم، الذّلة على المؤمنين، "والمراد بها لين الجانب، والرّأفة، والرحمة للمؤمنين وخفض الجناح لهم، كما قال تعالى:﴿ واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ [الشعراء: 215]، ووصف أصحابه ﷺ بمثل ذلك في قوله :﴿ محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم﴾ [الفتح:29][1]، كما أنّه ليس في الذّلة للمؤمنين من مذلّة ولا مهانة، إنّما هي الأخوّة، ترفع الحواجز، وتزيل التّكلف وتخلط النّفس بالنّفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين[2].

وثانيها : العزّة على الكافرين : "والمراد بها الشدّة والغلظة عليهم، كما قال تعالى :﴿ يا أيّها النّبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [التّحريم: 9]، وهذا يرجع إلى أنّ المحبّين له يبغضون أعداءه، وذلك من لوازم المحبّة الصّادقة"[3].

وثالثها : الجهاد في سبيل الله تعالى، لإعلاء كلمته، ولنشر دينه، تأكيدا على حبّهم العميق له، وتفانيهم، في تحقيق أوامره تعالى.

ورابعها : عدم الخوف من الملامة، ولا سبيل لتسلّل شعور الخوف من لوم النّاس، "وهم قد ضمنوا حبّ ربّ النّاس ؟ وفيم الوقوف عند مألوف النّاس، وعرف الجيل، ومتعاون الجاهلية،

---

(1) المرجع السّابق. 154/1.
(1) بهجة النّاظرين لابن جار الله. ص: 39.
(2) في ظلال القرآن لسيّد قطب. 919/2.
(3) بهجة النّاظرين لابن جار الله. ص: 39.

وهم يتّبعون سنّة الله، ويعرضون منهج الله للحياة ؟ إنّما يخشى لوم النّاس من يستمد مقايسه وأحكامه من أهواء النّاس"[4]، أمّا من يستمد أحكامه من عند الله، ولا يخشى إلاّ الله، ولا يقيم وزنا لمن عداه.

وخامسهما : اتباع سنّة رسوله ﷺ ، "فإذا كانت المحبّة له تعالى، هي حقيقة عبوديته وسرّها، فهي إنّما تتحقّق باتّباع أمره واجتناب النّهي،...، ولهذا جعل تعالى اتّباع رسوله علما عليها، وشاهدا لمن ادّعاها، فقال :﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران:31]. فجعل اتّباع رسوله مشروطا بمحبّتهم لله، وشرطا لمحبّة الله تعالى لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحقّقه"[1].

وإذا كان الله تعالى، قد نوّه بعباده المؤمنين ومحبّتهم الشديدة له، الّتي لا يشاركه فيها أحد، كائن ما كان، وبيّن صفاتهم الكريمة، فإنّه إضافة إلى هذا التّشريف العظيم، قد شرّفهم وأعزّهم بمحبّته تعالى لهم، وقد أثبتها الله تعالى في كتابه العزيز في قوله :﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه﴾ [المائدة: 54]، ومحبّة الله تعالى لخلقه أو لعبده المؤمن، إنّما تعني، "تمكينه من سعادته، وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه، وقصواها كشف الحجب عن قلبه، حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته، كما قال في الحديث :﴿ فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ولسانه الّذي ينطق به﴾ [2]، ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرّد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله[3].

إضافة إلى الله إثبات الله محبّته للمؤمنين، بيّن لهم سبل الوصول إليها والرّقي في سلّها، فقال تعالى ، على لسان رسوله ﷺ : ((ما تقرّب إليّ عبدي بمثل آداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يمشي، ولئن سالني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما تردّدت في شيء أنا فاعله، كتردّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا

---

[4] في ظلال القرآن لسيّد قطب. 919/2.
[1] مدارج السّالكين لابن القيم. 99/1. نقلا عن قرص، مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.
[2] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: الأدب، باب، التواضع، رقم 6137، ص: 2384/5، وأخرجه البيهقي في سنة، كتاب صلاة الإستسقاء باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله بالصّدقة ونوافل الخير. رقم 6187، ص: 346/3.
[3] الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عيّاض؛ أبي الفضل عيّاض اليحصبي، (دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان/ ط، دت) 214/1.

بدّ له منه))[1]، إذن، "تضمّن هذا الحديث الشريف حصر أسباب محبّته في أمرين: 1= آداء فرائضه، 2 = التّقرب إليه بالنّوافل، وأخبر سبحانه أنّ آداء فرائضه أحبّ ما يتقرّب به إليه المتقرّبون، ثمّ بعدها النّوافل، وانّ المحبّ لا يزال يكثر من النّوافل حتّى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا، أوجبت محّبة الله له، محّبة أخرى منه لله فوق المحّبة الأولى، فشغلت هذه المحّبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البّتة"[2].

هذه هي إذن الصّلة الرابطة بين الله -عزّ وجلّ-، وبين عباده المؤمنين، إنّها صلة حبّ وودّ، "وهذا الحبّ من الجليل للعبد من العبيد، والحبّ من العبد للمنعم المتفضّل، يشيع في هذا الوجود، ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كلّ حيّ وفي كلّ شيء، فإذا هو جوّ وظل يفسران هذا الوجود، ويغمران الوجود الإنساني كلّه، ممثلا في ذلك العبد المحبّ المحبوب"[3].

وحبّ العبد المؤمن لا يقف عند محّبة الله تعالى، بل إّنه يستمدّ منها طاقته، ونورانيته ليغمر بها كلّ من في الوجود وما فيه، وأوّلهم، نبيّ الله، سيّدنا محمّدﷺ ، الذي تنبع محّبته من محّبة الله مباشرة، إذ هو المختار والمصطفى من الله تعالى، وهو المبلّغ عنه، أمره ونهيه، وهو الواسطة الواصلة بين من في الأرض ومن في السّماء.

ثانيا: الإيمان يثمر محّبة الرّسولﷺ،

ثبت في كتاب الله تعال، وكذا في سّنة رسولهﷺ، أّنه من تمام الإيمان، محّبة الرّسولﷺ، فقد قال تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة : 24].

"فكفى بهذا حضّا وتنبيها ودلالة وحجّة على إلزام محّبته، ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ ، إذا قرّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحبّ إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله :﴿ فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره﴾ ، ثمّ فسّقهم بتمام الآية، أعلمهم أّنهم ممّن ضلّ ولم يهده الله تعالى"[1].

---

[1] تم تخريجه في ص: 23.
[2] الدّاء والدّواء لابن القيّم، ص: 225-226.
[3] في ظلال القرآن لسيد قطب. 918/2.
[1] الشفا للقاصي عياض. 18/2.

كما يتأكّد عدم استكمال إيمان من لم تخالط قلبه، محّبة رسول الله ﷺ ، قوله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين))[2]، وكذا ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال للنّبي ﷺ : لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلاّ نفسي، الّتي بين جنبيّ، فقال له النّبي ﷺ: ((لن يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه))، فقال عمر : والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحبّ إليّ من نفسي التي بين جنبي، فقال ﷺ: ((الآن يا عمر))[3].

ومعنى الحديث الأوّل، "أنّ من استكمل الإيمان علم أنّ حقّ النّبيﷺ أكد عليه من حقّ أبيه وابنه والنّاس أجمعين، لأنّ به ﷺ استنقذنا من النّار، وهدينا من الضلال، قال القاضي عياض –رحمه الله- ومن محّبته ﷺ نصرة سنّته والذّب عن شريعته، وتمّني حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه، وإذا نبّين ما ذكرناه، تبّين أنّ حقيقة الإيمان لا تتمّ إلاّ بذلك، ولا يصحّ الإيمان إلاّ بتحقيق إعلاء قدر النّبي ﷺ وم لته على كلّ والد وولد، ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه، فليس بمؤمن"[4].

ولمحّبة رسول الله ﷺ ثواب عظيم، حيث أنّها ترفع المؤمن إلى درجة المحبوب في الجنّة، يشهد لهذا ما روي عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلا أتى النّبي ﷺ فقال : متى السّاعة يا رسول الله ؟ قال : ((ما أعددت لها))، قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صدقة، ولكنّي أحبّ الله ورسوله، قال : ((أنت مع من أحببت))[1]، ويكفي بذه المحّبة فضلا أن ترفع مقام العبد المؤمن إلى مقام النّبي الكريم.

ثالثا : الإيمان يثمر محّبة المؤمنين بعضهم لبعض.

إلى محّبة الله تعالى ومحّبة رسوله ﷺ ، يفجّر الإيمان بالله تعالى، ينبوع محبة تغمر المؤمنين كافة، بمختلف ألوانم وأجناسهم،ومواطنهم، يحّبهم، لأنّهم إخوته في الإيمان بالله تعالى، وشركاؤه في عبادته، وتطبيق شريعته، ومحّبته أيضا- وقد ثبت بالنّص أنّ الإيمان لا يكتسل، ولا يتحقق كلّية، إلاّ إذا تمكّنت محّبة المؤمنين من قلب العبد المؤمن، وفي هذا يقول سّيدنا محمد ﷺ : ((لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا

---

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: وجوب محبّة رسوله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبّة، رقم 44، ص: 67/1. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان؛ باب، حبّ الرسول ﷺ من الإيمان رقم: 14-ص: 14/1.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كان يمين النبي ﷺ رقم: 6257، ص: 6/ 2445، وأخرجه الحاكم في مستدركه، في ذكر مناقب عبد الله بن هشام بن زهرة القرشي، رقم: 5922، ص: 3 /516.

(4) شرح النووي على صحيح مسلم. 16/2. نقلا عن قرص: مكتبة الألفية.

(1)

تؤمنوا حتّى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السّلام فيما بينكم))[2]. وهذا معناه أنّه " لا يكتمل إيمانكم، ولا يصلح حالكم في الإيمان إلاّ بالتّحاب"[3]، وهذا سبيله إفشاء السّلام، الذي يدل على "التآلف وهو مفتاح استجلاب المودّة، وفي إفشائه تكمن الألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميّز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النّفس ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين[4].

ولمحبّة المؤمنين، بعضهم بعضا ثمرات يانعة، أوّلها، نيل محبّة الله تعالى، حيث يشهد لهذا قوله ﷺ : ((أنّ رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا، فلمّا أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في هذه القرية، قال : هل لك عليه من نعمة تردّها عليه ؟ قال : لا، غير أنّي أحببته في الله تعالى قال : فإنّي رسول الله إليك بانّ الله قد أحبّك، كما أحببته فيه))[1].

وثانيها : الإستظلال في ظل الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابّون بجلالي ؟ اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي))[2].

وقال أيضا ﷺ : ((سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه : إمام عادل، وشابّ نشأ في عبادة الله –عزّ وجلّ- ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها، حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه))[3]. وقد أضيف "الظل" لله تعالى، إضافة ملك، وكلّ ظلّ فهو ملكه، كذا قال عياض، أو يقول : إضافة تشريف ليحصل امتياز هذا عن غيره،... وقيل : المراد كرامته ورحمته"[4]، فأيّة كرامة وعزّة هذه الّتي يحظى بها المتحابّون ؟! أنّها كرامة الاستظلال بظلّ عرشه[5]، يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه.

ويمكننا القول في الخلاصة، بأنّ الإيمان بالله تعالى، يدخل المؤمنين كافّة مملكة المحبّة والأخوة، ويضيء في قلوبهم درّة الحبّ والودّ، للحبيب الأوّل –سبحانه وتعالى- الذي لا تحلو الحياة إلاّ بحبّه، ولا ترضى

---

(2)

(3) شرح النّووي على صحيح مسلم. 36/2. نقلا عن قرص: المكتبة الألفية.

(4) المرجع نفسه.

(1)

(2)

(3)

(4)

(5)

النّفس أو تطمئنّ إلاّ بقربه، ولا نحبّ أحد عداه إلاّ لوجهه، نعم لوجهه تعالى وحده، يفيض قلب المؤمن محّبة وودّا، تغمران الكون كلّه، بأجمل المعاني وأصدق الأحاسيس، تغمران الوجود كلّه، بالعطف والرّحمة والحنان، والإيثار، ..وبكلّ ما من شأنه أن يزهر شجرة المحّبة الخالصة لله، الشجرة الطّيبة المباركة، الشّجرة التي تؤتي أكلها كلّ حين، من توحّد وتعاون، و تضامن. فتكوّن لنا للأمّة الخيرة، المحّبة، المحبوبة، المتحابّة، الأمّة المؤمنة بالله وحده.

المطلب الثالث

الإيمان يشيّد المجتمع المتكافل

يخلع الإيمان تعالى، على المجتمع، إلى جانب ما ذكر –تميّزه عن المجتمعات الكافرة، ألا وهي سمة التّكافل، ولعلّ أحدا ما يرى بانّ المجتمعات الكافرة، ألا وهي سمة التّكافل، ولعلّ أحدا ما يرى بأنّ المجتمعات الكافرة، متكافلة إلى حدّ بعيد، فهي تعتني بكافّة شرائع المجتمع من : شباب، شيوخ، مرضى، بطّالين، يتامى، عجزة، ..الخ. لكنّ الحقيقة هي أنّ تكافل المجتمع المؤمن يختلف كلّ الاختلاف عن تكافل المجتمع الكافر، فإذا كان هذا الأخير ينبع من الشّفقة أو من الإنسانية، فإنّ تكافل المجتمع المؤمن ينبع من المحّبة الصّادقة والودّ الخالص، الّذي يكنّه كلّ فرد مؤمن لأخيه المؤمن، يشير إلى هذا قولهﷺ : ((مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى))[1]، نعم، إنّ كلّ مؤمن يمثّل عضوا مهمّا من جسد المجتمع، فكيف لهذا الجسد أن يفرّط في أحد أعضائه، أو أن يهمله؟! .

فارق آخر يفصل بشكل بيّن، بين تكافل المجتمع الكافر، وتكافل المجتمع المؤمن، إنّ التكافل الأوّل، تكافل مادّي وحسب، يقتصر على تأمين الحاجات المادّية للفئات المعوزّة، من مأكل ومشرب وملبس ومأوى، بينما تكافل المجتمع المؤمن، فإنّه إلى جانب توفيره لكلّ تلك الحاجات المادّية، يعدّ تكافلا معنويا، يتمثل بل ويتجسّد في أمر المؤمن أخاه بالمؤمن بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وإرشاده إلى سبل الخير، وتحذيره من مسالك الشّر، وإسواء النّصائح الرّشيدة له،...الخ، هذا كلّه من منطلق محّبة المؤمن لأخيه المؤمن، فكما يحبّ المؤمن الخير لنفسه، من حصول رضى الله تعالى، ونيل محّبته تعالى ودخول

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب، البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم. رقم 2586. ص: 1999/4، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: رحمة النّاس والبهائم. رقم: 5662.
ص: 2238/5.

جنّته، فإنّه استكمالا لإيمانه وإمعانا في محّبة أخيه المؤمن، عليه أن يحبّ له الخير كما أحبّه لنفسه، فيعمل على هدايته إلى سبل الرّشاد، الّتي توصله إلى تلك النّعم، والتي تبعده عن سبل الفساد التي توقعه فيما لا تحمد عقباه، وفي هذا يقول النّبي ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه))، قال النّووي، قال العلماء : معناه لا يؤمن الإيمان التّام، وإلاّ فاصل الإيمان يحصل إن لم يكن بذه الصّفة، والمراد، يحبّ لأخيه من الطّاعات والمباحات، ويدلّ عليه ما جاء في رواية النّسائي في هذا الحديث ((... حتّى يحبّ لأخيه من الخير ما يحبّ لنفسه"[1].

وعليه فإنّ الإيمان يجعل من المجتمع المؤمن :

* مجتمعا متكافلا تكافل مادّيا.

* مجتمعا متكافلا تكافل معنويا.

أوّلا : المجتمع المؤمن متكافلا مادّيا.

لنتعرّف في البداية عمّا يقصد بالتّكافل الاجتماعي المادّي، إنّه يعني "أن يكون آحاد الشّعب في كفالة جماعتهم، وأن يكون كلّ قادر أو ذي سلطان كفيلا في مجتمعه يمدّه بالخير، وأن تكون كلّ القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية على مصالح الآحاد، ودفع الأضرار، ثمّ في المحافظة على دفع الأضرار عن البناء الاجتماعي، وإقامته على أسس سليمة على أسس سليمة، ولعلّ أبلغ تعبير جامع لمعنى التّكافل الاجتماعي، قوله ﷺ: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان المرسوس يشدّ بعضه بعضا))[2]، وقوله ﷺ : ((مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى))[1]"[2]، ولفظ الحديث الأخير وإن كان خيرا، فإن معناه أمر، أي كما أنّ الرّجل إذا تألم بعض جسده، سرى ذلك الألم إلى جميع جسده، فكذا المؤمنون ليكونوا كنفس واحدة، إذا أصاب أحدهم مصيبة، يغتمّ جميعهم ويقصدوا إزالتها"[3]، وإنّما يتحقّق هذا، بتعميق الشّعور بالجماعة في نفس المؤمن، هذا الشّعور، الّذي يقوم أوّل وقبل كلّ شيء على أن يخفّف من سيطرة مصلحته الشخصية، ولا يهضم

---

[1] شرح النووي. 184/7 نقلا عن قرص المكتبة الألفية.
[2]
[1]
[2]
[3]

حقّ جماعته، وجماعته من عداه من أقاربه وجيرانه ومواطنيه"[4]، الذي يعمل على مساعدتم، ورحمتهم، والذبّ عليهم قدر قدر الإمكان.

ومّما يدلّ على التّرابط الشّديد بين التكافل الاجتماعي، وبين الإيمان بالله تعالى، قوله تعالى :﴿ خذوه فغلّه (30) ثمّ الجحيم صلّوه (31) ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلوكوه (32) إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم (33) ولا يحضّ على طعام المسكين (34)﴾ [.الحاقة: 30-34].

فالملاحظ من هذه الآيات الكريمة أن ذلك الفرد الذي أخذ إلى جهنّم في سلسلة عظيمة، ثقيلة، وصبّت عليه جميع أسباب الإهانة والمذلّة، لم يذكر في حيثيات الحكم عليه إلاّ أمران : 1- إنّه لا يؤمن بالله العظيم، 2- ولا يحضّ على الطعام المسكين. وعدم الإيمان بالله هو في حكم الإسلام أكبر ذنب واعظم جريمة، فإذا قرن بالكفر هنا هو عدم الحضّ على طعام المسكين"[5].

- ﴿أرأيت الّذي يكذّب بالدّين (1) فذلك الّذي يدعّ اليتيم (2) ولا يحضّ على طعام المسكين (3) فويل للمصلّين (4) الّذين هم عن صلاتم ساهون (5) الّذين هم يراؤن (6) ويمنعون الماعون (7)﴾ [الماعون: 1-7]، فملاحظ أنّ الله تعالى، يصف للنّبي ﷺ المكذّب بالدّين، "أي المعاد والجزاء والثواب"[1]، بصفات تدلّ على قسوة القلب، وعدم الرّحمة، وعدّم الشعور بما يعانيه أفراد جماعته، فقال عزّ من قائل :﴿ فذلك الّذي يدعّ اليتيم﴾ ، أي هو الّذي يقهر اليتيم، ويظلمه حقّه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه[2]،﴿ولا يحضّ على طعام المسكين﴾ "يعني الفقير الذّي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته"[3]، وإذا كانت هذه صفات المكذّبين بالمعاد، فبمفهوم المخالفة، يتوضّح أنّ صفات المؤمنين بالمعاد هي، رحمة اليتيم والإحسان إليه والحضّ على طعام المسكين وهذا ما أثبته الله تعالى لهم، حيث قال :﴿ ويطعمون الطعام على مسكينا ويتيما واسرا (8) إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكور (9)﴾ [الإنسان: 8-9]، وطبعا هذه الصّفات من سمات التكافل الاجتماعي.

---

[4] الإسلام في حياة المسلم لـ: محمّد البهي. (دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط، د.ت) ص: 237.
[5] السلوك الاجتماعي في الإسلام لحسن ايوب ص : 11
[1] تفسير القرآن الكريم لابن كثير. 555/4.
[2] المرجع نفسه.
[3] المرجع نفسه.

* جعل الرّعاية الاجتماعية "ضربا من ضروب العبادة، يتقرّب بها الإنسان إلى ربّه،...، يتقرّب بها المؤمن إلى الله تعالى، وإذ يجعلها عبادة، يجعل آداءها واجبا، بإلزام الفرد نفسه بالإيمان بالله وبالوحي،..وإذ يجعل العبادة قربى إلى الله، يضمّنها الحافز النّفسي على الآداء،..حافز الحصول على رضا الله تعالى، أمر لا يعد له في نفس المؤمن، دنياه التي يعيش فيها ويحصّل متعها، قال تعالى :﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ والله بما تعملون بصير ﴾ [4][البقرة: 265].

*قوله ﷺ : ((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))، و"الرماد نفي الإيمان الكامل عنه، وذلك لأنّه يدلّ على قسوة قلبه، وكثرة شحّه، وسقوط مروءته، وعظيم لؤمه، وخبث طويّته"[1].

يتبيّن من هذه النّصوص، المقصود من التّكافل المادّي، وبعدما عرفنا العلاقة التي تربطه بالإيمان بالله تعالى، لنا أن تعرف الآن، كيف يتمكّن الإيمان بالله تعالى من زرع مبدأ التّكافل بين أفراد المجتمع.

إنّ الإيمان بالله تعالى، إنّما يحمل بين طيّاته معنى الإذعان لأوامره تعالى، الابتعاد عن ارتكاب نواهيه، والسّعي قدر المستطاع لنيل مرضاته سبحانه وتعالى ومحبّته. وعليه فإنّ تحقيق التّكافل الاجتماعي في وسط المجتمع المؤمن، مناط بأمرين اثنين :

1= درجة التزام المؤمنين بالتنظيم الإلهي للتّكافل الاجتماعي.

2= درجة سعي المؤمنين إلى التّقرب منه تعالى، ونيل محبّته ورضاه من خلال إنفاق المال.

أمّا بالنّسبة للتنظيم التشريعي الإلهي، الإلزامي لمبدأ التّكافل، فإنّه يتميّز بميزتين :

أ-بيان الفئات الضعيفة، التي يجب التّكفل بها، سواء على مستوى الأسرة كالزّوجة والأولاد القاصرين، أو على مستوى القرابة، ففي حالة احتياج هؤلاء الأقارب إلى النّفقة على أنفسهم وعجزهم عن تحقيق ذلك، حيث " تتّفق المذاهب في وجوب النّفقة على الأصول (الأب، الجد،..)، والفروع (الابن، ابن الابن،...)، ويزيد بعضها (كالمذهب الحنبلي)، من بينهم توارث،فمن ترثه إذا مات، تجب عليك نفقته

(4)
(1)

إذا احتاج ومنت أنت موسرا"[2]. أو على مستوى التمع، كما في قوله تعالى :﴿ إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة: 60].

ب-تحديد الموارد المالية، التي يتمّ بواسطتها، التّكفل بتلك الفئات المحتاجة، وهي : الزّكاة، الخراج، الرّكاز، الغنائم، زكاة الفطر، مال من لا وارث له[1].

وأمّا بالنّسبة لسعي المؤمنين لنيل مرضاته تعالى، فقد اصطلح عليه بـ"التنظيم الطّوعي"، وهو تنظيم "يستمدّ من وازع الضّمير الدّيني، ودافع التّقوى، والتّقرب إلى الله، والرّغبة في مرضاته وثوابه، والخشية من غضبه وعقابه"[2] ويشمل هذا التّنظيم النواحي الآتية [3]:

أ- الإنفاق لوجه الله تعالى :وقد تكرّرت الدّعوة إلى الإنفاق في القرآن الكريم، التي جاءت في "صيغة الأمر أو وصفا للمؤمنين في معرض الثناء عليهم نحوا من خمسين آية". منها قوله تعالى :﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (261) الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (262)﴾ [البقرة: 261-262].

إذن "في موكب الحياة الواهبة، يتّجه بالضّمير البشري إلى البذل والعطاء، إنّه لا يعطي، بل يأخذ، وإنّه لا ينقص بل يزاد...وتمضي موجة العطاء إلى النّماء في طريقها، تضاعف المشاعر، التي استجاشها مشهد الزّرع والحصيلة، إنّ الله يضاعف بلا عدّة ولا حساب،... ولكن أيّ إنفاق هذا، الذي ينمو ويربو ؟ وأيّ عطاء هذا الذي يضاعفه الله في الدّنيا والآخرة لمن يشاء ؟ إنّه الإنفاق الذي يرفع مشاعر الإنسانية، ولا يشوبها، الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة، ولا يخدش شعورا،... ويتّجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه"[4].

وصدق أحد الشعراء حين قال :

---

[2] نظام الإسلام: الاقتصاد، مبادئ وقواعد عامّة لـ: محمد المبارك (دار الفكر: بيروت- لبنان، ط 3، د.ت) ص: 139.

[1] انظر: منهاج الصّالحين من أحاديث وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين لـ: عز الدين بليق (دار الفتح: بيروت – لبنان، ط: 140هت- 1984م) ص: 215-220.

[2] نظام الإسلام لمحمد المبارك ص: 151.

[3] انظر المرجع نفسه. ص: 152 – 156.

[4] في ظلال القرآن لسيّد قطب. 306/1.

خلّ إذا جئت يوما لتسأله ❁ أعطاك ما ملكت كفّاه واعتذار.

يخفي صنائعه والله يظهرها ❁ إنّ الجميل إذا أخفيته ظهرا.

كما صدق العباس بن عبد المطّلب رضي الله عنه حين قال : لا يتمّ المعروف إلاّ بثلاث خصال : تعجيله وتصغيره، وستره، فإذا أعجلته هنيته، وإذا صغّرته أعظمته، وإذا سترته أتممته[1].

ب= الكفّارات النّذور : حيث تساهم كفّارات الذّنوب، وكذا النّذور المالية، في سدّ بعض حاجات المجتمع، وتعين على التّكفل بالفئات الضعيفة أو العاجزة، نذكر من بينها، ما وضّحه الله تعالى من خلال قوله :﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعموه أهليكم أو كسوتم أو تحرير رقبة﴾ [المائدة: 89]، هذا عن كفّارة اليمين، وقال تعالى في بيان كفّارة الإفطار في رمضان لمن يطيقونه :﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ [البقرة: 184]، وقال لبيان كفّارة الظّهار : ﴿فمن لم يستطيع فإطعام ستين مسكينا﴾ [المجادلة: 4]، وغيرها من الكفّارات، التي تسدّ ثغرة من ثغرات العوز والفقر في المجتمع.

ج= الأوقاف : التي ساهمت في حلّ العديد من المشاكل الاجتماعية، التي كانت تعاني منها فئات المجتمع المحتاجة، والضعيفة، وقد "كان المسلمون الأوائل، يدكون ذلك ويفقهونه، فاستغلوه أحسن استغلال، وأفادوا منه إفادة كبيرة، وإنّا نجد في جميع البلاد العربية الآن، أوقافا، وقفها أصحابها في أزمنة سابقة، لتؤذي في المجتمع أدوارا في المساعدة والمعاونة، تدلّ على حسن إدراكهم، وعلى فقههم في دينهم، وحسن صلتهم بربّهم،...فهناك أوقاف لإطعام إيواء الكلاب والقطط الضّالة، وأوقاف للخدم إذا طردوا..وأوقاف للإمداد الخدم بالصّحون السّليمة إذا كسروا ما بأيديهم من صحون، وأوقاف للعجزة والمرضى...الخ كلّ هذا يدلّ على تراحم المؤمنين وتوادّهم فيما بينهم، لدرجة تصل إلى التّفكير في مختلف المشاكل، التي قد تؤزق المؤمن، والعمل على حلّها بكلّ محّبة وإخلاص ولا يريدون من جزاء ذلك جزاء ولا شكور، وإنّما يسعون وراء تحصيل رضى الله تعالى، ونيل محّبته وثوابه.

د= الصّدقة الجارية: ورد الحضّ على الترغيب فيها من خلال قوله ﷺ : ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[1]، "والصّدقة الجارية، يمكن أن

(1) المجتمع والحياة لـ: علي عبد المنعم عبد الحميد. (دار القلم: الكويت، ط:1، 1401هـ - 1981م). ص: 84.

تكون وقفا، ويمكن أن تكون غير وقف، كأن يدفع إنسان مالا من دخله باستمرار في كلّ شهر أو سنة لجهة خير، كمعالجة المرضى ورعاية الأيتام واللّقطاء، وبناء المستشفيات والملاجئ، والمياتم والإنفاق على تعليم الطّلبة النّابغين[2].

و= الوصية: حيث يسمع للمؤمن، أن يوصي بثلث ماله لينفق بعد وفاته، في مجال من مجالات الخير.

نلاحظ من خلال كلّ هذه الأوجه، التي تعدّ مصادر للحصول على المال، وإنفاقه في سبل الخير، أنّ الإيمان بالله تعالى، يولّد حافزا بنفس الفرد المؤمن، يدفعه إلى الإنفاق من ماله، لرعاية الفئات الضعيفة في ا لتمع، لأنّ تلك الفئات تضمّ إخوته في الإيمان، وأحبّته في الله، ولأنّ تلك الرّعاية، تقرّبه إلى الله تعالى، وتمكّنه من نيل محبّته.

ثانيا : ا لتمع المؤمن متكافل معنويا :

إنّ الإيمان بالله تعالى، يزرع التّكافل المادّي بين أوساط ا لتمع المؤمن فإنّه عمل أيضا على زرع التّكافل المعنوي بين أفراده، ذلك لأنّ الإنسان ليس جسدا وحسب، بل إنّه جسد وروح، ولا بدّ من تحقيق حاجات الرّوح والعناية با، تماما كما تحقّق حاجات الجسد ولعلّ العناية با تكون أكثر، ولهذا جعل الله تعالى، المؤمن باعتباره فردا من أفراد ا لتمع مسؤولا على الحفاظ على الأخلاق العامّة، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعال : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويطيعون الله ورسوله﴾ [التوبة:71].

"والمعروف اسم لكلّ فعل يعرف بالعقل أو الشّرع حسنه، والمنكر، ما ينكر با"[1]، وقد بيّن القرطبي عند تفسير هذه الآية، أنّ أخصّ صفات المؤمن الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، ولهذا وصف الله تعالى الأمّة الإسلامية بالخيرية، نظرا لا تصافها بسمة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حيث قال

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: 1631 ص: 3/ 1255. واخرجه الترمذي في سنة كتاب: الأحكام، باب: الوقف، رقم : 1376 ص: 660/3، وقال أبو عبيد أهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في سننه. باب: الوقف، رقم 12415، ص: 278/6، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب: ما جاء في الصدقة عن الميت، رقم : 2880، ص : 117/3.

(2) نظام الغسلام لمحمد مبارك. ص: 153-154.

[1] المفردات في غريب القرآن للأصفهاني. 331/1. نقلا عن قرص مشاهير القراء.

تعالى : ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: 110].

فالله تعالى وصف الأمّة المؤمنة بهذه الصّفة ليدلّها على أنّها لا توجد وجودا حقيقيا إلاّ أن تتوافر فيما هذه السّمة الأساسية، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني، فإمّا أن تقوم بالدّعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر مع الإيمان بالله تعالى- فهي موجودة ومسلمة. وإمّا أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة، وغير متحقّقة فيها صفة الإسلام[2]، ولا صفة قوّة الإيمان، فالرّسول ﷺ يقول : ((من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[3]. فالمؤمن مطالب بتغيير المنكر بالفعل، فإن لم يستطع "لكونه فاعله أقوى منه، فبلسانه، أي يغيّره بالقول، وتلاوة ما أنزل الله من الوعيد عليه، وذكر الوعظ، والتّخويف والنّصيحة، وإلاّ فبقلبه، بأن لا يرضى به، وينكر في باطنه على متعاطيه، فيكون تغييرا معنويا، إذ ليس في وسعه إلاّ هذا القدر من التغيير[4].

ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا رائعا، يصوّر من خلاله حالة المجتمع، إذا ما أقيمت فيه مهمة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وإذا لم تقم، فقال : ((مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الّذين في أسفلها، إذا انتقوا من الماء، مرّوا على من فوقهم، فقالوا، لو أنّا خرقنا من نصيبنا خرقا، ولم نؤذي من فوقنا! فأن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا))[1]، وهذا يعني أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، يحفظ الأمّة من الهلاك، ويعضّد هذا قوله تعالى : ﴿فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقّية ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلا ممّن أنجينا منهم واتّبع الّذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ بهود: 116]، كما يقصده قوله ﷺ : ((والّذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثمّ تدعونه فلا يستجاب لكم))[2].

وإلى جانب هذا فإنّ إقامته، تعدّ شرطا من شروط النّصر والتمكين، حيث قال تعالى: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويّ عزيز (40) الّذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا

---

[2] في ظلال القرآن لسيّد قطب. 448/1.
[3]
[4]
[1]
[2]

بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (41)﴾ بالحج: 40-41]. إذن الآمرون بالمعروف والّناهون عن المنكر "يحقّقون بذلك صفة الأمّة المسلمة، التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه، هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون منهجه الذي أراد للنّاس في الحياة، معتزّين بالله وحده دون سواه، وهؤلاء هم الّذين يعدهم الله بالّنصر على وجه التحقيق واليقين.

يعرّف الخلق في اللّغة "السّجية والطّبع، والمروءة والدّين"[1]، وأمّا اصطلاحا، فقد عرّف بأنه "قوّة راسخة في الإرادة، تـ ع با إلى اختيار ما هو خير وصلاح –إن كان الخلق حميدا- أو إلى اختيار ما هو شرّ وجور، إن كان الخلق ذميما"[2].

يظهـ ـر من التّعريفين –اللّغوي والاصطلاحي- أنّ بينهما نقاط تلاق، تمثّلت في أنّ الخّلق، يحمل صفة "الرّسوخ"، ولذلك أطلق لغة على "الطّبع"، وكذلك يشتمل على صفة "الخيرية"، ولذلك –أيضا- أطلـ ـق في اللّغة على المروءة، والدّين، لكن ما لم يشر إليه التّعريف اللغوي، هو أنّ الخلق، قوّة قادرة على الانحـ ـراف عن مسار الخير، إلى مسار الشرّ والجور، فالخلق ليس قوّة خيّرة تماما، ولا قوّة شرّيرة تماما.. ومـ ـا سأحاول بيانه –بإذن الله تعالى- في هذا المبحث، هو العلاقة الرّابطة بين الخلق، باعتباره قوّة قادرة على اتّباع سبل الخير، أو على الجنوح إلى سبل الشرّ،

-ثمّ فيما تكسن هذه العلاقة ؟

-وما هي نتائجها العملية ؟

كلّ هذه الأسئلة، سأحاول الإجابة عنها، في النّقاط الآتية :

1= بيان علاقة الإيمان بالأخلاق.

2= الإيمان قوّة دافعة إلى مكارم الأخلاق.

3= الإيمان قوّة حافظة من مساوئ الأخلاق.

---

[1] : القاموس المحيط. ص: 1137/1.

[2] : دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدّولية لـ: محمد عبد الله درّاز. (دار القلم: الكويت، ط: 1400 هـ - 1980م). ص: 88.

المطـلب الأوّل
علاقـة الإيمـان بالأخـلاق

ما يدلّ دلالة أكيدة، على وجود رابطة متينة بين الإيمان والأخلاق، هو العناية الخاصّة، والمميّزة، التي أولاها الله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ بها، حيث توجد في القرآن الكريم، ألف وخمسمائة أربع آيات، تتّصل بالأخلاق،..وهذا المقدار يمثّل ما يقرب من ربع آيات القرآن"[1]، والجدير بالذّكر هو أنّ تلك الآيات، "لم تترك صغيرة، ولا كبيرة، من فاضل الأخلاق ،...إلاّ أشارت إليها، منوّهة بالأولى، وفاعلّيتها، والمتحلّين بها، وحاثّة عليها، ومندّدة بالثّانية ومقترفيها، وزاجرة عنها"[2]، كما لم تحد السّنة الشّريفة عن هذا المسار، حيث بّينت في عدد لا يستهان به من الأحاديث، مكانة الخلق الحسن، ودعت إلى التّحلي به، وكذا انتبهت إلى الخلق السّيء، ودعت إلى التّحلي عنه.

وهذه بعض الأدلة من الكتاب والسّنة، توضّح أكثر درجة ارتباط الإيمان بالأخلاق :

1= قوله تعالى :﴿ اقرأ باسم ربّك الّذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربّك الأكرم (3) الّذي علّم بالقلم (4) علّم الإنسان ما لم يعلم (5) كلاّ إنّ الإنسان ليطغى (6) أن رّءاه استغنى (7) إنّ إلى ربّك الرّجعى (8) أرأيت الّذي ينهى (9) عبدا إذا صلّى (10) أرأيت إن كان على هدى (11) أو أمر بالتّقوى (12) أرأيت إن كذّب وتولّى (13) ألم يعلم بأنّ الله يرى (14) كلاّ لئن لم ينته (15) لنسفعا بالنّاصية (16) ناصية كاذبة خاطئة (17) فليدع ناديه (18) سندع الزّبانية (19) كلاّ لا تطعه واسجد واقترب (20)﴾ [العلق:1-19].

فالملاحظ من المقطع الأوّل من هذه السورة الكريمة، والذي يبدأ من قوله :﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾ إلى قوله تعالى :﴿ علم الإنسان ما لم يعلم﴾ ، أنّه يضع "قاعدة التّصور الإيماني العريضة كلّ أمر، كلّ حركة، كلّ خطوة، كلّ عمل باسم الله، وعلى اسم الله، وباسم الله تبدأ، وباسم الله تسير، وإلى الله تتّجه، وإليه تصير.

والله هو الذي خلق، وهو الذي علّم، فمنه البدء والنّشأة، ومنه التعليم والمعرفة، والإنسان يتعلّم ما يتعلم، ويعلم ما يعلم، فمصدر هذا كلّه الله، الذي خلق وعلّم، ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [1].

---

(1)

[2] الدستور القرآني. ص : 327-328.

[1] : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 3939/6.

ثمّ يربط الله تعالى، هذه القاعدة الإيمانية، بلفتة أخلاقية واضحة[2] ألا وهي : تنكّر الإنسان – حينما تفسد فطرته- لهذه الحقيقة، فقال تعالى :﴿ كلاّ إنّ الإنسان ليطغى (6) أن رآه استغنى (7)﴾ [العلق: 6-7].

"ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة، حقيقة أنّ الله هو الذي خلق، وهو الذي علّم، وهو الذي أكرم، أن يعرف الإنسان، وان يشكر، ولكن الذي حدث كان غير هذا[3]، حيث قال تعالى :﴿ كلاّ إنّ الإنسان ليطغى (6) أن رآه استغنى (7)﴾ [العلق:6-7].

"ولنقف هنا عند الطغيان...إنّه "خلق".. خلق جاهلي، يذكر من أسبابه هنا سببان رئيسيان : توهّم الإنسان أنّه استغنى عن خالقه،...وعدم إيمان ذلك الإنسان بأنّ هناك رجعى إلى الله"[4].

ثمّ يبيّن الله تعالى لعباده خلقا آخر، ليس بأقل شناعة من سابقه حيث قال –عزّ من قائل :﴿ كلاّ لئن لم ينته لنسفعا بالنّاصية (15) ناصية كاذبة خاطئة (16)﴾ [العلق:15-16]، إنّه خلق الكذب، وأيّ كذب على الله وكذب على الفطرة التي فطرها الله، وكذب على الحقّ الذي خلق الله به السّماوات والأرض،..ولكنّه أوّلا وآخر الخلق..وفي المقابل تذكر الأخلاقيات، الّتي يتحلّى با المؤمنون، التّقوى في مقابل الطغيان، والسّجود والاقتراب من الله بالعمل الصّالح، في مقابل الكذب على الله وعلى الحقّ[1]، وهكذا وفي خضمّ بيان العقيدة التي يجب أن يتبنّاها الإنسان، يبيّن الله تعالى، بعض الأخلاق، التي تجعله يحيد وينحرف عن هذه العقيدة الصّحيحة وفي هذا تنبيه إلى درجة تأثير –وكذا تأثّر- الأخلاق في عقيدة الفرد، حيث أنّ الأخلاق السّيئة تؤدي إلى عقيدة منحرفة، والأخلاق الحسنة تؤدي إلى عقيدة صحيحة[2].

2= وجود آيات كثيرة في القرآن الكريم، "تبدأ بتوضيح العقيدة الخالصة للمسلم، وتحثّه على التمسّك با، ثمّ يلي ذلك الحثّ على مكارم الأخلاق"[3]، نأخذ كمثال على ذلك قوله تعالى:﴿ وقضى ربّك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (23) واخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا (

---

(2) : أنظر مقتضيات لا إله إلاّ الله. ص : 78.
(3) : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 3941/6.
(4) : مقتضيات لا إله إلاّ الله لمحمد قطب. ص : 79.
(1) : المرجع نفسه. ص: 80.
(2) : انظر المرجع نفسه.
(3) : في العقيدة الإسلامية والأخلاق لـ: محمد عبد التّواب السيّد يوسف وآخرين (الدار الإسلامية الطباعة والنشر منصورة – مصر، ط: 1410هـ- 1990م) ص : 282.

24) رّبكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإّنه كان للأّوابين غفورا (25) وآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السّبيل ولا تبذّر تبذيرا (26) إنّ المبذرين كانوا إخوان الشّياطين وكان الشّيطان لربّه كفورا (27) وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من رّبك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا (28) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورا (29 إنّ رّبك يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر إّنه كان بعباده خبيرا بصيرا (30)﴾ [الإسراء: 23-30]

فالله تعالى يبدأ هذه الآيات الكريمة "باّلنهي عن الشّرك، وبإعلان قضاء الله بعبادته وحده، ومن ثمّ تبدأ الأوامر واّلتكاليف : برّ الوالدين، وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السّبيل، في غير إسراف ولا تبذير، وتحريم القتل،...، وينتهي باّلتحذير من الشوك، بقوله تعالى : ﴿ولا تجعل مع الله إلاها آخر فتلقى في جهّنم ملوما مدحورا﴾ [الإسراء: 39]، فإذا الأوامر واّلنواهي واّلتكاليف محصورة، ومشدودة إلى عقيدة اّلتوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة[1].

3= أنّ الله سبحانه وتعالى، "عندما يدعو إلى خير وينفّرهم من شرّ، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقرّ في قلوبم، وما أكثر ما يقول في كتابه :﴿ يا أّيها الذين آمنوا﴾ ، ثمّ يذكر بعد ما يكلّفهم به"[2]. نأخذ كمثال على ذلك قوله تعالى :﴿ يا أّيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظّالمون (11) يا أّيها اّلذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واّتقوا الله إنّ الله توّاب رحيم﴾ [الحجرات: 11-12].

4= قوله ﷺ : ((إّنما بعثت لأتّم مكارم الأخلاق))[1]، فمن هذا الحديث الشّريف، يبّين رسول الله ﷺ "الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته،...فكأنّ الرّسالة، التي خطّت مجراها في تاريخ الحياة، صاحبها جهدا كبيرا، في مدّ شعاعها، وجمع اّلناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم،

---

[1] : في ظلال القرآن لسيّد قطب، 2220//4.

[2] : خلق المسلم لـ: محمّد الغزالي. (دار رحاب للنشر: الجزائر، ط: 4، 1422هـ- 2001م) ص : 10.

[1] : أخرجه محمّد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي في مسند الشهاب. (مؤسسة الرسالة: بيروت – لبنان، ط: 2، 1407-1986، تبع حمدي بن عبد المجيد السّلفي. باب، إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، رقم: 1165، ص: 192/2؛ ةأخرجه الحاكم في المستدرك، باب: ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوّة، رقم: 4221، ص: 670/2. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة"[2]، وعليه فإنّ الإيمان بذه الرّسالة، هو عمل على تكملة مكارم الأخلاق، في حياة البشرية.

5= ما روي عنه ﷺ من أنّه دخل على جماعة من أصحابه فقال : ((أمؤمنون أنتم ؟))، فسكتوا، فقال عمر رضي الله عنه : نعم يا رسول الله ﷺ قال ﷺ : ((وما علامة إيمانكم ؟))، قالوا : نشكر على الرّخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء". فقال ﷺ: ((مؤمنون وربّ الكعبة))[3]، وواضح من هذا الحديث الشّريف، "كيف أنّ الرّسول ﷺ جعل الأخلاق الفاضلة دليل على الإيمان"[4].

6= قوله ﷺ : ((أربع من كنّ فيه، كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ، كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها : إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر))[1]، ومن البيّن أنّ النّفاق قضية متعلّقة بالعقيدة، والكذب والغدر وخلف الوعد والفجور في الخصومة، قضايا أخلاقية[2]، فإذا كانت هذه الأخلاق السّيئة دالة على عقيدة النّفاق المنحرفة، فبمفهوم المخالفة، نجد أنّ الخلاق الفاضلة، دالة على العقيدة الصحيحة، وهي عقيدة الإيمان بالله تعالى.

7= نفي الإيمان التّام عن المتّصف ببعض مساوئ الخلاق، كما ورد في قولهﷺ : ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن)) قيل : من يا رسول الله، قال : ((الذي لا يأمن جاره بوائقه))[3].

كانت هذه –إذن- بعض النّقاط، التي تثبت وجود علاقة رابطة بين الإيمان والأخلاق لكن فيما تكمن هذه العلاقة، بعد أن تثبت وجودها ؟

رأينا فيما سبق، أنّ الأخلاق، قوّة راسخة في الإرادة، لها قدرة على فعل الخير، وعلى فعل الشرّ أيضا : ولهذا ينبغي البحث عن مصدر، يوجّه هذه القوّة نحو الخيرات، ويبتعد بها عن كلّ شرّ، وهذا شأن

---

(2) : خلق المسلم للغزالي. ص : 7.

(3) : أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي في مجمع الزوائد (دار الريان للتراث، القاهرة: دار الفكر العربي، بيروت، ط: 1407، باب في اللإسلام والإيمان، ص: 52/2. وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (دار الحرمين: القاهرة- مصر، ط: 1415، تبع: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن ابراهيم الحسيني). رقم: 9427. ص، 163/9، وأخرجه أيضا في المعجم الكبير (تع: حمدي ابن عبد المجيد السّلفي، مكتبة العلوم والحكم الموصل، رقم: 11336، ص: 285.

(4) : في العقيدة الإسلامية والأخلاق لـ: محمد عبد التواب وآخرين. ص: 285.

(1) : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب: بيان خصال المنافق. رقم 58. ص: 78/1، وأخرجه البخاري في
صحيحه، كتاب: المظالم، باب: إذا خاصم فجر.رقم: 2327، ص: 868/2.

(2) : أنظر مقتضيات لا إلاه إلاّ الله لمحمد قطب. ص: 77.

(3) : تم تخريجه في ص: .

كلّ نظام أخلاقي، إذ لا بدّ له أن يستند على فكرة الإلزام، ذلك أنّ الإلزام هو "القاعدة الأساسية والمدار، والعنصر النّووي، الذي يدور حوله، كلّ النّظام الأخلاقي، والّذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته، وفناء ماهيّتها"[4]، وقد عرّف الإلزام بأنّه : "إلزام المكلّف بتصديق ما قرّره الملزم، من الحق، وتنفيذ ما شرعه من الأحكام، والأخذ بما وصّى به من مكارم الأخلاق،والعزوف عمّا نهى عنه من مساوئها"[5]، وهذه القضية –قضية تحديد مصدر الإلزام- "منذ منشئها مرتبطة بالإله المعبود، أهو الله أم غير الله ؟ فإذا كان الله هو المعبود، فالمعايير التي يجب العمل بها، هي المعايير الرّبانية، أمّا إن كان المعبود غير الله –معه أو من دونه- فالمعايير تضعها الآلهة المعبودة من دون الله،...وهي في جميع الحالات من صنع الشيطان في النّهاية، فإن العبادة نوعان اثنان في الحقيقة، إمّا عبادة الله، وغمّا عبادة الشّيطان، قال تعالى :﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوّ مبين (60) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (61)﴾ [يس:60-61][1]، وعليه لمّا كان الله تعالى، هو الله الواحد الأحد، فهذا يعني أنّه الوحيد، الذي يمثّل مصدر الأخلاق، ومصدر الإلزام بها، فبحكم أنّه تعالى : العليم الخبير، فهو "الذي يحدّد ما هو خير وما هو شرّ، ومن ثمّ فهو الذّي يحدّد معايير الأخلاق بالضّبط، كما يحدّد تعاليم الشريعة سواء بسواء، فالمصدر في الحالين واحد، والاعتبارات في الحالين واحدة"[2]، وبهذا كان "مصدر الأخلاق الإسلامية، ونبعها القرآن الكريم، والتّطبيق الكامل، الرّائع، النّموذجي للأخلاق الإسلامية، أخلاق الرّسول ﷺ فقد كان خلقه القرآن، وقد كان قرآنا يمشي في الطّرقات"[3].

والآن تجدر الإشارة، إلى أنّ فكرة الإلزام، التي تمّ بيانها، يرتبط بها "ناتجان يستلزم أحدهما الآخر، بدوره ويؤيّده، ويدعمه، هما فكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء...فإذا ما وجدت الأولى –أي فكرة الإلزام- تتابعت الأخريات على إثرها، وإذا اختفت ذهبتا على الفور في أعقابها، فالإلزام بلا مسؤولية، يعني القول بوجود إلزام بلا فرد ملزّم، وليس بأقلّ استحالة من ذلك، أن نفترض كائنا ملزما ومسؤولا، بدون أن تجد هذه الصّفات ترجمتها وتحقّقها في "جزاء" مناسب"[4]. والنّاظر في كتاب الله، القرآن

---

[4] : دستور الأخلاق في القرآن الكريم لـ: محمد عبد الله درّاز. (تبع: عبد الصّبور شاهين، مؤسسة الرّسالة: بيروت، وداي البحوث العلمية: الكويتية، ط: 9، 1416هـ-1996م) ص: 21.

[5] : الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام لـ: مصطفى حلمي. (المؤسسة الفنية للطّباعة والنّشر: الحيزة- مصر، ط: 1407هـ-1987م) ص: 137، نقلا عن : التربية الإسلامية في القرآن لنديم الجسر ص: 102.

[1] : مقتضيات لا إله إلاّ الله. لمحمد قطب، ص: 83.

[2] : المرجع نفسه.

[3] : الفكر الأخلاقي" دراسة مقارنة لـ: محمد عبد الله الشّرقاوي (دار الجيل: بيروت _ لبنان ومكتبة الزهراء: القاهرة _ مصر، ط: 1، 1410هـ-1990م) ص: 111.

[4] : دستور الخلاق في القرآن لعبد الله دراز. ص: 136.

الكريم، يلاحظ أنّ الله –سبحانه وتعالى- بيّن أنّ المؤمن صار مسؤولا أمامه، حينما ابرم ميثاقه معه بالسّمع والطّاعة، حيث قال تعالى :﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واّتقوا الله إنّ الله عليم بذات الصّدور﴾ [المائدة: 7]. فإذن "هذا هو الميثاق ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾، وهو ميثاق لا إله إلاّ الله، التي تعني –فيما تعني- الالتزام بما جاء من عند الله"[1]، وبناء على ذلك أصبحت مكارم الأخلاق والفضائل –التي جاء بها الوحي- من منظور إسلامي، فرائض، مفروض على المسلم أن يلتزم بما فرض الله الالتزام به، ويجتنب ما فرض الله اجتنابه،...ولمّا كان لكلّ خلق ما يخالفه ويضادّه، أصبح من المعلوم، أنّ ما هو واجب الالتزام شرعا، فإنّ ضدّه واجب المخالفة شرعا[2].

وبذا صار المؤمن مسؤولا على تنفيذ ما ذكر، بموجب قبوله للميثاق بكلّ إرادة وحرّية، ثمّ وفقا لكيفية هذا التنفيذ، يكون الجزاء، وقد تضمّن القرآن الكريم، ثلاثة ميادين له

هي : الجزاء الأخلاقي، الجزاء القانوني، الجزاء الإلاهي[3].

أمّا الأوّل، "فيمثل في الحسنة والسّيئة[4]، فإذا التزم المؤمن بتنفيذ ما تعهّد تنفيذه، كما أمره الله تعالى، فله الحسنات، أمّا إذا تخاذل، ولم يلتزم بتنفيذها فله السّيئات، وهذا جزاء يؤثر على ضمير المؤمن.

وأمّ الثاني، فيعني "أساسا العقوبة، بالمعنى الواسع للكلمة، الذي يضمّ الإجراءات التأديبية، والإجراءات العقابية بالمعنى الصحيح على السواء[5]، والتشريع الإسلامي، جعل لّنظام العقابي مرتبتين، الحدود، كحد الرقة، والزنى، القذف،... ومرتبة التعزيرات، التي تترك لتقدير القاضي[1]. وهذا الجزاء، كما هو ملاحظ، تأثيره ينصب على الجسد.

وأمّ الجزاء الآخر، أي الجزاء الإلهي فإنّ الله تعالى يبّين أّنه "سوف يحدث في موعدين، يستوي في ذلك الصّالحون والطالحون، يقول الله سبحانه :﴿ ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب الّنار﴾ [:]، وفي الطالحين يقول :﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون

---

(1) : مقتضيات لا إلاه إلاّ الله. ص: 81.

(2) : فلسفة التربية في الإسلام: إنتماء وارتقاء. لأحمد رجب الأسمر (دار الفرقان: عمان الأردن، دت، ط) ص: 459.

(3) : دستور الأخلاق لـ: درّاز، ص : 245.

(4) : المرجع نفسه. ص: 261.

(5) : المرجع نفسه.

(1) : المرجع نفسه. ص: 262.

ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يرّدون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عمّا تعملون﴾ [:][2].

وهذا الجزاء الدنيوي أو الأخروي تبّينه آيات كريمة أخرى، حيث يتبّين بمجموعها أنّه جزاء مادّي، وأخلاقي أيضا.

ولكي يتمكّن المؤمن من الالتزام بهذا الميثاق، عمل القرآن الكريم على تربية ضمير المؤمن وتحسيسه "برقابة الله تعالى وتذكيره بحساب اليوم الآخر، فأمّا الأولى، فلكي يّتقي الله تعالى في سرّه وعلنه وحتّى يّتقي "غضبه تعالى وسخطه، وعذابه باجتناب ما نهى عنه من أخلاق، وأفعال، ومواقف، وما حرّمه وحظره، وندّد به، وأوعد صاحبه، والتزام ما أمر به من أخلاق وأفعال ومواقف وما حثّ عليه وبشّر صاحبه[3]، وأمّا الثانية، فبها "يصبح المؤمن ويمسي مراقبا لربّه، محاسبا لنفسه، متيقّظا لأمره، متدّبر في عاقبته، لا يظلم ولا يخون لا يتطاول ولا يستكبر، لا يجحد ما عليه ولا يدّعي ما ليس له، لا يفعل اليوم، ما يخاف من حسابه غدا، ولا يعمل في السّر ما يستحي منه في العلانية، قال تعالى :﴿ وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (13) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (14)﴾ [الإسراء: 13-14][1] ، وطائر كلّ إنسان، ما يطير له من عمله، أي ما يقسم له من العمل، وهو كناية عمّا يعمله، وإلزامه له في عنقه، تصوير للزومه إيّاه وعدم مفارقته،...فعمله لا يتخلّف عنه، وهو لا يملك التملص منه، وكذلك الّتعبير بإخراج كتابه منشورا يوم القيامة، فهو يصوّر عمله مكشوفا، لا يملك إخفاءه، أو تجاهله أو المغالطة فنه[2]، ولهذا قال بعض الصّلحاء : هذا كتاب، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنف المملي على حفظتك، ما زيد فيه، ولا نقص منه، ومتى أنكرت منه شيئا، يكون لشاهد فيه، منك عليك[3]، أسلوب آخر اعتمده القرآن الكريم، لتمكين المؤمنين، من الاستجابة لأوامر الله تعالى أكثر فأكثر، هو "العناية الفائقة الّتي إلتزمها هذا الكتاب –أي القرآن الكريم- في غالب الحيان، حين قرن كلّ حكم في الشريعة بما يسوغه، وحين ربط كلّ تعليم من تعاليمه، بالقيمة الأخلاقية، التي تعدّ أساسه، ومن ذلك أنّه عندما يدعونا أن نتقّبل من أهلينا كلّ تسوية للصلح، حتّى ولو كانت في غير صالحنا، يؤّيد دعوته بتلك الحكمة﴿والصّلح خير﴾ [الّنساء: 128]، وعندما يأمرنا أن نوفي الكيل، وتزن بالقسطاس المستقيم يعقّب على هذا الأمر بقوله :

---

(2) : المرجع نفسه. ص: 344.

(3) : الدستور القرآني لـ: ص: 356.

(1) : الإيمان والحياة للقرضاوي ص: 231.

(2) : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 2217/4.

(3) : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. 230/10. نقلا عن قرص: مشاهير القراء.

﴿ذلك خير﴾ [الإسراء: 35][4]. كما أنّه تعالى ليشهدنا كذلك على المبدأ الأساسي الذي صدرت عنه الشريعة الإلاهية كلّها، حين صاغه، فقال الله تعالى :﴿ إنّ الله يأمر بالفحشاء ﴾[الأعراف: 28]. وقوله تعالى :﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النّحل: 90][5].

وبذا تطمئن كلّ النّفوس إلى هذا التّشريع، وتخضع وتنساق له بكل سهولة ويسر، وبكل رفق ومحّبة، لأنها علمت يقينا أنّ سعادتنا الحقيقية تكمن في هذا الدين.

وهكذا يكون الإيمان بالله تعالى، مصدر إلزام للعباد، لأنه الوحيد الذي يقدر على تربية الضّمير البشري، وجعله حارسا على النّفس في كلّ حركاتنا وسكناتنا، كما أنّ لن نخشى تباين توجّه الضّمائر واختلافها، باختلاف أصحابنا، لأنها تتلقّى التّربية، من مشكاة واحدة، عالمة بكلّ خبايا النّفس وخفاياها، وبكلّ ما يصلح لها، فتوّجبه، وكلّ ما يسيء إليها، فتحظره، هذه المشكاة –طبعا- هي مشكاة الوحي، كتاب الله وسّنة رسوله ﷺ .

المطلب الثـاني

الإيمان قوّة دافعة لمكارم الأخلاق

يبّين الله سبحانه وتعالى، في العديد من الآيات الكريمة، أنّ للإنسان طبيعة مزدوجة، إذ أنّ "فيها فطرة طّيبة، تهفو إلى الخير، وتسرّ بإدراكه، وتأسى للشرّ وتحزن من ارتكابه، وترى في الحقّ امتداد وجودها، وصحّة حياتنا. وفيما –إلى جوار ذلك- نزعات طائشة، تشرد بنا عن سواء السّبيل، وتزّين لها فعل ما يعود عليها بالضّرر، ونسفّ بنا إلى منصور سحيق[1]، يشهد لهذا قوله تعالى :﴿ إّنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا (2) إّنا هديناه السّبيل إمّا شاكرا وإمّا كفورا (3) ﴾ [الإنسان: 2-3]، فقوله تعالى :﴿ هديناه السّبيل﴾ أي "بيّنا له وعرّفناه طريق الهدى والضّلال، والخير والشرّ ببعث الرّسل فآمن أو كفر[2]، وقال عزّ من قائل :﴿ ونفس وما سوّاها (7) فألهمها فجورها وتقّواها (8) قد أفلح من زكّاها (9) وقد خاب من دسّاها (10)﴾ [الشمس: 7-10]، إذن فهذا الإنسان، قادر على فعل الخيرات، كما أّنه قادر على فعل السّيئات، "ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوّة الواعية، المالكة للمتصرّف، فأعانه بالرّسالات، التي تضع له الموازين

---

(4): دستور الأخلاق لعبد الله درّاز ص: 51.

(5): المرجع نفسه. ص: 52.

(1): الفكر الأخلاقي ل: الشرقاوي ص: 131.

(2): الجامع لأحكام القرآن ل: القرطبي.ص: 122/19.

الثابتة الدّقيقة، وتكشف له عن موجبات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى، فيصبر الحقّ في صورته الصّحيحة، ..وبذلك يتضّح له الطريق، وضوحا كاشفا لا غبش فيه، ولا شبهة، فنتصرّف القوّة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك الحقيقة الاتجاه، الذي تختاره وتسير فيه[1]، ومن هنا، كان الإيمان بالله تعالى ضروريا، لإعانة تلك القوّة الإرادية على اختيار السّبيل الأمثل، الذي يحسن إليها ولا يسيء والذي يدفعها دوما إلى الرّقي لا إلى الانحطاط، ذلك أنّ الإيمان بالله تعالى، قوّة دافعة إلى مكارم الأخلاق، رادعة عن مساوئها، ولنتعرّف الآن عمّا يقصد بمكارم الأخلاق ومحاسنها.

عن النّواس بن سمعان ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ عن البرّ والإثم، فقال : ((البرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطّلع عليه النّاس))[2]. فقابل البرّ بالإثم، وأخبر أنّ البرّ حسن الخلق، والإثم: حواز الصّدور، وهذا يدلّ على أنّ حسن الخلق: هو الدّين كلّه وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم : وفي حديث آخر، ((البرّ ما اطمأنت إليه النّفس، والإثم ما حاك في الصّدور))[3]، وقد فسر حسن الخلق، بأنّه البرّ فدل على أنّ حسن الخلق، طمأنينة النّفس والقلب[4]، والنّفس الصّافية، لا تطمئنّ إلاّ لكلّ جميل، وفاضل، ولهذا قيل أنّ حسن الخلق هو : التّخلي من الرّذائل، والتّحلي بالفضائل[5].

وإذا كانت مكارم الأخلاق، هي البرّ كلّه، وهي حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، فهذا إنّما يدلّ على المكانة المرموقة التي تتبوؤها في ديننا الحنيف، وهذا يتّضح أكثر فأكثر من خلال ما يأتي :

1= أركان الإسلام الخمس، تدف إلى ترسيخ مكارم الأخلاق، فهي ليست طقوسا مبهمة، من النّوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المهولة، ويكلّفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها، كلا، كلا، فالفرائض الّتي ألزم الإسلام با كلّ منتسب إليه، هي تمارين متكرّرة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق

---

(1) : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 3918/6.

(2) : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تفسير البر والإثم. رقم: 2523، ص: 4/ 1980،
وأخرجه الحاكم من المستدرك، رقم: 2170، ص: 17/2. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الزهد، باب: ما جاء
في البر والإثم، رقم 2389، ص: 597/4، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح؛ وأخرجه الدارمي في سننه، كتاب:
الرقاق، باب: البر والغثم، رقم : 2789، ص: 415/2.

(3) : أخرجه الدارمي في سننه، كتاب: البيوع، باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، رق: 2533، ص: 320/2؛
وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب: البر والإثم رقم: 175/1.

(4) : مدارج السّالكين لابن القيم الجوزية. 306/2.

(5) : المرجع نفسه. 305/2.

صحيحة، وأن يظلّ مستمسكا بذه الأخلاق، مهما تغيّرت أمامه الظّروف[1]، ودليل هذا واضح من خلال كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ: فهذه الصّلاة، يقول تعالى فيها :﴿ وأقيم الصّلاة إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ بالعنكبوت: 45]، فالصّلاة "اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذّنوب وفواحشها، ليلقى الله با، وهي تطهّر وتجرّد، لا يتّسق معها دنس الفحشاء والمنكر[2].

وعن الصّوم، يقول تعالى :﴿ يا أيها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون﴾ [البقرة: 183]. هكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصّوم إنّما التّقوى، فالتّقوى التي تستيقظ في القلوب وهي تؤذي هذه الفريضة، طاعة الله، وإيثارا لرضاه، والتّقوى هي الّتي تحرس هذه القلوب من إفساد الصّوم بالمعصية،...والمخاطبون بذا القرآن يعلمون مقام التّقوى عند الله، ووزنا في ميزانه، فهي غاية تتطلّع غليها أرواحهم، وهذا الصّوم أداة من أدواتا، وطريق موصل إليها، ومن ثمّ يرفعها السّياق أمام عيونم هدفا وضيئا، يتّجهون إليه عن طريق الصّيام ﴿لعلّكم تتّقون[3]﴾.

ومن لم يكن الصّوم حافظا له من ولوع المعاصي والرّذائل، فلا حاجة لله تعالى في صومه، ولهذا قال ﷺ : ((من لم يدع قول الزّور، والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))[1]، إذن فالله تعالى، لم ينظر إلى الصّوم على "أنه حرمان مؤقّت، من بعض الأطعمة والأشربة، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النّفس دائما من شهواتا المحظورة، ونزواتا المنكورة[2].

وعن الزّكاة، يقول تعالى :﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم با﴾ [التوبة: 103]، فما هي ذي الزّكاة، إضافة إلى ما تحمله من معاني التّعاون والتّكافل بين المؤمنين، تحمل معان أخلاقية أخرى، إنّها طهارة لنفس المؤمن وتزكية لها.

وعن الحج : يقول عزّ من قائل :﴿ الحجّ أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزوّدوا فأنّ خير الزّاد التّقوى﴾ [البقرة: 197

---

(1) : خلق المسلم للغزالي. ص: 7

(2) : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 2738/5.

(3) : المرجع السابق 168/1.

(1) : أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الصوم، باب: من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصّوم. رقم: 1804،

ص: 673/2، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب: ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم، رقم: 707

ص: 87/3؛ وأخرجه أبو داود فس سننه، كتاب: الصوم، باب الغيبة للصائم، رقم: 2362، ص: 307/25.

(2) : خلق المسلم للغزالي ص: 8.

]. فذكر الرّفث والجدال والفسوق، "والّنهي عنها ينتهي إلى ترك كلّ ما ينافي حالة الّتخرج والّتجرد لله في هذه الفترة، والارتفاع على دواعي، والرّياضة الرّوحية، على التعلّق بالله دون سواه"[3].

ومن خلال هذا العرض لأركان الإسلام، وما تحمله من معان خلقية، يتبّين لنا، مدى تساوق الإيمان بـذا الدين مع الخلق الكريم.

2= ممّا يدلّ على المكانة الرفيعة لحسن الخلق، هو أنّه يعدّ مقياس لكمال إيمان العبد، يشهد لهذا قوله ﷺ : ((أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا))[1].

3= حسن الخلق يرفع صاحبه إلى درجة قائم اللّيل، صائم الّنهار، حيث قالﷺ : ((إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه، درجة قائم اللّيل، صائم الّنهار))[2] وإن دلّ هذا شيء، فإّنما يدلّ على أنّ حسن الخلق، يرتقي إلى درجة العبادة، وأّية عبادة، إّنها الصّلاة، والصّيام.

4= كما يشهد لمكانة حسن الخلق العالية، كونه أحد السّبل الهادية إلى الجّنة، يتبّين هذا من قوله ﷺ : ((أنا زعيم ببيت في ربض الجّنة لمن ترك المراء، وإن كان محقّا، وببيت وسط الجّنة، لمن ترك الكذب، وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجّنة لمن حسن خلقه))[3]. فجعل ﷺ البيت العلوي، جزاء لأعلى المقامات الّثلاثة، وهي حسن الخلق، والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب –ولو مزاحا- والأدنى لأدناها وهو ترك الممارات وإن كان معه حقّ، ولا ريب أنّ حسن الخلق مشتمل على هذا كلّه[4].

5= يشهد لتلك المكانة أيضا، كون حسن الخلق، سببا لنيل محّبة رسولﷺ للعبد، ولقرب مجلسه منه، حيث قال ﷺ : ((إنّ من أحّبكم إليّ، وأقربكم مّني مجلسا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، وإنّ أبغضكم

---

[3] في ظلال القرآن لسيّد قطب. 196/1.

[1] : أخرجه الحاكم من المستدرك، كتاب: الإيمان، رقم 1؛ ص: 43/1، وقال: هذا حديث صحيح في الصحيحن وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة، رقم: 1162، ص: 466/3. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ وأخرجه الدارمي، كتاب: الرقاق، باب: في حسن الخلق: رقم: 2791، ص: 2/ 415.

[2] : أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب، رقم: 199، ص: 128/1، وقال هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأخرجه أحمد في مسنده. رقم: 24400، ص: 64/6، وبرقم: 22639، ص: 90/6.

[3] : أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأداب باب الحياء، رقم: 4800، ص: 253/4 وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم: 878، ص: 269/1، وفي المعجم الكبير، رقم: 7488، ص: 98/8.

[4] : مدارج السالكين لابن القيم. 307/2.

إليّ، وأبعدكم منّي يوم القيامة، الثّرثارون، والمتشدّقون[1] والمتفيهقون))[2]، قالوا : يا رسول الله، قد علمنا، الثرثارون والمتشدّقون، فما والمتفيهقون؟ قال : المتكبّرون[3].

كانت هذه –إذن- بعض النّقاط، التي جعلت حسن الخلق يتبوّأ مكانا عليّا في ديننا الحنيف، وبالتّالي كانت شواهد صريحة، على أنّ المؤمن بالله تعالى، كريم الخلق، أو سائر في طريق تحسين خلقه وترقيته.

والآن، سنحاول عرض نماذج من مكارم الخلاق، التي دعا إليها الله سبحانه وتعالى، وحث عليها، والّتي بيّن أنّ لها علاقة وطيدة بإيمان العبد.

أوّلا: الصّدق :

سبق وأن عرفنا بأنّ الإيمان بالله تعالى، له بعد أخلاقي واضح، يتمثل في كونه قوّة دافعة إلى المكرمات، ومحاسن الأخلاق، ومن أبرز تلك الأخلاق خلق الصّدق، الذي دعا إليه تعالى عباده المؤمنين، وجعله من صفات أنبيائه المرسلين، وما ذلك إلاّ لكونه اللّبنة الأولى، التي تبنى عليه رسالات الله تعالى، ولعلّ أبين مثال على ذلك : سيدنا محمّدﷺ الذي اشتهر بالصّادق الأمين، فكان صدقه مع النّاس مدعاة إلى الإيمان به وبرسالته، لأنّه من عجز عن الكذب على النّاس، فهو أعجز عن الكذب عن ربّه وخالقه.

وهكذا يصفي النّبي ﷺ برسالته قدما، يدعو المؤمنين إلى الصّدق بلسان الوحي الإلاهي قائلا :﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين﴾ [التوبة: 119]، وتارة أخرى بلسانه قائلا : ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الصّدق طمأنينة، والكذب ريبة))[4].

ولم يكتفﷺ بالدّعوة إلى الصّدق فحسب، بل قد رغّب في التّمسك به، ورهّب من الزّيغ عنه، وبالتالي الوقوع في مهاوي الكذب، فقال ﷺ : ((إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة،

---

(1) : المتشدّقون: ج مفرد: متشدّق : وهو المتطاول على النّاس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحا.

(2) : المتفيهقون: ج: مفرده: متفيهق: وهو الذي يملاء فمه بالكلام ويتوسّع فيه، ويغرب به تكبّرا.

(3) :

(4) : أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الصدق والكذب: 2518، ص: 668/4؛ وأخرجه البيهقي في سننه، باب: رقم: 10601، ص: 335/5؛ وأخرجه أحمد في مسنده. رقم: 1723، ص: 1/ 200.

وإنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتب عند الله صدّيقا، وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وإنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّابا))[1].

كما قال ﷺ : ((إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به))[2]، ولا يقف الأمر عند هذه الحال، بل إنّه يصل لدرجة أن يكون الصّدق دليلا من دلائل الإيمان، حيث يقول ﷺ : ((يطبع المؤمن على الضلال كلّها، إلاّ الخيانة والكذب))[3]، فإذا استحال أن يكون المؤمن كذّابا، فهذا يعني أنّ لن يكون صادقا، وبالتّالي يكون الصّدق علامة دالة على الإيمان، ويكون الإيمان، قوّة مقضية للصّدق، دافعة له.

كما يؤكد الله سبحانه وتعالى، كون الكذب صفة، ملازمة للكافرين، حيث قال عزّ من قائل : ﴿إنّما يفتري الكذب الّذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ [النّحل: 105]، وقوله تعالى : ﴿هم الكاذبون ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب، أي كلّ كذب، قليل بالنّسبة إلى كذبهم، ويقال : كذب فلان ولا يقال : إنّه كاذب، لأنّ الفعل قد يكون لازما، وقد لا يكون لازما، فأمّا النّعت فيكون لازما[4].

ويؤكّد رسوله الكريم ﷺ أيضا، أنّ الكذب علامة من علامات المنافق، حيث قال : ((أربع من كنّ فيه، كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ، كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها : إذا إئتمن خان، وإذا حدّث كذب إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[1].

ولهذا، يجب على المؤمن –لكي يسلم من الوقوع في هذه المآزق- أن يتحرّى الصّدق في حياته كلّها، وأنّ يتحرّى الصدق بادئا ذي بدء مع نفسه، ومع ربّه، ومع النّاس أجمعين، ليدرك طمأنينة القلب، وراحة الضّمير، ذلك أنّ مصدر المشاكل كلّها ومنبعها الأساسي الكذب، الذي يغيّر الحقّ ويطمس

---

[1] : أخرجه البخاري، كتاب الأداب، باب: قوله تعالى ((يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين))، رقم: 5743. ص: 2261/5؛ وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في الصّدق والكذب، رقم: 1971، ص: 347/4؛ وأخرجه الدارمي في سننه، كتاب الرّقاق، باب: في الكذب، رقم: 2715، ص: 2/ 388.

[2] : أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الصدق والكذب، رقم: 1972، ص: 4/ 348 قال أبو عيسى، هذا حديث حسن حيد، غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه.

[3] : أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الإيمان، باب : ما جاء أنّ الصدق من الإيمان، ص: 92/1؛ ةأخرجه في مسنده، رق: 22224، ص: 252/5؛ وأخرجه البيهقي في سننه، باب: من كان منكشف الكذب، ص: 195/10.

[4] جامع الأحكام للقرطبي.

[1] : انظر تخريجه ص: .

معالمه، تصير الحياة بعدها، غابة، تنتهك فيها المحارم، وتثار فيها المظالم، وتغيب فيها الحقائق، وتطفوا على صفحاتا الظّنون والشكوك.

وفي الأخير، أسوق نموذجا صادقا، ليكون عبرة حقيقية، تحمل بين طّياتا، أسمى معاني الإيمان الصّادق، وتضرب أروع الأمثلة في معرفة وبيان الصّدق الإيماني كيف يكون.

عن أنس قال: قال عمّي أنس بن النّضر –سميت به-، ولم يشهد بدرا، مع رسول الله ﷺ غبت عنه! أما والله، لئن أراني الله، مشهدا مع رسول الله ﷺ فيما بعد، ليرين الله ما أصنع، قال : فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل، فاستقبله سعد بن مالك، فقال : يا أبا عمر وأين ؟ قال : واها لريح الجّنة! أجدها دون أحد، فقاتل حتّى قتل، فوجد في جسده، بضع وثمانون، ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت عمّتي : الرّبيع بنت النّضر : فما عرفت أخي إلاّ ببنانه، ونزلت هذه الآية : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا (3) ليجزي الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفورا رحيما (24)﴾ [الأحزاب: 23-24][1]. إذن فلمثل هذا، فليعمل المؤمنون، وليثبتوا إيمانم بصدقهم، وليثّبتوا صدقهم بإيمانم.

ثانيا : الحياء :

يعد خلق الحياء من بين الأخلاق الكريمة التي يزرعها الإيمان بالله تعالى، في قلوب المؤمنين، فالرسول ﷺ يقول : ((الحياء شعبة من شعب الإيمان))[2].

ذلك لأنّ الإيمان "صلة كريمة بين العباد وربّهم، ومن حقّ هذه الصّلة، بل أثرها الأوّل، تزكية النّفوس، وتقويم الأخلاق، وتذيب الأعمال، ولن يتمّ ذلك إلاّ إذا تأسست في النّفس عاطفة حيّة، ترتفع با أبدا عن الخطايا، وتستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور.

أما لإلمام بالمحاقر دون توزع والوقوع في الصّغائر دون اكترات، فذلك دلالة فقدان النّفس لحيائها"[3]، ولذلك قال الرّسول ﷺ: ((إنّ مّما أدرك النّاس من كلام النّبوة الأولى، يا بن آدم إذا لم

---

[1] : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: عزوة أحد. رقم: 3822، ص: 1487/4؛ وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب: أنس بن النضر عم، أنعس بن مالك -رضي الله عنه- رقم: 769،ص: 264/1.ط

[2] : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وافضلها وادناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان. رقم: 35. ص: 63/1، وقريبا منه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم: 24، ص: 17/1.

[3] : خلق المسلم للغزالي، ص: 170.

تستح فافعل ما شئت))[4]، وقد قيل في معنى هذا الخبر، أنّ من لم يستح، دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء، لا يردعه عنه رادع، فليستح المرء، فإنّ الحياء يردعه"[5]، وقد صدق الشّاعر حين قال :

إذا لم تخشى عاقبة اللّيالي ❁ ولم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ❁ ولا الدّنيا إذا ذهب الحياء[1].

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فإنّ فقدان النّفس لحيائها، يؤذي بنا إلى فقداننا لإيماننا، يشهد لهذا قوله ﷺ : ((الحياء والإيمان قرناء جميعا، فإذا رفع أحدهما، رفع الآخر))[2]، ولا غرابة في هذا، فالحياء خلق عاصم من اقتراف المساوئ أو الخوض فيها، وغن مالت إليها النّفس، فإذا فقد الحياء، فقد هذا العاصم، وإنساقت النّفس وراء شهواتها، شيئا فآخر، وانحرفت عن سواء السّبيل، فهي لا تقيم وزنا لأيّ شيء آخر إلاّ لتلبية أهوائها ورغباتها، ولا يهمّ بعدها أكانت حلالا أم حراما، أو كانت مستقبحة أو مستحسنة، وقد بّين الرّسول ﷺ كيف يؤذي انتزاع الحياء من القلب، إلى استباحة المحارم، وإلى ولوج أبواب المعصية تلو الآخر، حتى تنزع منه رقبة الإسلام، قائلا : ((إنّ الله عزّ وجلّ، إذا أراد أن يهلك عبدا، نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم تلقه إلاّ مقيتا ممقتا، فإذا لم تلقه إلاّ مقيتا ممقتا، نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة، لم تلقه إلاّ خائنا، مخونا، فإذا لم تلقه إلاّ خائنا مخونا، نزعت منه الرّحمة، فإذا نزعت منه الرّحمة لم إلاّ رجيما ملعنا ، فإذا لم تلقه إلاّ رجيما ملعنا، نزعت منه ربقة الإسلام))[3].

فإذا فقد الشّخص حياءه، وفقد أمانته، أصبح وحشا كاسرا ينطلق معربدا خاضعا لشهواته، ويدوس في سبيلها أزكى العواطف، فهو يغتال أموال الفقراء غير شاعر نحوهم برقّة، وينظر إلى آلام المنكوبين والمستضعفين، فلا يهتزّ فؤاده بشفقة، إنّ أثرته الجامعة وضعت على عينيه غشاوة مظلمة، فهو لا يعرف إلاّ ما يغويه، ويغريه بالمزيد، ...ويوم يبلغ امرؤ هذا الحضيض، فقد افلت من قيود الدّين، وانخلع من ربقة الإسلام[4]، إذن نلاحظ أنّ الإنخلاع من ربقة الإسلام، يكون خطوة، خطوة، نتيجة

---

[4] : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: إذا لم تستح فافعل ما شئت رقم: 5769، ص: 2268/5؛ وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في الحياء، رقم: 4795، ص: 252/4؛ وأخرجه أحمد في مسنده، رقم: 22399. 273/5.

[5] : أدب الدنيا والدّين لـ: أبي الحسن علي البصري الماوردي. (تع: محمد صباح، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ط: 1986). ص: 248.

[1] : المرجع نفسه.

[2] : أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: الإيمان، رقم: 58، ص: 73/1، وقال: وهذا حديث صحيح على شرطهما فقد احتجا برواته، ولم يخرجاه لهذا اللفظ؛ واخرجه أحمد في مسنده.

[3] : أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب: الفتن، باب: ذهاب الأمانة، رقم: 4054، ص: 1347/2.

[4] : خلق المسلم للغزالي، ص: 171.

لخلع ثوب الحياء عن نفسه، في علاقته مع ربّه، وفي علاقته مع نفسه، وفي علاقته مع النّاس، فأمّا خلعه لرداء الحياء مع الله تعالى، فيكون باقتراف نواهيه، وإهمال أوامره.

وأمّا خلع رداء الحياء مع النّاس، فيكون، بالمجاهرة بالمعاصي، وعدم كفّ الأذى عنهم، وأمّا خلع رداء الحياء مع نفسه، فيكون بعدم صيانة الخلوات، "وقد قال بعض الأدباء، من عمل في السّر عملا، يستحي منه في العلانية، فليس لنفسه عنده قدر"[1].

فمتى كمل حياء المرء من تلك الوجوه الثلاثة، "فقد كملت فيه أسباب الخير، وانتقلت عنه أسباب الشّر، وصار بالفضل مشهورا، وبالجميل مذكورا،...وإن أخلّ بأحد وجوه الحياء، لحقه من النّقص بإخلاله، بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله[2]، وإن تخلّى عن كلّ تلك الوجوه، كان حقيقا به أن ينسلخ من ربقه الإسلام.

كان الصّدق والحياء، نموذجان، أردت بالتركيز عليها بيان العلاقة المتينة، الربطة بين الإيمان وبين مكارم الأخلاق، هذه الأخيرة التي تمثّل منظومة، متّسقة مع حياة المؤمن، شاملة لكافّة مناحيها، لذا يصعب ذكرها في هذا المقام، لكن ما يهمّ التأكيد عليه هو أنّه كلّما قوي الإيمان، كلّما زاد تمسّكه بفضائل الأخلاق، وكلّما ضعف الإيمان، رقّ الحبل الذي يصله بالفضائل، وقوي الذي يصله بالرّذائل.

المطـلب الثالث
الإيمان قوّة حافظة من مساوئ الأخلاق

إنّ الخلق السّيء، يدفع بصاحبه، إلى اقت عن الفضائل، وهذا يعني أنّه يسري في خط معاكس لما يؤنس له الإيمان، ألا وهو خطّ الخلق الكريم، ولهذا، كان الإيمان قوّة عاصمة من مساوئ الأخلاق، في ذات الوقت، الذي يعدّ فيه قوّة دافعة إلى مكارمها، ذلك أنّ الإيمان ينشئ في قلب المؤمن تقوى الله، فيتمكّن من التفريق بين الحق والباطل، ثمّ يتمكّن بإيمانه من اتّباع الحق الذي دعا إليه الله تعالى، واجتناب

---

[1]: أدب الدنيا والدّين، ص: 250.
[2]: المرجع نفسه، ص: 250-251.

الباطل الذي نهى عنه سبحانه وتعالى، وفي بيان هذا، يقول الله تعالى : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إن تّتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ [الأنفال: 29]، "فإذا اّتقى العبد ربّه، باّتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وترك الشبهات مخافة في الوقوع في المحرّمات، وشحن قلبه بالّنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصّالحة، وتحفّظ من شوائب الشّرك الخفي، والظّاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والرّكون إلى الدّنيا بالعفة من المال جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا[1].

بعدما بّين الله –عزّ وجلّ- لعباده المؤمنين ضرورة تقواه لتمكنوا من مجانبة كلّ ما هو باطل وللمداومة على كلّ ما هو حق، بّين لهم مساوئ الأخلاق، وحذّرهم من مقاربتها، والّترهيب من الخوض فيها، وذلك من خلال ما يأتي :

1= بيان مساوئ الأخلاق، والّتنبيه إلى سوء عاقبتها، فقد اشتمل القرآن الكريم، وكذا السّنة الشريفة، على بيان مختلف الأخلاق السّيئة، التي تسيء إلى المؤمن، والتي تعرقل سير حياته، على أفضل حال، وكثيرا ما كان يصحب ذلك البيان، إشارة أو تنبيه إلى سوء عاقبتها، نذكر كأمثلة على ذلك قوله تعالى :

*﴿والّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدّار﴾ [الرعد: 25]، فنقض الميثاق : ترك أمره تعالى، قيل : إهمال عقولهم، فلا يتدّبرون بها ليعرفوا الله تعالى، ويقطعون ما أمر لله به أن يوصل، أي من الأرحام والإيمان بجميع الرّسل، ويفسدون في الأرض أي بالكفر، وارتكاب المعاصي، ﴿أولئك لهم اللّعنة﴾، أيّ الطّرد والإبعاد من الرّحمة، ﴿ ولهم سوء الدار﴾، أي سوء المنقلب وهو جهّنم[1]، فهذا نقض الميثاق مع الله تعالى وقطع ما أمر به أن يوصل، والإفساد في الأرض، كلّها أخلاق سّيئة، اّتصف بها الكافرون به تعالى، فجرّتهم إلى الطّرد من رحمته تعالى، والقذف بهم في الّنار، وهذا تنبيه لعباد الله المؤمنين الابتعاد عن هذه الأخلاق الشّنيعة، حتى لا يصل بهم المطاف إلى ما واصل بأولئك.

* قوله تعالى :﴿ ولا تبذر تبذيرا (25) إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشّياطين وكان الشّيطان لرّبه كفورا (26)﴾ [الإسراء: 26]. ﴿ولا تبذر﴾ أي لا تسرف في الإنفاق في غير حق، قال الشّافعي، والّتبذير إنفاق المال في غير حقّه، ولا تبذير في عمل الخير،...، وقوله تعالى :﴿ إخوان الشّياطين﴾ أي : أّنهم في

---

[1]: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. 396/7.
[1] : المرجع السّابق. 314/9

حكمهم، إذ المبذّر ساع في إفساد كالشياطين،...أو أنّهم يقرنون بم عدا في النّار[2]، وهذا ترهيب واضح من خلق الإسراف والتبذير، والذي يقف حاجزا ومانعا من اقتراب المؤمن من هذه الخصلة الرّذلة.

- قوله تعالى :﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظّنّ إنّ بعض الظّنّ إثم، ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واّتقوا الله إنّ الله توّاب رحيم﴾ [الحجرات: 12]، ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن الظّن والتّجسس، "والتّجسس قد يكون هو الحركة التّالية للظّن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والإطلا ع على السوءات، والقرآن يقاوم هذا العمل الدّنيء من النّاحية الأخلاقية، لتطهير القلب من هذا الاتجاه اللّئيم، لتتّبع عورات الآخرين وكشف سوءاتم، وتمشيّ مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب[1]"، بعد ذلك يجيء النّهي عن الغيبة في تعبير عجيب، يبدعه القرآن إبداعا : ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميّتا فكرهتموه﴾.

لا يغتب بعضكم بعضا، ثمّ يعرض مشهدا تتأذّى له أشدّ النّفوس كثافة، واقل الأرواح حساسية، مشهد الخ يأكل لحم أخيه ميتا إثم يبادر فيعلن عنهم أنّهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنّهم إذن كرهوا الاغتياب! [2] وبالتّالي يكون هذا الترهيب عن طريق هذه الصّورة الفظيعة، رادعا لهم عن الغيبة، أو دافعا لهم للتوبة عنها.

ومساوئ الخلاق التي تعرّض القرآن الكريم لبيانا، أكثر -بكثير- من أنّ تذّكر كلّها في هذه العجالة، وما ذكرناه على سبيل التمثيل، يبيّن درجة اهتمام الله سبحانه وتعالى، ببيان الأخلاق السّيئة، لعباده الصّالحين، ليجتنبوها قدر ما استطاعوا.

2= كذلك من بين ما يجعل المؤمن، يبتعد عن مساوئ الأخلاق، كونا تمحق العبادات، بمختلف أنواعها، يشهد لهذا قوله ﷺ ، للرّجل الذي قال له : يا رسول الله، إنّ فلانة تذكر من كثرة صلاتا، وصيامها، وصدقتها، غير أنّها تؤذي جيرانا : ((هي في النّار))[3]، كما يعضّ هذا، سؤاله ﷺ أصحابه يوما : ((أتدرون من المفلس ؟)) قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال : ((المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة، بصلاة، وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا،

---

[2] : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. 248/10.
[1] : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 3345/6-3346.
[2] : المرجع السابق، 3346/6.
[3] : تم تخريجه في ص:

وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثمّ طرح في النّار))[1]، فهذه إذن هي عواقب مساوئ الأخلاق، بعثرة الحسنات، على من أوذوا، وإلاّ فحمل سّيئاتم عنهم، قدر ما أسيء إليهم، وفي آخر المطاف يطرح في نار جهّنم، رغم صلاته وزكاته وصيامه، كلّها لم تغن عنه شيئا، حيال سوء أخلاقه : فقد قال ﷺ : ((..والخلق السّوء يفسد العمل، كما يفسد الخلّ العسل))[2]

3= كون الأخلاق السّيئة، تضعف الإيمان، يعدّ سببا آخر، يساهم في إبعاد المرء عنها، فالرسول ﷺ يقول : ((لا يزني الزّاني حين يزني، وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربا وهو مؤمن، ولا يسرق السّارق حين يسرق وهو مؤمن..))[3]، قال القاضي عياض : أثار بعض العلماء، إلى أنّ في الحديث تنبيها على جميع أنواع المعاصي، والتحذير منها، فنبّها بالزّنا على جميع الشّهوات، وبالسّرقة على الرّغبة في الدنيا، والحرص على الحرام، وبالخمر على جميع ما يصدّ عن الله تعالى، ويوجب الغفلة عن حقوقه، وبالانتهاب الموصوف، على الاستخفاف بعباد الله ، وترك توقيرهم والحياء منهم[4]، أمّا ما يقصد بنفي إيمان العبد حال مقاربته تلك المعاصي، وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشّيء، ويراد نفي كماله، ومختاره، كما يقال : لا علم إلاّ ما نفع، ولا مال إلاّ الإبل، ولا عيش إلاّ عيش الآخرة[1]، كما وقد تأوّل بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاّ له، مع علمه بورود الشّرع بتحريمه[2]، وهذا تأويل بعيد لأنّ مجّرد استحلال ما حرّم الله يفضي إلى الكفر، سواء فعل ذلك المستحلّ أم لا، والحديث يصوّر حالة المؤمن، عند اقترافه للمعصية، فقد يدفعه إلى ارتكابا، غفلته، أو قوّة هواه، أو سيطرة شهواته عليه كحبّ المال، أو كالميل إلى اللهو...الخ، دون أم يصاحب ذلك اعتقادا منه بحلّها. لكن إيراد النّفي بذا الشّكل، يرهب المؤمن من مقاربة المعاصي، سواء لكونا، تضعف إيمانه،

---

(1) : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب، البر والصّلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم: 2581، ص: 1997/4؛ وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم: 2418 ، ص: 643/4؛ وأخرجه البيهقي، كتاب الإقرار، باب: من قال: لا يغرم، رقم 11284، ص: 93/6؛ وأخرجه أحمد في مسنده رقم: 8016، ص: 303/2، ورقم: 8395، ص: 334/2، ورقم: 8829، ص: 371/2.

(2) : أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، ص: 25/8، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: 850، ص: 1/ 259؛ وأخرجه في المعجم الكبير، رقم: 10777، ص: 319/10.

(3) : أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبّس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم: 57، ص: 76/1؛ وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: النهي بغير إذن صاحبه، رقم: 2343، ص: 875/2.

(4) :فتح الباري للعسقلاني. 62/12.

(1) : صحيح مسلم، بشرح النووي لمحي الدين النووي. (دار الرّيان للتراث: الاسكندرية ـ مصر، ط: 1407هـ-1987م) 41/1.

(2) : المرجع نفسه، ص: 42/1.

أو لكونا ترفعه كالظّلة حالة اقترافه لها، أو لكونا ترفع عنه الأمن والأمان الذي يلقيه الله على عباده المؤمنين،...الخ، وبذا يكون الإيمان بالله تعالى دافعا إلى المحافظة على ما حظي به من إيمان، وإلى السّعي إلى إتمامه وإكماله، بفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق،ويكون أيضا قوّة عاصمة من اقتراف رذائل الأخلاق التي ذكرناها، لأنّ اقترافها يؤدّي إلى إضعافه، والمداومة عليها تؤدي إلى خسرانه.

وفي الخلاصة، يمكن القول بأنّ الدّين الإسلامي، "لا يقف عند حدّ الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتمجيدها، إنّه هو الّذي يرسي قواعدها، ويحدّد معالمها، ويضبط مقاييسها الكلّية، ويضع الأمثلة للكثير من الجزئيات السّلوك، ثمّ يغري بالاستقامة، ويضع الأجزية، مثوبة وعقوبة، على كلا السّلوكين، نصب العين[3]، وما كلّ هذه الرّعاية البالغة، والاهتمام البيّن، إلاّ لما للأخلاق من أهمّية جليلة، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى التمع، أمّ على المستوى الأوّل، فإنّ الأخلاق تعتبر ترقية للذّات الإنسانية، وذلك لأنّه "إذا تمسّك الإنسان بمكارم الأخلاق، فإنّه سرعان ما تصفو نفسه، ...فيجد لحياته معنى، ولذاته قيمة ومكانة"[1].

أمّ على المستوى الثّاني، فإنّه لا يمكن لأيّ مجتمع كان، أن يحافظ على وجوده، أمدا طويلا، إلاّ بمحافظة على مكارم الأخلاق، وصدق الشاعر حين قال :

إنّما الأمم الأخلاق ما بقيت ۞ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

والقرآن الكريم حافل بذكر المم، التي أبيدت بسبب عصيانا وبسبب رذالة أخلاقها، "أما ترى -أيّها المسلم- ما تزال بالأمم والشعوب من آلام، ومسخ، وحرق وغرق، وهل كانت إلاّ بسبب المعاصي والخطايا والذنوب، وقد نزال بنا ما نزل بم، لأنّنا ارتكبنا من الآثام، ونقض الأحكام، والفسوق والعصيان، ...وقد غرقنا إلى الأذقان، في حياة جاهلية حمقاء، كما سحرتنا أوربا –وغيرها- بتقاليدها وعاداتا، ونجها في الحياة، حتّى لم نعد نرى المنكر منكرا، ولا الذّنب الغليظ معصية وإثما، بل لعلّ الذّنوب اليوم ممّا يفاخر به النّاس، وبعض المنكرات ممّا تتزين به الهامات"[2]، وهذا ما يجرّنا إن بقينا على ما نحن عليه إلى الهلاك بل وإلى الإبادة، فهذه سنّة الله في خلقه، فمن يعلو، ويسرف في ذلك، ويفسق ويسرف في الفسق، ويظلم ويسرف في الظلم،...الخ، لا دواء له إلاّ الإبادة، لأنّ منافذ النّور في هذا

---

(3) : الإيمان والحياة للقرضاوي ص : 209.

(1) : فلسفة التربية في الإسلام لأحمد رجب. ص : 405.

(2) : أثر الذّنوب في هدم الأمم والشعوب لـ: محمّد محمود الصوّاف. (مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط: 9: 1409هـ-1989م) ص : 29.

الفرد أو المجتمع، قد خرّبت، وكان هذا شأن من قبلنا من قوم نوح، ولوط، وموسى وغيرهم ممّا حقّت عليهم كلمة الله بالهلاك. وممّا وجب علينا أن نتّخذ من قصصهم عبرة لنا، حتى لا نلقى، نفس المآل الذر لاقوه.

الفصل الرابع :

البعدان :
الاقتصادي والسياسي للإيمان

المبحث الأول : البعد الاقتصادي للإيمان

المبحث الثاني : البعد السياسي للإيمان

يعتـبر الاقتصاد من أكثر المجالات أهمّية وخطورة، في حياة الأفراد والجماعات، على حدّ سواء، فهو المجال الوحيد –بمنطق العصر-، الذي يمكن بواسطته تحقيق مختلف الأهداف والغايات، مهما بلغت خطورتا، ومهما بلغت رفعتها أو وضاعتها أيضا! !

كما أنّه المجال الأوّل –أو يكاد يكون-، الذي يشير إلى درجة تطوّر الأمم –وإن كانت منحطّة الأخـلاق، مفكّكـة المجـتمعات-، أو إلى درجـات انحطاطها- وإن كانت كريمة الأخلاق، متراصة المجتمعات.

وإضافة إلى هذا، فإنّ للاقتصاد دورا هامّا، في الحكم على فكر أمّة معّينة، بالشّجاعة والفاعلية، أو بالرّجعـية وعـدم الصّلاحية فالرّقي والرّفاهية –كما اشتهر بين الناس اليوم- إن دلّ على شيء، فإنّما يدلاّن على تطوّر فكر تلك الأمّة، تماما كما يدلّ الفقر والتّخلف على رجعية فكر الأخرى، أو على عدم جلاحّيته.

وعلـيه، فإنّـه إذا كان للاقتصاد كلّ هذا الثّقل في حياة الفرد والمجتمع، فهل هذا يعني أنّه يمكن للإيمان –باعتباره عاملا مؤثرا في كلّ من الفرد والمجتمع- أن يطال هذا المجال، ويحدث فيه آثارا معّينة ؟ وما هي تلك الآثار إن وجدت ؟

ثمّ، هل تصرّفات المؤمن، في المجال الاقتصادي، تختلف عن تصرّفات غيره في هذا المجال ؟

لا شـك في أنّ القـرآن الكريم والسّنة المطهرّة، قد تضمّنا توجيهات وتعاليم مختلفة تمسّ المجال الاقتصـادي، كتلك الّتي تمسّ الملكية، المال، العمل، البيع، الرّبا، توزيع الثروات، الشّركة،...الخ، وهي بمجموعهـا، تكوّن النّظام الاقتصادي الإسلامي، هذا النّظام الذي "يّتفق مع مصالح البشر في كلّ زمان ومكان، ما دام باب الاجتهاد مفتوحا، لاستنباط الأحكام المختلفة، لحاجات النّاس المتجدّدة، من الأسس الثابتة للاقتصاد، ذات المرونة والقابلية للتكّيف مع المصلحة العامة[1]، وعليه فالمؤمن لا يمكنه أن يتصرّف في المجـال الاقتصادي، إلاّ في حدود رؤيته التوحيدية للكون والحياة، لأنه مستمّد من كتاب الله، وسنّة رسولهﷺ وكذلك لأن إيمانه يشعره بمراقبة الله –عزّ وجلّ-، تلك المراقبة، الّتي تولّد لديه "الوازع الدّيني، الـذي يمـنعه من مزاولة النّشاط الاقتصادي، الذي يحرّمه الله، أو يكرّهه، ويحضّه على ممارسة النّشاط المباح، وبناء على هذا، فإنّ على المسلم أن يفكّر في أوجه النّشاط الاقتصادي، قبل أن يقدم عليها، فإذا

---

[1] : خصائص الاقتصاد الإسلامي وضوابطه الأخلاقية لـ: محمود محمّد بابلي. (المكتب الإسلامي: بيروت – لبنان، ودمشق- سوريا، ط: 1، 1408هـ- 1988م) ص: 59.

رأى أنهـا تتّفق مع الشّرع احتواها، وعمل وفقها، وإذا رأى أنها تخالف الشّرع نبذها واحتقرها لأنها تغضـب الخـالق[2]، والمؤمن غايته القصوى إرضاء الله تعالى واجتناب غضبه، وذلك بالخضوع لكافّة تعاليمه، قدر الإمكان.

وهكذا يكون للإيمان، أثر بيّن في الـال الاقتصادي، يتمثّل في الالتزام بالقيم والأخلاق الإسلامية في كلّ مجالات الحياة بما فيها الاقتصادي، ونبذ أي فعل، يخالف أصلا من أصوله، وإن كان سبيلا للرّبح الوفير.

هـذا من اثر الإيمان في الـال الاقتصادي بشكل عام، أمّا ما أحاول بيانه –بإذن الله- تعالى- في هذا المبحث، فهو علاقة الإيمان بالعناصر الأساسية، التي يقوم الاقتصاد عليها وأمّا تلك العناصر فهي :

* العمل : باعتباره الوسيلة المحقّقة للإنتاج.

* الفرد العامل : باعتباره المسيّر الأوّل والوحيد للنّشاط الاقتصادي.

* المال : باعتباره عصب الحياة، والمادّة الخام، التي يقوم عليها النّشاط الاقتصادي وعليه، سوف يتضمّن هذا المبحث ثلاثة مباحث هي :

1- الإيمان والفرد العامل.

2- الإيمان والعمل.

3- الإيمان والمال.

ولنبدأ بالمطلب الأول :

---

(2) : اقتصادنا في ضوء الكتاب والسنّة لـ: محمد حسن ابي يحي، (دار عمّار: الأردن – عمّان، ط: 1، 1409هـ-1989م) ص: 35.

المطلب الأوّل
الإيمان والفرد العامل

إنّ نظرة عابرة إلى أحوال البشر الاقتصادية، وفي أيامنا هذه –بل وفي كلّ وقت- تشير إلى وجود خلل في هذا المال، أدّى إلى سيطرة فئة قليلة على الثّروة، وعيشها في بذخ، ورفاهية لا متناهية، وحرمان الأغلبية السّاحقة من تلك الثروة، وعيشها في فقر مدقع، وفاقة شديدة.

حـاول الفكـر البشري على تنوّع مشارب أصحابه، بيان هذا الخلل لا صلاحه، بتقديم الحلول المناسـبة، فـرأت الماركسـية، أنّه يكمن في التّناقض بين شكل الإنتاج وعلاقات التّوزيع، بينما ترى الرأسمالـية، أنّـه يكمن في ندوة الثروة على وجه الأرض[1]، ذلك أنّ الإنسان من عاش عليها، ما فتئ يستغلّها، فهي في تناقض متواصل، والخوف كلّ الخوف، أن نصل في يوم معيّن، تعدم فيه.

أمّـا الفكر الإسلامي، فإنّه يرى أنّ الخلل الحقيقي، إنّما يكمن في الإنسان، أي في الفرد العامل، بقوتـه الفكرية، أو العضلية، وهذا الرّأي لم يأت هكذا جزافا، وإنّما استنادا لقوله تعالى : ﴿ الله الّذي خلـق السـماوات والأرض وأنزل من السّماء ماء فأخرج به من الثّمرات رزقا لكم وسخّر لكم اللّيل والنّهار (33) وآتاكم من كلّ ما سألتموه وإن تعدّو نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار (34) ﴾ [إبراهـيم: 32-34]، فهـذه الآيات الكريمة تقرّر بوضوح أنّ الله تعالى، قد حشد للإنسان في هذا الكـون الفسـيح، كلّ مصالحه ومنافعه، ووفّر له الموارد الكافية لإمداده بحياته، وحاجاته المادّية، ولكنّ الإنسان هو الذي ضيّع على نفسه هذه الفرصة، التي منحها الله له، بظلمه وكفرانه ﴿إنّ الإنسان لظلوم كفّـار﴾ فظـلم الإنسان في حياته العملية، وكفرانه بالنّعمة الإلاهية، هما السّببان الأساسيان للمشكلة الاقتصـادية في حياة الإنسان على الصعيد الاقتصادي في سوء التّوزيع، ويتجسّد كفرانه للنّعمة في إهماله لاستثمان الطّبيعة، وموقفه السّلبي منها[1]. وهكذا يتبيّن بأنّ الفكر الغربي لم ينظر إلى المشكلة ذاتها، وإنّما نظـر إلى ظلّهـا، ولذلك باءت الحلول، التي قدّمها بالفشل، ولا زالت الشّعوب تئنّ تحت وطأة الفقر والبؤس، وتطأطأ رؤوسها لفئة، ما كره، تمتصّ دماءها بشتّى الأساليب.

---

[1] اقتصادنا في ضوء القرآن والسنّة لـ: محمّد حسن أبو يحي. (دار عمّار، عمّان – الأردن، ط1، 1409هت-1989م)، ص: 77.

[1] : اقتصادنا لـ: محمّد باقر الصّدر. (دار التّعارف، بيروت- لبنان، ط1411هـ-1991م). ص: 330.

والواقع أنّ مردّ كمشكلة تناقض الإنتاج مع علاقات التوزيع الثروة، وإنما هو الإنسان الظّلوم الكفّار، فهو المسؤول الوحيد –أيضا- على ندرة الثروة، بإهمالها، أو بسوء استغلالها أو بإفسادها –بوعي أو بغيره-، أو بجملة لمصادرها، وإلاّ فالكون كلّه مسخّر للإنسان، من قبل الله تعالى، الذي تعهّد بـ توفير الرّزق له، بل ولكلّ دابة في الأرض، قال تعالى : ﴿ وما من دآبّة في الأرض إلاّ على الله رزقها﴾ [هـود: 06]، وقال تعالى :﴿ وكأيّن من دآبّة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإيّاكم﴾ [العنكبوت: 30]، أي أنّ البـاري تبارك وتعالى، قد تكفّل بأرزاق الخلائق كلّهم، قويّهم وعاجزهم، فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضـعيفة القـوى، ضعيفة العقل، ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدّخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الـرّزق، ولا يـزال الله يسخّر لها الرّزق، في كلّ وقت بوقته، ﴿الله يرزقها وإيّاكم﴾ فكلّكم عيال الله، القـائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم"[2] وقال تعالى واصفا الأرض :﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسّائلين﴾ [فصلت:10]. إذن فليطمئن الإنسان عـلى رزقه، فهو مكفول من قبل الله تعالى، وليطمئنّ أيضا- على الأرض التي يعيش عليها، فهي أرض مباركة من قبل الله تعالى كذلك، وليعد النّظر في ذاته، هو لأنه هو المشكل الأصل.

فالسؤال المطروح الآن : كيف يتحوّل الإنسان الظّلوم الكفّار، إلى إنسان عادل شاكر لأنعم الله ؟ كيف يتحوّل الإنسان من مشكلة تحطّم الاقتصاد، إلى عنصر فقال ينهض بالاقتصاد ؟.

إنّ العامل الأساسي، الّذي يمكنه أن يحقّق هذا التّحوّل الجذري، هو الإيمان، فهو الطّاقة الوحيدة، الّـتي يمكنها أن تسلّل إلى الأفئدة، لتبعث فيها الحياة من جديد، وأن تنفذ إلى الضمائر، لتمحو ما بها من أدران الكفـر، والظّلم، ثمّ تنشر بها أنوار الإيمان، والتّقوى، التي تصنع من الإنسان، ذلك العامل المتسلّح بمكارم الأخلاق والّذي يستطيع بعمله وجهده، المتواصل، الصّبور، وكذلك بتكائفه مع رفاقه في المجتمع، أن يحقّـق تطلّعـه إلى النّمو، باستغلال الموارد، والكنوز، التي تمتلئ بها الطبيعة، وأن يجعل من حلمه في الرّفاهة الشاملة، حقيقة واقعة، من خلال الحكم العادل، ومديد العون إلى المحتاجين"[1]، إذن هو المسؤول عـن تكويـن العـامل الجدّ، الصّابر، النّشيط، الذي يسعى إلى طلب الرّزق، كما أمره الله تعالى، وإلى اسـتغلال ما سخّره الله من ثروات في هذا الكون، وهو المسؤول أيضا، عن تكوين الحاكم –وان شئت قلـت المدبّر أو المسيّر الاقتصادي- العادل، الّذي يتولّى توزيع الثّروات على مختلف شرائح المجتمع، وفق

---

[2] تيسير الرّحمان للسّعدي. ص: 635.

[1] : مدخل إلى الاقتصـاد الإسـلامي لـ: عبد العزيز فهمي هيكل. (دار النهضة العربية: بيروت- لبنان، دت، دط) ص: 134.

حاجـاتم، وهو –أي الإيمان- المسؤول أيضا، على تكوين العامل الّتقي، الذي "لا ينظر إلى المعاملات الاقتصـادية عـلى أّنها معاملات مادّية، يجب أن تخضع لقوانين الله تعالى –أي أوامره ونواهيه-، وأن يـتوخّى فيها رضى الله تعالى أوّلا وأخيرا، وإلاّ فهي مخالفات، يجب الابتعاد عنها، وإلاّ فهي مخالفات، يجـب الابتعاد عنها، وإن حقّقت منافع آنية، أو أرباح مالية، فالمؤمن يوقن، أنّ كلّ ما هو محّرم عليه، فهو ضاّر له، ولمتمعه، إن آجلا أو عاجلا"[1].

وتتوضّح علاقة إيمان الفرد، وتقواه، بالمال الاقتصادي، أكثر فاكثر، في هذه الآية الكريمة، حيث يقـول الله تعالى: ﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واّتقوا لفتحنا عليهم بركات من السّماء والأرض ولكن كذّبـوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ [الأعراف: 96]. فالمؤمن إذن، إّنما يندفع "إلى العمل بحافز من نفسـه، وباعث من ذاته، بإيحاء ينبعث من داخله، لا سوطا يسوقه من الخارج، ذلك الباعث الذّاتي هو الإيمـان بـالله، وبرسالة السّماء، وبمهمّته في عمارة الأرض والسّيادة على الكون، إنّ المؤمن يوقين أنّ السّـعادة في الآخرة، والّنجاح في الأولى موقوف على العمل، الجّنة في الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل[2]، والفراغ، بل لأهل الجدّ والعمل والإتقان. ﴿ وتلك الجّنة الّتي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [ ].

وأمّـا تقـوى الله فهي: "يقظة واعية، تصون من الاندلاع والتهوّر، والشّطط، والغرور في دفعة الحـركة، ودفعـة الحياة، وتوجّه الجهد البشري، في حذر وتحرّج، فلا يعتدي، ولا يتهور، ولا يتجاوز حدود الّنشاط الصّالح"[3].

ثمّ نتـيجة لهذا الإيمان، وهذه الّتقوى، يفتح الله تعالى بركات من السّماء والأرض، على عباده، وهـي "بركات بكلّ أنواعها وألوانا، وبكلّ صورها وأشكالها، ما يعتمده الّناس، وما يتخّيلونه، وما لم يتهّيأ لهم في واقع ولا خيال! "[4].

وبذا يصبح الإيمان والّتقوى سببا، في عيش الأّمة، في سعة ورفاهية، وذلك بما يحدثانه، في نفوس أفـراد الأّمـة، من التزم أخلاقي، يسمو بالهدف الاقتصادي عمّا هو عليه في الفكر الغربي؛ إذ يفهم من

(1) :
(2) : الإيمان والحياة للقرضاوي. ص: 300.
(3) : في ظلال القرآن لسيّد قطب. 1339/7.
(4) : المرجع السّابق.

"التّعاليم الإسلامية، أنّ الثّروة وجميع العناصر المادّية الأخرى، ليست هدفا في حدّ ذاتها، ويجب أن لا تعتبر كذلك بالنّسبة لأيّ فرد في المجتمع، وإنّما هي وسيلة لتحقيق الرّفاهية الاجتماعية العامّة"[1].

كما يساهم الالتزام الأخلاقي، في تسهيل التّعاملات الاقتصادية، بما يضفيه عليها من صدق وأمانة، وحسن معاملة، ومنافسة شريفة...الخ.

وهذه بعض الأمثلة، الدّالة، على دخول العنصر الأخلاقي، في النّشاط الاقتصادي للمؤمن، بل وتوجيهه له؛ حيث أنّه يقضي على مقولة، الّتي مفادها أنّ "الغاية تبرّر الوسيلة"، فالمؤمن، لا يسلك إلاّ السّبل المشروعة ليحقّق هدفه الاقتصادي المنشود، ألا وهو؛ تحقيق الرّفاهية له، ولعامّة المؤمنين كافّة، من منطلق المحبّة والأخوّة في الله.

التّاجر المؤمن، صدوق، أمين، فهو صادق في عرض سلعته على حقيقتها، دون إخفاء لعيوبها، وهو أمين في آراء السّلعة المباعة، كاملة غير منقوصة لصاحبها، وهذا ما كان سببا في مباركة الله سبحانه وتعالى – لتجارته ورزقه، يشهد لهذا قوله الرّسول ﷺ : ((البّيعان –أي البائع والمشتري- بالخيار ما لم يتفرّقا، فإن صدقا وبيّنا، بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما، محقّت بركة بيعهما))[2]، "ومعنى محقت بركة بيعهما" أي ذهبت بركته، وهي زيادته ونماؤه"[3].

وقد رغّب النّبي ﷺ التّجار في الصّدق، لما له من آثار طّيبة تعود على الصّادق والمجتمع، ورهّبهم من الفجور، لما له من آثار وخيمة، تضرّبه بالمجتمع أيضا، فقال ﷺ : ((التّاجر الصّدوق الأمين، مع النبّين والصّدّقين والشّهداء))[4]، وقال : ((إنّ التّجار يبعثون يوم القيامة فجّارا إلاّ من اتّقى الله، وبرّ وصدق)). قال عياض لمّا كان من ديدن التّجار، التدليس في المعاملات، والتّهالك على تويج السّلع، بما تيّسر لهم من الأيمان الكاذبة، ونحوها، حكم عليهم بالفجور، واستثنى منهم من اتّقى المحارم، وبرّ بيمينه وصدق في حديثه"[1]، ولمّا كان التّاجر المؤمن دائم الشّعور بالرّقابة الإلهية، كان من أبعد النّاس عمّا يغضب الله تعالى، من غش وتدليس،...الخ، وأقربهم إلى الصّدق والأمانة، خاصّة أنّه تعالى أمر بآداء أمانة الكيل والميزان، كاملة، وتوعّد من أنقصها، أو طفّفها، حيث قال –عزّ من قائل-: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ﴾ [الأعراف: 85]، بمعنى "أتموا النّاس حقوقهم بالكيل، الّذي تكيلون به،

---

(1) : مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي لهيكل. ص: 84.

(2) : أخرجه البخاري؛ كتاب: البيوع، باب: إذا بيّن البيّعان ولم يكتما، رقم: 1973، ص: 732/2، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: الصّدق في البيع والبيان، رقم: 1532، ص: 1154/3.

(3) : شرح النّووي على صحيح مسلم، ص: 176/10.

(4) : أخرجه الدّارمي في سننه، كتاب: البيوع، باب: في التّاجر الصّادق، رقم: 2539، ص: 322/2.

(1) : تحفة الأحوذي، 336/4، نقلا عن قرص المكتبة الألفية.

وبالوزن، الّذي تزنون به، ﴿ولا تبخسوا النّاس أشياءهم﴾ ..ولا تظلموا النّاس حقوقهم، ولا تنقصوهم إيّاها"[2].

كما قال –عزّ من قائل-: ﴿ويل للمطفّفين (1) الّذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون (2) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (3)﴾ [المطففين: 1-3]، والويل هو "شدّة العذاب في الآخرة، وقال ابن عباس، إنّه واد في جهنّم يسيل فيه صديد أهل النّار، فهو قوله تعالى، ﴿ويل للمطفّفين﴾، أيّ الّذين ينقصون مكايلهم وموازينهم"[3].

*المتعامل الاقتصادي المؤمن من منطلق إيماني يحبّ لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفسه، ولذلك لا يعامله إلاّ بمثل ما يحبّ أن يتعامل به معه، ولا يقدم على أيّ فعل قد يضرّ باخوته المؤمنين، ولذلك نجده لا يقبل على معاملات اقتصادية، عديدة، تعود عليه بالرّبح الوفير، وذلك لأنّها ممّا حرّمه الله تعالى، وهو بهذا الفعل، يكون "بنظرة غيره، قد أضاع بعض المنافع المادّية، ولكنّه في نظر نفسه، قد حقّق أكبر المنافع الدّينية والدّنيوية،...فالمنافع الدّنيوية تحقق أيضا، في تجنّبه مقارنة ما هو محرّم عليه، لأنه يعتقد بيقين، أنّ الشّيء الّذي يحرّم عليه، لا فائدة فيه، بل إنّ ضرره عليه، وعلى مجتمعه محقّق، فهو بهذا الاعتقاد، يربح راحة نفسه في الحال، ويربح سلامة نفسه ومجتمعه في المآل، أمّا المنافع الدّينية، فإنّها تكون في حصول رضى ربّه عنه، والفوز بالجنّة يوم المعاد"[1].

ومن بين تلك المعاملات نذكر :

=تجنب النّجش، "وهو الزّيادة في ثمن السّلعة، ممّن لا يريد شراءها، ليقع غيره فيها، وعادة ما يتمّ النّجش بالتواطؤ بين النّاجش والبائع، فيشتركان في الإثم"[2]، وقد حرّم هذا التّعامل، بقوله النّبي ﷺ : ((لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا...))[3].

=تجنب بيع المؤمن على أخيه المؤمن، بحيث يقول النّبي ﷺ : ((لا يبيع الرّجل على أخيه، ولا يسوم على سومه))[4]، أمّا على بيع أخيه، فمثاله أن يقول لمن اشترى شيئا في مدّة الخيار، افسخ هذا البيع، وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه، أو أجود منه بثمنه، ونحو ذلك، وهذا حرام، ويعزم أيضا الشّراء على شراء أخيه، وهو أن يقول للبائع في مدّة الخيار، افسخ هذا البيع، وأنا أشتريه منك، بأكثر من هذا الثّمن، ونحو هذا.

---

(2) : تفسير الطبري. 237/8، نقلا عن المكتبة الألفية.

(3) : الجامع لأحكام القرآن لـ: القرطبي. 250/19، نقلا عن المكتبة الألفية.

(1) : خصائص الاقتصاد الإسلامي، لـ: البابللي، ص: 64-65.

(2)

(3)

(4)

وأمّا السّوم على سوم أخيه، فهو أن يكون قد اتفق مالك السّلعة، والرّاغب فيها على البيع، ولم يعقداه، فيقول الآخر للبائع: أنا أشتريه، وهذا حرام بعد استقرار الثمن، وأمّا السّوم الّتي تباع فيمن يزيد، فليس بحرام"[5].

= تجنّب الاحتكار، وذلك لما ورد في تحريمه، من قوله ﷺ : ((من احتكر فهو خاطئ))[6]، وكذا قوله ﷺ : ((من احتكر طعاما أربعين يوما، فقد برئ من الله، وبرئ الله منه))[1]، والاحتكار الشّرعي، إمساك الطّعام عن البيع، وانتظار الغلاء، الاستغناء عنه، وحاجة النّاس إليه"[2]، والاحتكار مبعثه الأنانية والقسوة على خلق الله؛ لأنّ المحتكر يريد أن يوسّع ثروته، بالتضييق على خلق الله، وأن يبني قصوره، من جماجم البشر، وأن يمصّ دماءهم، لتجري في عروقه، أو في رصيده ألوفا وملايين"[3].

= تجنب الرّبا، المحرّم بآيات عديدة، منها قوله تعالى : ﴿ والّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الّذي يتخبّطه الشّيطان من المسّ ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلفا وأمره إلى الله﴾ [البقرة:275]. فقد أحلّ الله البيع "لما فيه من عموم المصلحة، وشدّة الحاجة، وحصول الضّرر بتحريمه، وهذا أصل في حلّ جميع أنواع التّصرّفات حتّى يرد ما يدلّ على المنع ﴿وحرّم الرّبا﴾ لما فيه من الظّلم وسوء العاقبة"[4].

والملاحظ ممّا سبق ذكره، من المعاملات الاقتصادية في الإسلام أنّها تدّم الكيان الاقتصادي للأفراد ، وكذا للأمّة، ولذلك جاء الشّرع الحكيم بتحريمها، حفاظا على مصلحة الفرد والمجتمع، فكان المؤمن أغنى متعامل اقتصادي في هذه الحياة، لأنّه قد نال ربح الحياة الدّنيا والآخرة، في آن واحد.

المطلب الثاني

(5)

(6)

(1) :

(2) : فتح الباري لـ: بن حجر العسقلاني. 348/4.

(3) : منهج القرآن في إصلاح المجتمع. ص: 264. نقلا عن دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي. ص: 294.

(4) :تيسير الرّحمان لـ: السّعدي. ص: 117.

تعــدّد موقف البشرية من العمل، بتعدّد معتقداها وبتعدّد الفلسفات الّتي تتبنّاها، فهذه المسيحية "ترى في العمل عقوبة إلهية على الخطيئة الأولى في الحياة الدّنيا، ومتعها أمرا مذموما في الأصل، وكذلك تجعــل الهندوكــية المثل الأعلى للإنسان أن يتخلّى على اللّذائذ الدّنيوية كلّها، وعن الحياة الاجتماعية، ليصــل –على زعمهم- إلى الله ويتّحد معه"[1]، وفي مقابل ذلك، نجد الرّسالية، تجعل من العمل المحرّك الأساسي، لتحقيق غايتها، ألا وهي الرّفاهية القصوى للفرد.

وهكذا اتشتّتت البشرية بين الإفراط في تقديس العمل –إذ من لا يقدر على العمل، ولا يستحقّ الحــياة- باعتباره الوسيلة تمكنه من تحقيق حاجاته ورغباته. وبين التفريط فيه، باعتباره مذلّة ومهانة، أو لكونــه عائقــا يقــف حيال سمو الرّوح، وصار واجبا عليها أن تختار –أي البشرية- بين العمل لتلبية حاجــات الجسد، أو بين تركه لتلبية حاجات الرّوح، ولهذا بدأت شعوب الأرض "بعد أن لسقها سياط الظّــلم، وصفعتها لطمات الاستبداد، تبحث عن فكر ومعتقد، يحقّق لها الجمع بين الأشواق في صفائها، والضــرورات في أهمّيــتها للإنسان"[2]، والعقيدة الأكثر تحقيقا لهذه الغاية، الّتي تصبو البشرية إليها، هي عقيدة الإسلام، ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصّلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلّكم تفلحون﴾ [الجمعة: 10]، فالإسلام هو العقيدة، الّتي تحقّق "التوازن بــين مقتضيات الحياة في الأرض؛ من عمل وكدّ ونشاط وكسب، وبين عزلة الرّوح فترة عن هذا الجوّ، وانقطاع القلب، وتجرّده للذّكر، وهي ضرورة الحياة القلب، لا يصلح بدونها للاتصال والتّلقي والنّهوض بتكاليف الأمانة الكبرى، وذكر الله لا بدّ منه في أثناء ابتغاء المعاش"[1]، لأنّه عامل ميسّر له، معين عليه.

كما يتبيّن لنا من قوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا ... ﴾ [القصــص: 77]، "اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الّذي يعلّق واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضّه على هذا ويكلّفه إيّاه تكليفا، كي لا يتزهّد الزّهد، الّذي يهمل الحياة ويضيعها"[2].

---

[1] : نظام الإسلام: الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة للمبارك. ص: 20.

[2] : قواعد وأحكام في الاقتصاد الإسلامي لـ: يوسف العظم. (منشورات العصر الحديث: ط: 1: 1404هـ-1983 م). ص: 22.

[1] : في ظلال القرآن لـ: السيّد قطب. 3570/6.

[2]

وبناء على ما سبق، يّتضح أنّ الإيمان بالله تعالى، يجمع بين مطالب الرّوح والجسد، وبين مطالب الحـياة الدّنيا والآخرة، فضمن بذلك للإنسان حياة، تسودها السّكينة، ويعمّمها الهدوء، حياة يعدل فيها بين حاجات الفرد الرّوحية والجسدية، وتلّبى فيها بلا إفراط ولا تفريط.

أمّا عن علاقة الإيمان بعنصر "العمل الاقتصادي"؛ فأوّلها يتمثّل في تبويئه المكانة الائقة به، بالحثّ على القيام به، ثمّ الدعوة إلى اتقانه، ثمّ رفعه –أي العمل الاقتصادي- إلى مصاف العبادة، وبهذه الميزات، يجعـل الإيمـان بالله تعالى، من المؤمن، خير عامل على وجه الأرض، فهو عامل متخلّق بمكارم الأخلاق متقن لعمله، حائز على حاجات الدّنيا، وفائز بحسنات الآخرة.

ولنبدأ بالّنقطة الأولى :

أوّلا : الإيمان ولّد العزيمة على العمل

تعتـبر الدّوافع الذّاتية، عاملا أساسيا لإ إخراج الفكرة من عالم القوّة إلى عالم الفعّال، كما يعتبر الإيمـان أقـوى تلـك الدّوافع وأكثرها تأثيرا على الّنفس البشرية، لشدّة التحامه والتصاقه بها في كلّ الحـالات، ولهـذا يعدّ الإيمان بالله تعالى، خير باعث على العمل، لما تضمّنه القرآن من آيات داعية إلى العمل بمختلف الأساليب؛ فتارة تدعو إليه مباشرة، وأخرى، تبّين فيها أنّ الإنسان مستخلف في الأرض، ومطالب بعمارتها، وثالثة، لا تصرف نظر المؤمن إلى الكون الفسيح وما به من ثروات وكنوز، تساعدته، عـلى عمارة الأرض، على أحسن وجه؛ نذكر من بين تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه الّنشور﴾ [الملك: 15]؛ بمعنى أنّ الله –عزّ وجلّ- "هـو الّذي سخّر لكم الأرض وذلّلها، لتدركوا منها ما تعلقت به حاجتكم؛ من غرس وبناء وحرث، وطـرق يتوصّـل بها إلى الأقطار الّنائية و...، ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي لطلب الرّزق والمكاسب﴿ وكلوا من رزقه وإليه الّنشور﴾؛ أي بعد أن تنتقلوا من هذه الدّار، الّتي جعلها الله امتحانا، وبلغة يتبلّغ بهـا إلى الدّار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسّيئة"[1]، والملاحـظ عـلى مضـمون هذه الآية الكريمة؛ الرّبط بين أمور أربعة هي : تذليل الأرض، والمشي في مناكـبها، والأكل من رزق الله، والتذكير بيوم البعث[2]؛ فتذليل الأرض إّنما كان، للمشي في مناكبها بسـهولة ويّسـر، وللسّعي في طلب الرّزق بلا مشقة، أو كلفة تفوق طاقة البشر، ثمّ الكل من رزق الله تعالى، الّذي هو نتيجة ذلك السّعي والطّلب، ثمّ يختم الله تعالى بالتذكير باليوم الآخر، ليتولّد لدى المؤمن

---

[1] : تيسير الكريم الرّحمان لـ: السّعدي، ص: 877.
[2] : انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع لـ: ، ص: 245.

ضـمير يحاسـبه عن كلّ ما قام به، وصدر عنه، أثناء رحلته تلك؛ أي أثناء أكله للرّزق أيضا، وبالتّالي يستقيم العمل، ويطيب الرّزق، ويحصل الأجر.

* ﴿هـو أنشـأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود: 61]، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ..﴾ [البقرة: 30]، فالله –عزّ وجلّ- جعل الإنسان خليفته في الأرض لـيعمّرها، ويبنيها، ويقيم الحياة عليها كما أمره تعالى، ووفقا لمنهجه –عزّ وجلّ-، ولهذا نجد المؤمن يندفع إلى العمل، "بحافز من نفسه، وباعث من ذاته، بإيحاء ينبعث من داخله، لا سوطا يسوقه من الخارج، ذلك الباعث الذّاتي، هو الإيمان بالله وبرسالة السّماء، وبمهمّته في عمارة الأرض، والسّيادة على الكون"[3]، هذه العمارة، الّتي تعني، فيما تعنيه "التّنمية الاقتصادية"، والنهوض بالمجتمع في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، وهذا جوهرها ما تسعى إليه نظريات التّنمية الاقتصادية"[1]، وهكذا نلاحظ أنّ الإيمان يدفـع الفرد دفعا إلى الإعمار والبناء والتّنمية، والتّطور، لا إلى الخمول والكسل، والإعراض عن الحياة، لأنّ كلّ تلك المعاني إنّما هي إعاقة لقيام أمر الله تعالى، ألا هو قيام خلافته على الأرض.

* ﴿ألم تروا أنّ الله سخّر لكم ما في السّماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة﴾ [لقمان: 20]، قال تعالى: ﴿الله الّذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا مـن فضله ولعلّكم تشكرون (12) وسخّر لكم ما في السّماوات وما في الأرض جميعا منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون (13)﴾ [الجاثية: 12-13].

تبـيّن هـذه الآيات الكريمة أنّ الله –عزّ وجلّ- سخّر للإنسان كلّ ما في السّماوات والأرض، ولكـنّ هذا البيان جاء بشكل مجمل، يوحي بأنّ كلّ ما في الكون مذلّل لخليفة الله في أرضه، وفي مقابل هـذا الإجمـال، وردت آيات عديدة تفصّل بعض ما ذلّل لخدمة الإنسان؛ من ثروات حيوانية، ونباتية، وحـتّى معدنـية؛ هذه الثّروات الّتي لم يكن ذكرها عبثا، وإنّما كان لأغراض عديدة، منها أنّ الله –عزّ وجلّ- "يدفعنا دفعا إلى استغلال هذه الموارد، فهو ينبّه عقولنا ويلفت أنظارنا بقوّة إلى هذا الكون المحيط بـنا، والّـذي سخّره الله له، إن كان من أهل التّفكر والعلم"[2]؛ إذ من غير المعقول أن يلفت الله تعالى أنظارنـا لكـلّ تلك الثروات –بل للكون كلّه- لنمتّع أنظارنا بها وحسب، بل لنتفكّر فيها وفي كيفية اسـتغلالها، لمواصلة سير حياة الإنسان على وجه الأرض، وذلك لن يتحقّق إلاّ بالعمل "والبحث العلمي

---

(3) : الإيمان والحياة لـ: القرضاوي، ص: 300.

(1) : مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام لـ: سعيد سعد، ص: 250، نقلا عن الإسلام والتنمية الاقتصادية لـ: شوقي أحمد دنيا، ص: 85.

(2) : منهج القرآن في إصلاح المجتمع لـ: ، ص: 248. نقلا عن دور القيم والأخلاق في الاقتصاد ليوسف القرضاوي، ص: 131.

المتواصـل، كي يعرف البشر، ويتعلّمون على تنميتها، حتّى لا تستغرق ولا تبدّد نتيجة جهالتهم وسوء استخدامهم لها"[1]. وبذا يكون هذا الكون المذلّل دافعا إيجابيا، يدفع الإنسان إلى العمل، للاستفادة منه.

وإمعانـا في دفـع الإنسـان إلى العمـل والإعمار، كان الإيمان خير معالج "للبواعث النّفسية، والمعوقات العملية، الّتي تثبّط النّاس عن العمل، والسّعي والمشي في مناكب الأرض"[2]، وبيان ذلك كما يأتي :

*الإعراض عن العمل بسبب التّواكل؛ إذ يستشهد المتذرّعون، بذه الحجّة، بحديث رسول اللهﷺ : ((لو توكّلـتم عـلى الله حقّ توكّله لرزقكم، كما يرزق الطّير تغدو خماصا، وتروح بطانا))[3]، والواقع أنّ هذا الحديث نفسه يردّ عليهم، فإنّه لم يصمن لها الرّواح ملئ البطون، إلاّ بعد غدوّها، ومعنى الغدوّ، هو الخروج في الغدوة لطلب الرّزق –تغدو خماصا، وتروح بطانا- ففيه تنبيه على السّعي واتّخاذ الأسباب"[4].

*الإعـراض عن العمل –خاصّة العضلي- بسبب الاستهانة به، واحتقار صاحبه، وقد عمل النّبي ﷺ ، على بيان خطإ هذا التصوّر؛ بأن بيّن للنّاس كافّة، أنّه ﷺ ، وكلّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام- كانوا رعـاة، حيث قال : ((ما بعث الله نبيّا إلاّ نبّيا إلاّ ورعى الغنم))، فقالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : ((نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة))[1].

وكذلـك بان رفع من شأن العمل اليدوي، قائلا ﷺ : ((ما أكل أحد طعاما قطّ خيرا من أن يـأكل من عمل يدي، وإنّ نبيّ الله داوود كان يأكل من عمل يده))، وقال ﷺ: ((ما كسب الـرّجل كسـبا أطّيب من عمل يده))[2] وقالﷺ: ((لأنّ يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب الحطب على ظهره فيبيعها، فيكفّ الله با وجهه، خير من أن يسال النّاس أعطوه أو

---

[1] : مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي لـ: عبد العزيز فهمي هيكل. (إدارة النّهضة العربية، بيروت- لبنان، دت، دط)، ص: 93.

[2] : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام لـ: يوسف القرضاوي. (مؤسسة الرسالة) بيروت- لبنان، ط: 1405هـ-1985م). ص: 40.

[3] : أخرجه الترمذي في سننه. كتاب: الزّهد، باب: في التّوكّل على الله، رقم: 2266، ص: ، وأخرجه ابن ماجة في سننه؛ كتاب: الزّهد، باب: التّوكّل واليقين، رقم: 4154. ص: ، واخرجه أحمد. برقم: 200. ص: ، وكذا برقم: 348 و351.

[4] : مشكلة الفقر لـ: القرضاوي. ص: 41.

[1] : أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الغجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، رقم: 2102، وأخرجه ابن ماجة في سننه؛ كتاب: التجارات، باب: الصناعات، رقم: 2140. ص: .

[2] : أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: البيوع، باب: كسب الرّجل وعمله بيده، رقم: 1931. ص: .

منعوه))[3] ، ففي الحديث الأوّل، يتبّين "فضل العمل باليد، وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه، على ما يباشره بغيره، والحكمة في تخصيص داوود ﷺ بالذّكر، أنّ اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده، لم يكن مـن الحاجة، لأنّه كان خليفة في الأرض –كما قال تعالى- وإنّما ابتغى الأكل من طريق الفضل، ولهذا أورد الـنّبي ﷺ قصّته في مقام الاحتجاج بها على ما قدّمه، من أنّ خير الكسب عمل اليد"[4] وهذا ما أكّده الحديث الثّاني، أمّا الحديث الأخير، فيبّين "أنّ مهنة الاحتطاب، على ما فيها من مشقّة، وما يحوطها من نظرات الازدراء، وما يرجى فيها من ربع ضئيل، خير من البطالة وتكّفف النّاس"[4].

*الإعـراض عن العمل، بسبب الكسل، اعتمادا على الصّدقات[5]، وهذا ما لم يرضه الله تعالى، ورسوله ﷺ للعباد المؤمنين، ولذلك جاء التّشريع ببيان مستحقّي الصّدقات، حيث قال ﷺ: ((لا تحلّ الصّدقة لغنّي، ولا لذي مرّة [6] سويّ[7]))[8].

كمـا جـاء بالتّرهيب من المسألة لغير حاجة، حيث قال النّبيﷺ : ((ما يزال الرّجل يسأل النّاس، حتّى يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مزعة لحم))[1]، "قال القاضي : قيل معناه معناه : يـأتي يوم القيامة دليلا، ساقطا، لا وجه له عند الله، وقيل هو على ظاهره؛ فيحشر ووجهه عظم لا لحم علـيه، عقوبـة له، وعلامـة له بذنبه حين طلب وسال –بغير حاجة- كما جاءت الأحاديث الأخر بالعقوبات في الأعضاء، الّتي كانت بها المعاصي، وهذا فيمن سال لغير ضرورة، سؤالا منهيا عنه.

ثانيـا : الإيمـان يدعـو إلـى إتقـان العمـل

يتمـيّز العمل، الّذي أوجبه الله تعالى، وبيّنه رسولهﷺ على المؤمنين، بالإحكام والإتقان، وذلك ليـتمكّن الإنسان من عمارة الأرض، وتحقيق خلافة الله عليها، حيث يقول النّبي ﷺ : ((إنّ الله يحبّ

---

[3] : أخرجه ابن ماجة في سننه؛ كتاب: التجارات، باب: الحث على المكاسب، رقم: 2129. ص: .

[4] : أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسالة، رقم: 1378، كتاب المساقاة، باب: بيع الحطب والكلا، رقم: 2200. ص: ، واخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الزكاة، باب: كراهية المسالة للنّاس. رقم 1728. ص: .

[4] : فتح الباري لـ: بن حجر العسقلاني. ص: .

(5)

(6)

(7)

(8)

(1)

إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه))[2]؛ أي يحكمه،...فعلى الصّانع...أن يعمل بما علّمه الله، عمل إتقان وإحسان، بقصد نفع خلق الله، الّذي استعمله، ولا يعمل على نّية أّنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب ما تقتضيه الصّنعة"[3].

وأمّا ما يقصد بمحّبة الله تعالى، للعبد العامل، المتقن لعمله، يقول الإمام الّنووي -شارحا لذلك- "المحّبة : الميل، وليستحيل أن يميل الله تعالى، أو يمال إليه، وليس بذي جنس ولا طبع، فيوصف بالشّوق الّذي تقتضيه الطبيعة لبشرية، فمحّبته للعبد، إرادته تنعيمه أو هي إنعامه"[4].

أمّا إذا جرّد العمل من صفة الإتقان، فإّنه سيكون وبالأعلى صاحبه، وعلى الـتمع أيضا؛ أمّا على صـاحبه، فلكونـه سـببا في إهدار وقته وجهده في القيام بعمل لا يحّبه الله تعالى، ورسولهﷺ والمؤمن مسؤول عنهما، بدليل قوله ﷺ : ((لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حّتى يسأل عن عمره فيم أفـناه، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله ، من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه)).

أمـاّ بالّنسبة للمجتمع، فإنّ هذا العمل بدل أن يكون عامل بناء وتنمية، وتحوّل إلى عامل هدم، وذلك لما يحمله من معاني الغشّ وخيانة الأمانة، وأكل مال الّناس بغير حق.

ولهذا كان الأصل أن يكون المؤمن بالله تعالى، أكثر الّناس قدرة، على إتقان العمل، لما يّتصف به من مكارم الأخلاق، الّتي زّينه بها إيمانه بالله تعالى.

ثالثـا : الإيمـان يرفـع العمـل إلـى مصـاف العبـادة

مـن بـين مـا يساهم في دفع الإنسان المؤمن إلى الإقبال على العمل بكلّ جدّ وحيوية، كون "الإسـلام صريح في اعتبار عمل الإنسان لمعاشه ودنياه، وسعيه على نفسه وأهله من أبواب العبادة"[1]، ودليل هذا :

*السّـعي جهـادا في سـبيل الله تعالى؛ فعن كعب بن عجرةﷺ قال : مرّ على الّنبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه، فقالوا : يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله ؟ فقال : ((إن كـان خـرج يسـعى عـلى ولده صغارا، فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبويه

---

(2)

(3)

(4)

(1) : منهج القرآن في إصلاح المجتمع. ، ص: 245.

شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءا ومفاخرة، فهو في سبيل الشّيطان))[2].

*السّعي لطلب الحلال واجب وفريضة، وعليه، فالسّاعي مؤدّ لفريضة الله تعالى، مستجيب لأمره، يشهد لهذا قوله ﷺ : ((طلب الحلال واجب على كلّ مسلم))[1]، وفي رواية ((طلب الحلال فريضة بعد الفريضة))[2].

*السّعي في الأرض، والإقبال على عمارتا، إنّما هو استجابة لأوامر الله تعالى، وبالتّالي هي عبادة يتقرّب با إليه تعالى، حيث قال تعال : ﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [العراف: 129]، فمـن تـبعات الاستخلاف، "العمل كدحا وكدّا، وباستمرار من قبل الخلق، على تنمية أو تثمير المال، خلال الزّمن، حتّى قيام السّاعة، والعمل المطلوب، هو العمل الصّالح،.. الّذي تزكو به النّفس، وتقوم به الأخـلاق، وتتسـع به دائرة البرّ ويحفظ به الدّين والبدن والعقل والمال والنّسل، أيّ العمل الّذي يحقّق صلاح البال، بإصلاح الدّين والدّنيا"[3].

يتبّين ممّا سبق، أنّ الإيمان هو السّبيل الأجدى، والأقدر على دفع الإنسان إلى العمل المتقن، الّذي تنشده البشرية جمعاء. وذلك لما يزرعه الإيمان من معان جليلة في قلب المؤمن؛ كالخضوع لأوامر الله تعالى، القاضية بالسّعي، والعمل الجادّ، لإقامة خلافة الله تعالى على الأرض، وفق المنهج الّذي يرتضيه.

وكالرّغبة، فيما يوركه العبد من نعم وحسنات، جرّاء الاستجابة لأمره تعالى وكالرّهبة –أيضا- ممّا قد يصيب العبد من عذاب في الدّنيا والآخرة، نتيجة إعراضه عن شرع الله، وعدم استجابته لما يأمر.

كما يتبّين أيضا، أنّ العمل السّوي، حضي بمكانة رفيعة، في دين الإسلام، لم يرق إليها أي فكر آخـر، إنّما مكانة العبادة، الّتي تقرّب العبد من الخالق، والّتي تضفي على العمل لتلبية حاجات الجسد، لمسـة روحية، تساهم في تحرير الفكر الإنساني من فقه التوازن بين الجسد، الّذي لطالما غذّته المعتقدات، والمذاهب الأخرى، والّتأسيس لتكاملهما المبني على توازنهما.

---

(2) : أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد. كتاب: النكاح. باب: النفقات. ص: 325/4. ورواه الطبراني في المعجم الأوسط. رقم: 6835. ص: 56/7.

(1) : رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: 8610، ص: 272/8.

(2) : رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: 9993، ص: 74/10.

(3) : حول المنهج الإسلامي في التّنمية الاقتصادية لـ: عبد الحميد الغزالي. (دار الوفاء، المنصورة ـ مصر، ط:1 : 1409هـ-1989م). ص: 70.

المطـلب الثالـث
الإيمـان والمـال

لا شك في أنّ المال يعدّ ويعتبر عنصر فعّال في كلّ مجالات الحياة ولا سيما في المجال الاقتصادي، وكذا لأنّه عنصر أساسي في تحريك اليد العاملة، الّتي تسعى إلى إعمار الأرض، وتنمية الحياة البشرية عليها في مختلف المجالات.

ولعلّه نتيجة لذلك، حظي "المـال" بقسط وافر من الاهتمام، والبيان في كتاب الله تعالى، وكذا في سنّة نبيّنة محمّدﷺ ، هذين المعينين اللّذين بيّنا المنزلة الحقيقية، الّتي يحتلّها "المال" بالنّسبة للإنسان، ووضّحا الوظيفة، الّتي يجب أن يؤدّيها في المجتمع، ثمّ دعيا إلى ضرورة المحافظة عليه وإنمائه.

وبناء على هذا يكون للمؤمن، توجّه خاص، ومميّز، أثناء تعامله مع "المال" كعنصر اقتصادي هامّ، بحيث يكون هذا التّوجّه خاضعا أوّلا وأخيرا للتّعاليم الإسلامية، الّتي قد ترفض بعض ما يؤدّي –ظاهريا- إلى إنماء المال، كما قد تفرض بعض ما يؤدّي –ظاهريا أيضا-، إلى إنقاصه ومحقه، وهذا ما يؤكّد العلاقة القائمة بين الإيمان، الّذي يعدّ مسالة عقدية، وبين "المال" الّذي يعتبر من أهم العناصر الاقتصادية؛ ذلك أنّ الإيمان يكون تارة بمثابة الدّافع القوّي، الّذي يؤدّي إلى القيام بمعاملات مالية معّينة. ويكون تارة أخرى، بمثابة المنبط القوّي أيضا، الّذي يؤدّي إلى شلّ معاملات مالية أخرى، نتيجة امتناع المؤمنين عن مزاولتها.

وعليه سيكون حديثي –بإذن الله تعالى- عن تأثير الإيمان في "المال" بوصفه أحد العناصر الاقتصادية الهامّة، كما يأتي :

أوّلا = الإيمان يبّين منزلة المال.

ثانيا = الإيمان يدعو إلى المحافظة على المال.

أوّلا : الإيمـان يبيـّن وضعيـة المـال الحقيقيـة

يلفت القرآن الكريم نظر عباد الله إلى حقائق عديدة، تبّين منزلة ووضعه الحقيقي، بالنّسبة إليهم، أوّلها أنّ المالك الفعلي للمال، إنّما هو الله تعالى، ولا شريك له ابد فيه، ويشهد لهذا كثير من الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ له ملك السّماوات والأرض﴾ [البقرة: 107]، وقوله –عزّ من قائل-: ﴿لله ما في السّماوات وما في الأرض﴾ [البقرة: 284]. وقوله تعالى :﴿ وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النّحل: 53]، فكلّ هذا، إنّما هو "إخبار من الله أنه له ما في السّماوات وما في الأرض؛ الجميع خلقهم

ورزقهم ودّبرهم لمصالحهم الدّينية والدّنيوية"[1]، وانّ كلّ ما بم من نعمة ظاهرة وباطنة، فمن الله تعالى وحده، ولا يشاركه فيها أحد[2].

وأمّا ثانيها، فهي أنّ الله سبحانه وتعالى، قد أتى الإنسان هذا المال، وجعله مستخلفا فيه، حيث قال تعالى: ﴿ وآتوهم من مال الله الّذي آتاكم﴾ [النور: 33]، وقال –عزّ من قائل-: ﴿وأنفقوا مّما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد: 07]؛ أي "أنّ الأموال الّتي في أيديكم، إّنما هي أموال الله، بخلقه وإنشائه لهل، وإّنما موّلكم إّياها، وخوّلكم الاستمتاع با، وجعلكم خلفاء بالّتصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلاّ بم لة الوكلاء والّنواب"[3]، وعليه يتبّين بأّنه تعالى قد اعتبر "المال وديعة عند الإنسان، واعتبر الإنسان مستخلفا في ذلك المال، وحارسا عليه، وعلى الحارس أن يّتصف في خلقه وسلوكه، بكلّ صفات الحارس العفّ الأمين، الّتي تخوّله أن يبقى قائما على حراسة ما بين يديه[4]، وكيلا على مال الله تعالى، وبالّتالي عليه أن يتصرّف وفق ما يملي عليه موكّله تعالى، ووفق ما يرضيه، وأمّا غيره، فيعتبر نفسه صاحب المال، ومالكه الحقيقي، ولا حقّ لغيره أن يتدخّل في كيفية تصرّفه به، وبذا ينفرط عقد الترابط الاجتماعي، بعد أن صار كلّ فرد يسعى إلى تحقيق أهدافه وحده، دون إبداء أي اهتمام.

وثالثها أنّ الله –سبحانه وتعالى- جعل المال وسيلة، يتوصّل با إلى إقامة حياة كريمة، طّيبة، يشهد لهذا قول الله –عزّ وجلّ-: ﴿ولا تؤتوا السّفهاء أموالكم، الّتي جعل الله لكم قياما﴾ [الّنساء:05]. "وقوله "قياما" بمعنى قوامكم في معايشكم"[1]؛ "فالمال هو وسيلة العيش، وهو أصل تقوم عليه الحركة المعيشية"[2]، كما أّنه عون للمؤمن "في دنياه على أخرته،...وأداة يستخدمها في تنمية طاقات الطبيعة الّتي لا تحصى، وطاقات البشر، الّتي لا حدّ لها، وذلك من أجل تحقيق المجتمع الفاضل، الّذي يعيش أفراده في رفاهة، دون أيّ قلق على مستقبلهم"[3].

ومّما يؤكّد أيضا بأنّ المال وسيلة بالّنسبة للمؤمن لا غاية ما يأتي :

---

(1) : تيسير الرّحمان لـ: السّعدي. ص: 120.
(2) : أنظر المرجع نفسه. ص: 442.
(3) : الكشاف لـ: الزّمخشري. ص: 200/3.
(4) : قواعد وأحكام في الاقتصاد الإسلامي. لـ: يوسف العظم. ص: 35.
(1) : تفسير الطبري. 249/4.
(2) : العمل الاقتصادي من وجهة نظر الإسلام لـ: رؤوف شلبي. (دار الضّياء: قسنطينة – الجزائر، دت، دط). ص: 59
(3) : مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي لهيكل. ص: 85.

1= فرض الزكاة على المال، الّذي بلغ النّصاب، بموجب قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدّين حنفاء ويقيموا الصّلا ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة﴾ [البيّنة: 05]، وقد بيّن الله تعالى مصارف الزّكاة في قوله : ﴿ إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل﴾ [التوبة: 43]، وبهذا تصير "الزّكاة من أهمّ عوامل الرّواج الاقتصادي، وتنشيط الحركة المالية للمجتمع، ممّا يعود بالنّفع على جميع أفراده، كما أنّها من أهمّ عوامل توزيع الثروات وتفتيتها، ومن أقوى عوامل انتشار والألفة والمودّة والتّراحم بين النّاس، والقضاء على أسباب البغضاء والحسد، والأنانية بين أفراد المجتمع المسلم"[4].

2= دعوة المؤمن إلى الإنفاق من مال الله، الّذي آتاه، وترغيبه في ذلك، حيث قال تعالى :﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة: 261]؛ ففي "موكب الحياة النّامية الواهبة، يتّجه – الله تعالى- بالضمير البشري إلى البذل و العطاء؛ إنّه لا يعطي بل يأخذ، وإنّه لا ينقص بل يزاد،... وتمضي موجة العطاء والنّماء في طريقها، تضاعف المشاعر الّتي استجاشها مشهد الزّرع والحصيلة..إنّ في ذلك يضاعف لمن يشاء، يضاعف بلا عدّة ولا حساب، يضاعف من رزقه الّذي لا يعلم أحد حدوده ومن رحمته الّتي لا يعرف أحد مداها"[1].

يقول تعالى- إمعانا في الترغيب في الإنفاق :﴿الّذين ينفقون أموالهم ب اللّيل والنّهار، سرّا وعلانية، فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: 274]، فقوله تعالى:﴿الّذين ينفقون أموالهم ﴾ "هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع المال.. ﴿باللّيل والنّهار سرّا وعلانية ﴾ لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات ﴿فلهم أجرهم عند ربّهم ﴾ هكذا إطلاقا؛ من مضاعفة المال، وبركة العمر، وجزاء الآخرة، ورضوان الله، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾؛ لا خوف عليهم من أيّ مخوّف، ولا حزن من أيّ محزن، في الدّنيا وفي الآخرة سواء »[2].

فكلّ هذا الجزاء، وكلّ هذه النّعم الجليلة، يتحصل المؤمن عليها جزاء إنفاقه من مال الله الّذي أعطاه؛ هذا المال الّذي أحسن التّصرف فيه كما أمره ربّه تعالى، بأن جعله وسيلة لعيشه هو، ولعيش غيره، من أفراد المجتمع الفقراء.

---

(4) :منهج القرآن في إصلاح المجتمع لـ: ، ص: 259.
(1) : في ظلال القرآن لـ: السيّد قطب. 316/1.
(2) : المرجع نفسه. ص: 303/1.

3=ثّم وتّوعد الّذين يبخلون بما عندهم من مال –وغيره-، ويحرصون على كسبه وتكديسه حتّى يتحّول إلى غاية عندهم، لا وسيلة، وتطغى عليهم محّبته، حتى ليكاد لها. وفي هذا يقول الله تعالى :﴿ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرّ لهم سيطـ ـ ـ ـ ـوّقـ ـون ما بخـ ـلـ ـ ـ ـوا به يـ ـوم القيـ ـامة ولله ميـ ـراث السّمـ ـاوات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ [آل عمران: 180]؛ أي ولا يظنّ الّذين يبخلون؛ أي يمنعون ما عندهم مّما آتاهم الله من فضله؛ من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مّما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرّهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه وضّنوا به على عباد الله، وضّنوا أّنه خير لهم، بل هو شرّ لهم، في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم، ﴿سيطّوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أي: يجعل ما بخلوا به طوقا في أعناقهم، يعذبون به »[1]؛ ذلك أنّ البخل سوف يؤّدي إلى حبس المال، ومنع وحرمان المجتمع مّما سيدرّه الإنفاق عليه من فوائد، كضمان عدالة توزيع الأموال بين الّناس، والّتمتع بوسائل العيش الضرورية للحياة، وتحقيق التضامن والّتعاون الاجتماعي بين أبناء المجتمع[2].

4= تحريم اكتناز الذّهب والفضة -أي المال-، ودليل هذا قوله تعالى :﴿والّذين يكـ ون الذّهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم (34) يوم يحمى عليها في نار جهّنم فتكوى بها وجنوبهم وظهورهم جباههم هذا ما كـ تم فذوقوا ما كنتم تكـ ون﴾ [التوبة: 34 -35] أي أنّ الّذين يكـ ون الذّهب والفضّة ويمسكونها عن الّنفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزّكاة أو الّنفقات الواجبة للزّوجات أو الأقارب، أو الّنفقة في سبيل الله إذا وجبت، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ فيحمى كلّ دينار أو درهم على حدّته، ﴿فتكوى بها وجنوبهم وظهورهم﴾ في يوم القيامة كلّما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخا ولوما ﴿هذا ما كـ تم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكـ ون﴾ فما ظلمكم، ولكّنكم ظلمتم أنفسكم وعذّبتموها بهذا الكـ »، وبهذا يكون قد وجب على المؤمن، أن يصرف ماله وفق الوجه المشروعة، الّتي حدّدها الله سبحانه وتعالى، ذلك لأنّ « الّنقود لم تخلق لتحبس وتكـ ، إّنما خلقت لتتداول، وتنتقل من يد إلى يد، ثمنا لبيع، أو أجر العمل، أو عينا ينتفع بها، أو رأس مال الشركة، أو مضاربة، فهي وسيلة لأغراض شّتى، وليست هي غرضا في ذاتها، ولا يجوز أن يحوّلها الّناس إلى وثن يعبدونه، ويطوفون به، فهذا من أكبر أسباب الّتعاسة والشّقاء »[1]، كما جاء في حديث الّنبي ﷺ: ((تعس عبد الدّينار، تعس عبد الدّرهم))[2].

---

[1] : تيسير الرّحمان لـ: السّعدي، ص: 158.
[2]
[1]
[2]

ولمّا كان المال يعتبر وسيلة وحسب في حياة المؤمن، فإنّه حظي باهتمام بالغ من الله تعالى ورسوله ﷺ وذلك لماله من أهمّية في تبادل المنافع، وقضاء الحاجيات، وتسيير لخدمات. وتتجلّى ذلك الاهتمام فيما يأتي :

1= « إنزال الله تعالى أطول آية، في كتابه الكريم، في تنظيم شأن من شؤون المال وحفظه وصيانته، وتوثيق معاملاته بالكتابة والإشهاد، والرّهن، ونحو ذلك، وهي الآية المعروفة بآية المداينة »[3]، والّتي تتمثّل في قوله تعالى : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل..﴾ [البقرة: 282].

2= الّتعبير عن المال بالخير في القرآن الكريم[4]، كما في قوله تعالى :﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصّية للوالدين والأقربين بالمعروف..﴾ [البقرة:180]، « والخير هنا المال »[5]، وكقوله تعالى –أيضا- :﴿وإّنه لحبّ الخير لشديد﴾ [العاديات: 58]، وقوله تعالى –عزّ من قائل- :﴿إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ [القصص: 24].

3= امتنان الله تعالى، على رسوله الكريم؛ محمد ﷺ بالغنى[1]، حيث قال –عزّ من قائل:﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ [الضّحى: 08]؛ « أي كنت فقيرا ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه »[2].

4= دعوة الّنبي ﷺ رّبه بأن يغنيه، حيث قال : ((اللّهمّ إّني أسالك الهدى، والّتقى، والعفاف والغنى))[3].

5= مدح الّنبي ﷺ للمال الصّالح،الّذي يكون بحوزته العبد الصّالح، فلا ينفقه إلاّ في أوجه الخير،حيث قال ﷺ: ((يا عمرو نعمّا بالمال الصّالح للمرء الصّالح))[4].

6= تفضيل الّنبي ﷺ للعبد الغني على العبد العائل، يتبّين ذلك من قوله لسعد بن أبي وقاص: ((إّنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة، يتكفّفون الّناس))[5].

هذه م لة المال بالّنسبة للمؤمن، أمّا بالّنسبة إلى غيره، فإّنها تختلف عنها كلّ الاختلاف، فالمال عندهم غاية، يسعون إلى الوصول إليها بشتى الطّرق، ولا يرون أيّ حرج في سلوك أيّ منها؛ إذ الحلال

---

(3)

(4)

(5)

(1) : انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع لـ: .ص: 242.

(2) : تفسير القرآن العظيم لابن كثير. 524/4.

(3) :

(4) :

(5) : أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا النّاس. رقم: 2537، ص: . وأخرجه مسلم في صحيحه؛ كتاب: الوصية، باب: الوصيّة بالثلث. رقم: 3076. ص: .

لديهم ولا حرام، وإلاّ فهو وسيلة يتوصّل بها إلى تحقيق الأهواء العارمة، أو الشّهوات الهادمة؛ كنشر الفساد الأخلاقي بين النّاس، أو كالسّيطرة على الفئات الضعيفة، أو كسلب الحقوق ونهب الثروات... الخ، وكلّ هذا لأنه لا حساب عندهم ولا عقاب، ولا وجود –حقيقي- في هذا الحياة إلاّ لنفوسهم الأنانية، الّتي تحطّم، كلّ ما يقف بطريق أهوائها وشهواتها.

وتحوّل المال من وسيلة بنّاءة، إلى وسيلة هدّامة، أو إلى غاية، تشرئب كلّ العناق لتحقيقها، يجعل الشّارع أيضا، يحوّل موقف، المهتمّ المساند، إلى موقف المندّد، المعارض، بأن يعتبر المال في هذه الحالة، فتنة، قد تبعد النّاس عن دينهم، وتؤثّر في قوّة إيمانهم، فحذّر العباد منها، حيث قال تعالى: ﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عنده أجر عظيم﴾ [الأنفال: 28]، وقال الرّسول ﷺ: ((إنّ لكلّ أمّة فتنة، وفتنة أمّتي المال))[1].

ثانيـا : الإيمـان يدعـو إلـى المحافظـة علـى المـال

ممّا يميّز المؤمن المؤمن عن غيره، في المجال الاقتصادي أيضا، محافظته على المال الّذي بين يديه، ذلك أنّه –كما رأينا سابق- يعدّ نفسه وكيلا على ذلك المال، ومستخلفا فيه، فلا بدّ عليه، أن يراعي أوامره تعالى، المبّينة لكيفية صرفه وإنفاقه، والّتي نذكر منها ما يأتي :

1= القصد والاعتدال في الإنفاق، وذلك بموجب قوله تعالى :﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ [الإسراء: 29]، " فالتوازن هو القاعدة الكبرى في النّهج الإسلامي، والغلو كالتفريط يخلّ بالتوازن، والتعبير هنا القاعدة، والتعبير هنا يجري على طريقة التّصوير، فيرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق، ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كلّ البسط، لا تمسك شيئا، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة، كقعدة الملوم المحسور، والحسير في اللّغة؛ الدّابة تعجز عن السّير، فتقف ضعفا وعجزا، فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف، وكذلك المسرف، ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير، ملوما في الحالتين على البخل وعلى السّرف، وخير الأمور الوسط»[2]. ذلك لأنّ الوسطية والاعتدال في الإنفاق، يعد قانونا « له أثره في حلّ المشكلة الاقتصادية؛ إذ رفاهية الإنسان، خاضعة إلى الإنتاج والإنفاق معا، فكثرة الإنفاق مع الإنتاج، لا تحقّق الرّفاهية، واتزان الأنفاق، مع اعتدال الإنتاج...يحقّق الرّفاهية، لأنّ كلّ فرد سيجد ما يحتاجه دون جهد»[1] كبير؛ ولهذا صدق رسول الله ﷺ حينما قال : ((

---

[1] : أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فتنة هذه الأمّة في المال، رقم: 2258. ص: ، وأخرجه أحمد في مسنده. رقم: 16826. ص: 0.

[2] في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2223/4.

[1] : العمل الاقتصادي من وجهة نظر الإسلام لـ: ، ص: 68.

ما عال من اقتصد))[2]، « أي: ما افتقر، وهو يصلح على الفرد، كما يصلح على الجماعة »[3]، هذه الجماعة، الّتي تنال عند اتصافها بالقصد والاعتدال في الإنفاق –مع صفات أخرى- شرف الوصف والتسمية بـ : "عباد الرّحمان"، الّذين من بين ما وصفهم به تعالى، قوله:﴿والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يفتروا وكان بين ذلك قواما﴾ [الفرقان: 67]، أي « ليسوا بمبذّرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصّرون في حقّهم. فلا يكفونهم، بل عدلا، خيارا، وخير الأمور أوسطها »[4].

2= النّهي عن التبذير والإسراف؛ إذ يقول الله تبارك وتعالى :...﴿ولا تبذّر تبذيرا (26) إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشّياطين وكان الشّيطان لربّه كفورا (27)﴾ [الإسراء: 26-27]. فالله تعالى ينهى عباده المؤمنين عن التبذير، « والتبذير –كما يفسّره ابن مسعود وابن عباس- الإنفاق في غير حقّ، وقال مجاهد : "لو أنفق إنسان ماله كلّه في الحقّ لم يكن مبذّرا، ولو أنفق مدّا في غير حقّ كان مبذّرا. فليست هي الكثرة والقلّة في الإنفاق، إنّما هو موضع الإنفاق، ومن ثمّ كان المبذّرون إخوان الشّياطين، لأنهم ينفقون في الباطل، وينفقون في الشّر، وينفقون في المعصية، فهم رفقاء الشّياطين وأصحابهم ﴿وكان الشّيطان لربّه كفورا﴾، لا يؤدّي حقّ النّعمة، كذلك إخوانه المبذّرون، لا يؤدّون حقّ النّعمة، وحقّها في الطّاعات والحقوق، غير متجاوزين ولا مبذّرين »[5].

كذلك ممّا جعل التّبذير والتّرف، محلّ

بعدما عرفنا في الفصول السابقة أبعاد الإيمان؛ النفسية والفكرية، والأخلاقية والاجتماعية، وحتّى الاقتصادية، آن لنا الآن أن نتعرّف على بعده السّياسي، وذلك نظرا لما يحظى به المجال السّياسي، من مكانة هامّة بين بقية المجـالات الأخرى؛ فكما هو معروف، السّياسة تقيم الاقتصاد ثمّ تقوم عليه، وتسير المجتمع وفق القانون الّتي ترتضيه، وتسوّد الفكر الّتي تبتغيه، وتروّج للخلق الّذي تشتهيه، ولهذا كان لزاما علينا أن نعرف صلة الإيمان بها، خاصة وأنّا علمنا صلّته ببقية المجالات الأخرى، وكذا صلة السّياسية بتلك المجالات أيضا.

---

(2) :

(3) : منهج القرآن في إصلاح المجتمع. ص: 250.

(4) : تفسير القرآن العظيم لـ: ابن كثير. ص: 37/3.

(5) : في ظلال القرآن لـ: سيّد قطب. ص: 2222/4.

وقبل أن نخوض في بيان البعد السّياسي للإيمان، يسّتحسن أن نتعرف عمّا يقصد بالسّياسة في هذا البحث:

السّياسة لغة؛ مصدر للفعل: « سَاسَ، يَسُوسُ، سَوْساً، والسوْسُ: الرئَاسَةُ، يقال: سَاسُوهُ سَوْسًا، إذا رأسوه،... وسَاسَ الأمر سِيَاسَةً؛ قام به،... وسَوسَهُ القوم؛ جعلوه يسوسهم، ويقال: سُوسَ فلان أمر بني فلان؛ أي كلّف سياستهم »[1]

وبذا يّتضح بأنّ المعنى اللّغوي للسّياسة، قد اّتصل في لغة العرب« بالرئاسة وتولي الأمور، فهذا هو أصل وضع السّياسة في اللّغة، ثمّ وسمت بأّنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح العامّة، وانتظام أحوال الرّعّية»[2]

أما اصطلاحا، فقد عرّفت السّياسة بأّنها: « ما كان فعلا، يكون اّلنّاس معه أقرب إلى الصـلاح، وأبعد عن الفسـاد، وإن لم يضعه الرّسول- صلّى الله عليه وسلم- ولا نزل به الوحي » [3] كما عرّفت بأّنها؛« تدبير الأمر في الأّمة بما يصلحه»[4]

---

(1) : لسان العرب لـ: ابن منظور.ص:108/6.

[2] : الشهب اللامعة في السياسة النافعة لـ :عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي.(دار المدار الإسلامي:لبنان،ط:2002م)

ص : 26. نقلا عن: علم السياسة لحسن صعب. ص:19.

[3]: الطّرق الحكمية في السّياسة الشرعية لـ: أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر؛ ابن قيم الجوزية. (دار الفكر: بيروت- لبنان، دط، دت). ص: 15.

[4] : خصائص التشريع الإسلامي في السّياسة والحكم لـ: فتحي الدّريني. (مؤسسة الرّسالة: بيروت- لبنان، ط: 2: 1407هـ- 1987م). ص: 412.

وبعد هذه التعاريف_ اللّغوية والاصطلاحية_ المجملة، يمكننا أن نطرح الأسئلة الآتية:

هل للسّياسة صلة بالإيمان؟ وما موقع الإيمان من الفعل السّياسي؟

ثمّ كيف يتمكن الإيمان من التأثير في الفعل السّياسي، الذّي لم يشر إليه الكتاب الكريم، أو السّنة الشريفة؟

للإجابة عن هذه الأسئلـة، علينا أولا أن نثبت وجود صلة بين الإيمان والسّياسة ثم نبين بعدها، فيما تكمن هذه الصلة. وبناء على هذا، يكون الحديث مقسّما وفق هذه المطالب:

المطلب الأول: الإيمان والسّياسة.

المطلب الثاني: الإيمان والحكم.

المطلب الثالث: الإيمان أصل في تنظيم العلاقة بين الرّاعي والرّعية.

المطلب الأول
الإيمان والسّياسة

يمكنا القول بناء على ما سبق بيانه في الفصول الأولى، أنّ الإيمان بالله تعالى، له حضور قويّ في جميع مسالك الحياة؛ فهو الترجمة الفعلية، للمنهج الذي خطّه الله- عزّ وجل- لإقامة الخلافة على الأرض والمضيّ بها قدما؛و مردّ ذلك أنّ الإيمان بالله تعالى، قد تربع على عرش قلب المؤمن، وكذا على عرش فكره، فخضعت له بقية الجوارح الأخرى بكلّ سهولة ويسر؛ إذ من غير المستساغ عقلا، أن يقتنع الفكر بأمر ما، ويعتقده القلب، ثم تأتي الجوارح غيره، وإن حدث هذا، فإنما يعني حدوث اضطراب في أحدهما؛ بأن يغفل هذا الفكر حينا، أو يجمد حينا آخر، أو أن يغلب هذا القلب هواه فينة، أو تغلبه شهواته فينة أخرى.

ولمّا كانت السّياسة، إحدى مجالات الحياة الإنسانية، فلن تشذّ عن سابقاتها، ولا بدّ أن يطالها هذا المنهج، بتوجيهاته وتعليماته، ولابدّ أن يؤثّر الإيمان عليها، باعتباره سمة ثابتة بالمؤمن، لا تنفك عنه طرفة عين، وكذا باعتباره صفة موجّهة لكافة أفعاله وتصرفاته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى باعتبار أنّ السّياسة، ما هي إلا فعل من الأفعال الصّادرة عن هذا الفرد المؤمن ألا وهو: فعل الحكم، وإقامة الدولة.

وقد تضافرت الأدلة على وجود صلة متينة بين الإيمان والسّياسة، لا ينكرها إلاّ مجحف، نذكر من بينها ما يلي:

1- نفي الإيمان عن الذين لم يخضعوا لحكم اللّه تعالى، ورسوله – صلى الله عليه وسلم-؛ إذ يقول تعالى: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثمّ يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين (47) وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون (48) وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين (49) أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظّالمون (50)﴾ [النور: 47-50]؛ ففي هذه الآيات الكريمة، دليل على «أنّ الإيمان، ليس هو مجرّد القول، حتّى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمّن تولّى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كلّ حال، وأنّ من لم ينقد له، دلّ على مرض في قلبه، وريب في إيمانه»[1]؛وإذا كانت السياسة هي فن الحكم فإن الإيمان يفرض عدم خروج هذا الحكم عن أمر الله تعالى.

2- ربط الإيمان بالخضوع لأمر الرسول- صلّى الله عليه وسلّم-، وتحكيمه فيما شجر بين النّاس، يشهد لهذا قوله تعالى، ﴿ وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن اللّه ولو أنم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيما(64) فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يـ ـجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيت ويسلّموا تسـ ـ ـ ـليما (65) ﴾ [النساء:64-65]؛ فالله سبحانه وتعالى يخبر « خبرا في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرّسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرّسل أن يكونوا مطاعين، ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به، ونهوا عنه»[2] ، ثمّ في الآية التالية « يقسم تعالى، بنفسه الكريمة، المقدّسة، أنّه لا يؤمن أحد، حتّى يحكم الرّسول- صلّى الله عليه وسلّم – في جميع الأمور، فما حكم به، فهو الحق، الّذي يجب الانقياد له، باطنا وظاهرا، ولهذا قال: ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيت ويسلّموا تسليما »[3].

3- أمر المؤمنين بطاعة الحكام، إلى جانب طاعة الله تعالى، وطاعة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم -، إذ يشهد لهذا قوله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء : 59]؛فالله سبحانه وتعالى « أمر بطاعته - عزّ وجلّ – أوّلا، وهي امتثـ ـال أوامره، واجتنـ ـاب نواهيـ ـه، ثمّ بطاعة رسوله ثانيا، فيما أمر به ونهى عنه، ثم

---

(1) : تسيير الكريم الرحمن لـ : السّعدي. ص: 572.

(2) : المرجع نفسه. ص: 184.

(3) : تفسير القرآن العظيم لـ : ابن كثير. ص:521/1.

بطـ ـاعة الأمراء ثالثا – على قول الجمهور- »[1]، والملاحـ ـظ على هذه الآيـ ـة الكـ ـريمة، أنّ « النّص يجعل طاعة الله أصلا، وطاعة الرسول أصلا كذلك – بما أنه مرسل من عنده – ويجعل طاعة أولي الأمر منكم... تبعا لطاعة الله وطاعة الرّسول، فلا يكرر لفظ الطّاعة عند ذكرهم، ..ليقرّر أنّ طاعتهم مستمدّة من طاعة الله وطاعة رسوله، بعد أن قرّر أنّهم "منكم" – أي من المؤمنين – بقيد الإيمان وشرطه »[2]. وبهذا تصبح طاعة الحاكم، وهي من الأفعال السّياسية، واجبة على كلّ مؤمن، بموجب إيمانه بالله تعالى وخضوعه لأمره.

4- ارتباط بعض الأعمال السّياسية بغضب الله تعالى، أو رضاه، وهذا ما يعني أنّ تلك الأفعال قد تزيد من إيمان الفرد، نتيجة لمرضاة الله – سبحانه وتعالى – عليه، وقد تحبط إيمانـ ـه، نتيجة غضب الله_ عزّ

وجل _ عنه، فمـثال الأولى، قولـه - صلّى الله عليه وسـلّم -: ((إِن المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِر مِنْ نُورٍ: الذِيـنَ يَعْدِلُونَ فيْ حُكْمِهِمْ، وأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا.)) (3) وأمّا المثال الثانية، فقوله - صلّى الله عليه وسلّم -: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيْهِ الله رَعِيةً، يَمُوت يَوْمَ يَمُوتُ، وهُوَ غَاشٌ لِرَعِيـتِهِ ،إلا حَرَمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَةَ)) (4)

5- تضمّن القرآن الكريم، وكذا السّنة النبوية المطهرة، العديدة من التوجيهات، والمبادئ السّيـاسية،التي يجب تطبيقها بموجب ميثاق الإيمان بالله تعالى؛ من بين تلك التوجيهات «ما يتعلّق بنظام الحكم وأصوله؛ ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم، وتقـريرما للأفـراد

---

(1): الجامع لأحكام القرآن لـ : القرطبي.ص:259/5.

(2): في ظلال القرآن لسّيد قطب. ص: 61/2

(3): أخرجه مسلم في صحيحه؛ كتـاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق، رقم: 1827، ص: 1458/3. وأخرجه النسائي في سننه؛ كتاب: آداب القضاة، باب: فضل الحاكم العادل في حكمه. رقم: 5379، ص:221/8. وأخرجه أحمد في مسنده. رقم: 6485، ص:159/2.

(4): أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: من استـرعي الرعـيّة فلم ينصـح. رقم: 6732 ص:2614/6. وأخرجه مسلم؛ كتاب: الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعّيته النار. رقم: 142، ص: 125/1.

والجماعات من حقوق، وآياتها نحو العشرة، »(1) وكذا ما يتعلّق « بمعاملة الدولـة الإسلامية لغيرها من الدول، ومعاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ويقصد بها تحديد علاقة الدولة الإسلامية، بغيرها من الدّول في السّلم والحرب، وتحديد علاقة المسلمين بغيرهم في بلاد الدول الإسلامية، وآياتها نحو خمسة وعشرين»(2) وغيرها من التعليمات الأخرى، كالّتي تتعلّق بمختلف شؤون الدولة؛ المالية، القضائية... إلخ، ثم هذه التوجيهات سوف تتحوّل بمجرّد تطبيقها إلى عبادة يتقرّب بها على الله تعالى، وطاعة يثبت بها الإيمان ،و يرسخ أكثر فأكثر، لأنها تعبر عن درجة خضوع المؤمن لأوامر ربه في كل ميدان من ميادين حياة الإنسان .

المطلب الثاني
الإيــمــان والحــكــم

سبق وأن عرفنا علاقة الإيمان بالحكم، عند حديثنا عن ارتباط الإيمان بالسّياسة، وفي هذا المطلب سأحاول – بإذن الله تعالى – بيان هذه العلاقة بشيء من التّفصيل، باعتبار أنّ الحكم، يعتبر أحد العناصر الرئيسة[1] التي تقوم عليها الدّولــة.

يعرّف الحكم بأنّه « صفة من يتولّى سياسة الدّولة، وتنظيم شؤونها، والفصل في مشكلاتها، وقضاياها؛ في علاقات أفراد شعبها، وشؤون معاشهم وعمرانهم، والدّفاع عنهم، وفي العلاقات بينهم وبين الدّول والشعوب الأخرى»[2]. لكن ما نراه، هو أنّ الحكم إنّما هو عملية تولّي سّياسة الدولة ذاتها، وليس صفة لمن يتولّى تلك السّياسة.

وإذا ما عدنا إلى كتاب الله تعالى ،و سّنة رسوله – صلّى الله عليه وسلّم – ،فإنّنا نجد بأن كتاب الله يرجع الحكم إلى الله تعالى، ويأمر رسوله الكريم _صلى الله عليه وسلم_وكذا عباده المؤمنين بالحكم بما أنزل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نجده، قد أرسى « مبادئ الحكم، وترك المجال فسيحا، واسعا، لصياغة النّظام،المفصّل،المناسب لكلّ مجتمع، ولكلّ عصر على اختلاف الأحوال »[3]، وهو بهذه المبادئ، يثبت الحكم، على قاعدة متينة، لا يمكن لأيّ حكم أن يستمر، ولا لأيّة سياسة أن تنجح من دونها، هذه القاعدة هي: السّلم والأمن.

وعليه، فإن أثر الإيمان بالله تعالى على " الحكم " يبدو جلّيا في هاتين النقطتين:

- ❖ الإيمان يقتضي إقامة حكم الله بين المؤمنين.
- ❖ الإيمان يثبت الحكم على قواعد السّلم والأمن.

---

(1): العناصر الرئيسية التي تقوم عليها الدولة هي:1-: الحكم 2-:الأمّة، 3-: الأرض

(2) : نظام الإسلام: الحكــم والدولــة لــ: محمّد المبارك. (دار الفــكر: بيروت-لبنان،ط: 4: 1401هـ - 1981م). ص: 58.

(3):المرجع نفسه.ص: 52

أولا:الإيمان يقتضي إقامة حكم الله بين المؤمنين

يتبّين للّناظر في آيات الذّكر الحكيم، بشكل جليّ وواضح، لا مراء فيه، أنّ الله تعالى أمر باّتباع حكمه في هذه الحياة الدّنيا، تماما كما له الحكم في الحياة الآخرة؛فالله تعالى يقول في محكم ت يله: وأن احكم بينهم بما أنزل الله [المائدة:49]؛ فالشرائع « الّتي سّنها الله بمقتضى ألوهيته لهم، وعبوديتهم له، وعاهدهم عليها، وعلى القيام با، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض، وهي التي يجب أن يتحاكم إليها الّناس، وهي التي يجب أن يقضي با الأنبياء، ومن بعدهم من الحكّام »(1).

وقد جاء هذا الأمر بأساليب مختلفة، غير أّنها وإن افترقت في تراكيبها ومعانيها، فقد اجتمعت لتحقيق هدف معّين ألا وهو: وجوب إقامة حكم الله - عزّ وجلّ – بين عباده المؤمنين، نذكر من بين تلك الأساليب:

1- تسمية الله تعالى لذاته الجليلة بـ: " الحَكَمِ "؛ فقد ثبت هذا في قوله تعالى: أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلا [الأنعام:114]، وقد قيل أنّ « الحكم أبلغ من الحاكم ؛إذ لا يستحق التسمية بـ:الحكم ،إلا من يحكم بالحقّ، لأّنها صفة تعظيم في المدح، والحاكم صفة جارية على الفعل؛ فقد يسّمى با من يحكم بغير الحقّ »(2)، والآية الكريمة، تتضمّن استفهاما استنكاريا ؛إذ يستنكر الرسول_صلى الله عليه وسلم_ اتخاذ غير الله تعالى حكما، وهو في ذات الوقت استفهام تقريري، مفاده أن لا أحد سوى الله تعالى، يبتغيه الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – حكما. ومعنى الآية الكريمة « قل يا أّيها الرّسول: أفغير الله أبتغي حكما أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره، ونواهيه؛ فإنّ غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكلّ تدبير وحكم للمخلوق، فإّنه مشتمل على النقص... وإّنما الذي يجب أن يّتخذ حاكما، فهـو الله وحـده»(3)،... الـذي أنـزل إليـكم الكتـاب مفصّلا ؛ أي «موضّحا فـيه

---

(1): في ظلال القرآن لـ: سّيد قطب.ص: 888/2.

(2): الجامع لأحكام القرآن لـ: القرطبي. ص: 70/7.

(3):تيسيرا لكريم الرحمن:السعدي.ص:270.

الحلال والحرام،والأحكام الشرعية،وأصول الدين،و فروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكما، ولا أقوم قيلا، لأّنه أحكام مشتملة، على الحكمة والرّحمة »(1) ،وبناء على هذا ،فإن الإيمان بأن الله تعالى هو الحكم ،يقتضي منا الخضوع لحكمه،الذي تضمنه كتابه،وكذا سنة رسوله_ صلى الله عليه وسلم_.

2-بيان الله تعالى لعباده، بأّنه المتفرّد بالحكم، وأن لا أحد يمكن أن يشاركه فيه؛ يشهد لهذا قوله تعالى: ... ولاَ ُيشْرِكُ ِفي ُحُكْمِهِ أَحَداً [الكهف :26]، « وهذا يشمل الحكم الكوني، القدري، والحكم الشرعي، الديني؛ فإّنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدرا، وخلقا وتدبيرا، والحاكم فيهم بأمره ونيه، وثوابه وعقابه »[2] ،وعليه لا يحق لأي مؤمن مخالفة أمره وإشراك أحد غيره في حكمه،إلا ضمن الأطر التي يسمح با.

3- أمره تعالى بردّ الاختلاف إليه، ليفصل فيه؛ حيث قال تعالى: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ ِفيهِ ِمنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ ِإلى اللهِ ذَلِكُمْ اللهُ رّبي عَلَيْهِ تَوَكلْتُ وِإلَيْهِ أُنِيبُ [الشّورى:10] بمعنى « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ ِفيه ِمنْ شَيْءٍ من أصول دينكم وفروعه، ممّا لم تّتفقوا عليه، فحـكمه إلى الله ؛ أي يردّ إلى كتابه، وإلى سّنة الرّسول، فما حكما به فهو الحقّ، وما خالف ذلك فباطل، ذَلِكُمْ الله رَبي أي: فكما أّنه تعالى، الرّب، الخالق الرّزاق، المدّبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه، في جميع أمورهم »[3]

ويعضّد هذا قوله تعالى: فَإِنْ َتنَازَعْتُمْ ِفي شَيْءٍ فَرُدوهُ ِإلَى اللهِ والرّسُول ِإنْ كُنْتُمْ ُتؤْمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرً وأَحْسَنُ َتأْوِيلاً [النساء:59]، « قال مجاهد، وغير واحد من السّلف؛ أي إلى كتاب الله وسّنة رسوله، وهذا أمر من الله عزّ وجلّ، بأنّ كلّ شيء تنازع النـّاس فيه، من أصـول الدّين وفروعه، أن يردّ التنـازع في ذلك إلى الكتـ ـاب والسنـة

---

(1):المرجع السابق.ص:270.

(2):تيسير الكريم الرحمن لـ :السعدي.ص:485.

(3):المرجع نفسه.ص:753.

فما حكم به الكتاب والسّنة، وشهدا له بالصّحة، فهو الحقّ، وما بعد الحقّ إلا الضّلال، ولهذا قال تعالى: ِإنْ كُنْتُمْ ُتؤْمِنُونَ ِباللهِ والَيْوْمِ الآخِرِ ؛أي ردّوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله، وسنة رسوله، فتحا كموا إليهما، فيما شجر بينكم، إن كنتم تؤمنون بالله، واليوم الآخر، فدّل على أنّ من لم يتحاكم في محلّ الّنزاع إلى الكتاب والسّنة، ولا يرجع إليهما، في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر» [1]إيمانا حقيقيا كاملا؛ذلك أنه إذا قضى الله تعالى بأن يحكم في كل اختلاف أو تنازع ،فهذا يعني أن إيمان العبد لايكتمل إلا بتحكيمه تعالى.

4- دعوة النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – إلى الحكم بين الّناس ،بما أنزل الله ، حيث قال تعالى، وأَنْزَلْنا ِإلَيْكَ الْكِتَابَ ِبالْحَق مُصَدقاً ِلمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ِمنَ الْكِتَابِ وُمهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ ِبمَا أَنْزَلَ اللهُ

ولاَ تَتبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَما جَاءَكَ مِنَ الْحَق لِكُلٍ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً ولَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَةً وَاحِدَةً ولَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وأَنْ احْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أنزَلَ اللهُ ولاَ تَتبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تُوَلـــوا فَاعْلَمْ أنـمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهُمْ وإِن كَثِيراً مِنَ الناسِ لَفَـــاسِقُونْ (49) أَفَحُكْمَ الـجَاهِـلِيَةِ يَبْـغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْـماً لِقَـوْمٍ يُوقِـنُونَ (50) [المائدة: 48- 50].

هذه الآيات الكريمة، « جاءت تعرض " الإسلام " في صورته النهائية الأخيرة، ليكون دين البشرية كلّها؛ ولتكون شريعته هي شريعة النّاس جميعا؛ ولتهيمن على كلّ ما كان قبلها، وتكون هي المرجع النهائي، ولتقيم منهج الله لحياة البشرية، حتّى يرث الله الأرض ومن عليها؛ المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتّى شعبها ونشاطها؛ والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها، وتدور حول محورها، وتستمدّ منها تصورها الاعتقادي، ونظامها الاجتماعي، وآداب سلوكها الفـردي والجمـاعي، وقـد جـاءت كذلك ليحكم بها، لا لتعرف وتدرس، وتتحـوّل إلى

---

(1) : تفسير القرآن العظيم لـ:ابن كثير.ص:1/519-520.

ثقافة في الكتب والدّفاتر »[1] ولهذا خاطب الله تعالى نبيّه قائلا: وأَنْ أحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِـمَا أنـزَلَ اللهُ « أي بما أنزله إليك في القرآن، لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده، في جميع الكتب السّابقة عليه »[2]، وقد أنكر الله تعالى عليهم، تركهم لحكمه، واتّباعهم لحكم الجاهلية، قائلا: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

فهذا « الاستفهام للإنكار والتوبيخ،... والمعنى: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك، ويتولّون عنه ويبتغون حكم الجاهلية؟، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً للإنكار أيضا، أي لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين،لا عند أهل الجهل والأهواء.»[3] ، الذين يبتغون حكم الجاهلية، الذي حدّدته تلك الآيات الكريمة، وبيّنت بأنه البشر للبشر،مع الإعراض عن حكم الله ،الذي يحدده النص،أو يتوصل إليه بالاجتهاد[4]. ولهذا جاء استفهام الله تعالى – كما قلنا – مستنكرا لابتغائهم حكم الجاهلية، ومقرّرا لأفضلية حكم الله تعالى، فقال عز من قائل: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، « فمن ذا الذي يجرؤ على ادّعاء أنّه يشرع للنّاس، ويحكم فيهم، خيرا ممّا يشرّع الله لهم، ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادّعاء العريض؟. أيستطيع أن يقول: إنّه أعلم بالنّاس من خالق النّاس؟

...أيستطيع أن يقول: إن الله سبحانه، وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير، ويجعل شريعته شريعة الأبـد،كان سـحانه يجهل أن أحوالا ستطرأ، ..فلم يحسـب
حسابا في شريعته، لأنها كـانت خافية عليه، حتى انكشف للنّاس في آخر الزّمان؟!!! »[1]، أيمكن لأحد من المؤمنين أن يدّعي هذا؟ إنّ الاقتناع بفكرة من تلك الأفكار، إنّما هو ضرب للإيمان في الصميم، لأنه قدح ظاهر في كمال صفات الله -سبحانه وتعالى -و قدح في جلالها وهذا ما لا يمكن لأحد من المؤمنين أن يتجرّأ على فعله.

وفي ختام الحديث عن هذه الآيات الكريمة،تتعيّن الإشارة إلى أنّ الأمر فيها «موجّه ابتداء إلى رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب، الذين يجيئون إليه متحاكمين، ولكنّه ليس خاصّا بهذا السّبب، بل هو عامّ... وإلى آخر الزّمان... طالما أنّه ليس هناك رسول جديد، ولا رسالة جديدة، لتعديل شيء ما في هذا المرجع الأخير! »[2] وبما أنّ الرسول – صلّى الله عليه وسلّم – مطالب بتطبيقه والاحتكام إليه، وهو الرّسول المعصوم، فمن باب أولى، أن يطالب بالاحتكام إليه من هو دونه.

5- دعوة المؤمنين إلى اتّباع ما أنزل الله إليهم؛ حيث قال تعالى: اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [الأعراف : 03]؛ فهذه « هي قضية الدّين الأساسية... إنّه إمّا اتّباع لما أنزل الله، فهو الإسلام للّه، والاعتراف له بالرّبوبية، وإفراده بالحاكمية، التي تأمر فتطاع، ويتّبع أمرها ونهيها دون سواه،... وإمّا اتّباع لأولياء من دونه، فهو الشرك، وهو رفض الاعتراف لله بالرّبوبية الخالصة،و كيف والحاكمية ليست خالصة له سبحانه؟! »[3] ،و إن دلّ هذا على شيء، فإنّما يدل على أن من مقتضيات الإيمان، اتّباع ما أنزل الله عز وجل،ويعضد هذا معنى قوله تعالى: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسـوله أ مرا أن تكـ ـون لهم الـخيرة من أـمـ ـ ـرهم ومن يعص الله ورسـ ـوله فـقد ضـ ـ ـل ضـ ـ ـ ـ ـ ـ ـلالا
مبينا [الأحزاب: 36]؛« أي :لا ينـبغي، ولا يليق ممّن اتّصف بالإيمان، إلاّ الإسـ ـراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فلا يليق بالمؤمن، ولا الـمؤمنة

إذا قضى الله ورسوله أمرا من الأمور، وحتّما به، وألزما به أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ؛ أي الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أنّ الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابا بينه وبين أمر الله ورسوله- صلّى الله عليه وسلّم -»[1] ،و قوله تعالى: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً ؛ أي:ضلالا « بينا، لأنه ترك الصّراط المستقيم، الموصلة إلى رضى الله،

إلى غيرها من الطّرق الموصلة للعذاب الأليم فذكر أوّلا السّبب الموجب لعدم معارضته لأمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثمّ ذكر المانع من ذلك، وهو التّخويف بالضلال، الدّال على العقـوبة والنّكـال »(2)

ثمّ إنّ هذا الضلاّل المبين، سوف يرمي به حتما إلى نار جهنم، حيث قال الله – عزّ وجل – وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَه وَيَتَعَدّ حُدُودَهُ نُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ [النساء : 14] «إذ يدخل في اسم المعصية، الكفر فما دونه من المعاصي،... ومن عصى الله ورسوله معصية تامّة، يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النّار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب، بحسب ما فيه من الطّاعة والمعصية »(3)، وترك التحاكم إلى الله – عزّ وجل -، وتعدّي حدوده يعتبر من أخطر المعاصي، التي قد تصل إلى درجة الكفر المخرج عن الملّة.

6- وسم من لم يحكم بما أنزل الله تعالى، بالكافرين والفاسقين والظالمين، حيث قـال عـ ـزّ من قائل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [المائدة:44] ،وقال: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون [المائدة:45]، قال تعالى: و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون [المائدة : 47]

وقبل بيان معنى هذه الآيات الكريمة،يجب التنبيه إلى أنّها تفيد العموم، وليست خاصّة بأهل الكتاب، الذين كانوا سببا في نزولها، ودليل ذلك:

أ- « أنّ في سياق آيات المائدة، ما يدلّ على العموم وعدم الاختصاص بأهل الكتاب ومن ذلك:

- تصدير الآية ومن لم يحكم بما أنزل الله ، بلفظ " من " الشرطية، وهي من أبلغ صيغ العموم، ولهذا قال بعض الصّحابة – رضي الله عنهم – وجمع من المفسّرين بالعموم.
- ما في الآيات من خطاب للرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – مثل قوله: فاحكم بينهم أو أعرض عنهم [المائدة:42]، ومثل قوله: فاحكم بينهم بما أنـ ـزل الله ولا تّتبع أهواءهم عما جاءك من الحق [المائدة:48]، والخطاب للرّسول – ﷺ– خطاب لأمّته.»(1)

ب- « ما ورد عن النّبي – ﷺ-، وأصحابه من الاستدلال بالآيات التي نزلت في أهل الكتاب أو المشركين، والاحتجاج بها على المسلمين، ممّا يدلّ على فهمهم لعموم الآيات وعدم اختصاصها »(2)

بقي الآن التعرّف على معنى الآية الأولى، التي يفيد ظاهرها كفر من لم يحكم بما أنزل الله؛ حيث قال - عزّمن قائل - : فلا تخشوا النّاس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون [المائدة : 44]، فهذه الآية الكريمة تبـيّن أنّ الله – عزّ وجل – قد علم « أنّ الحكم بما أنزل ستواجهه – في كلّ زمان، وفي كل أمـّة – معارضة من بعض النّاس. ولن تتقبّله نفوسهم بالرضى والقبول والاستسلام،... ستواجـهه

معارضة الكبراء والطّغاة، ...وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادّية، القائمة على الاستغلال، والظلم والسّحت، ... وستواجهه معارضة ذوي الأهواء والشهوات والمتاع الفاجر والانحلال، ذلك أنّ الدين سيأخذهم بالتّطهر منـها، وسيأخـذهم بالعقوبة عليها »[1]، ولأجل أنّ الله تعالى يعلم كلّ هذا، أمر عباده المؤمنين بأن لا يخشوا أولئك النّاس، وأنّه الأحقّ بأن يخشوه، وبأن لا يشتروا بآياته ثمنا قليلا، « وذلك لقاء السّكوت، أو لقاء التّحريف، أو لقاء الفتوى المدخولة! وكل ثمن هو في حقيقته قليل، ولو كان ملك الحياة الدّنيا،... فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة؛ يباع بها الدّين، وتشترى بها جهنم عن يقين؟!» [2].

ويتضح مما سلف أن عدم الأخذ بحكمه تعالى يرجع إلى السببين الآتيين:

1- الخشية من النّاس بدل خشية الله تعالى.

2- اتباع الأهواء والشهوات، التي تضحي بآيات الله تعالى، مقابل ثمن قليل زائل.

أمّا مسألة تكفير من لم يحكم بما أنزل الله، فالقول فيها أنّ « الحكم بغير ما أنزل الله،أقسام تختلف أحكامهم بحسب اعتقادهم وأعمالهم ؛فمن حكم بغير ما أنزل الله، يرى أنّ ذلك أحسن من شرع الله، ويرى أنّ ذلك جائزا، ولو قال إن تحكيم الشريعة أفضل، فهو كافر، لكونه استحلّ ما حرّم الله، أمّا من حكم بغير ما أنزل الله، اتّباعا للهوى، أو الرشوة،... أو لأسباب أخرى، ويعلم أنّه عاصّ لله بذلك، وأنّ الواجب عليه تحكيم شرع الله، فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر، ويعتبر قد أتى كفرا أصغرا، وظلما أصغرا، وفسقا أصغرا، كما جاء عن ...جماعة من السّلف الصّالح»[3] .

وهكـذا يتبّين ممّا سبق أنّ تحكيم شرع الله تعالى واجب بين عباده، وأنّ محاولة تجميده، أو التلمّص منه، تعدّ قدحا خطيرا في الإيمان، قد يصل إلى درجة الكفر البواح الذي ينقل عن الملّة، و إلاّ فإن هذا التّلمّص يعد كبيرة من الكبائر، التي ترمي بصاحبها إلى جهنم[1]، وما أظنّ أنّ هذا بالشيء الهّين، لمن تفكّر فيه ونظر واعتبر.

وفي ختام الحديث عن إقامة حكم الله، قد يتبادر سؤال وجيه إلى الأذهان، مفاده، أنّا رأينا أنّ الإيمان يهدي إلى الحكم بما أنزل الله تعالى، فما القول فيما استجدّ من أمور، وما استحدث من حوادث، وتغّير من ظروف، وما طرأ من مشاكل، لم ترد في كتاب الله تعالى، ولا في سنّة رسوله – صلّى الله عليه وسلّم -؟

بداية يتعين التنبيه إلى أن الإيمان بالله تعالى ، يقتضي التّسليم بأنّ شريعته، تتميّز عن حكم البشر، أيما تميز وأبرز ما يميّزها، كونا تتّصف بالسّمو، الذي لا يمكن بحال أن يرتقي إليه أي حكم أو تشريع بشري؛ فهي – ببساطة – صادرة عن الخالق، بينما الآخر صادر عن المخلوق،

و المؤمن يعلم يقينا، أنّ الله – عزّ وجل – أعلم بما سيؤول إليه أمر خلقه، وما سيطرأ على حياتم - على اختلاف الأمكنة والأزمنة – من تغيّرات، وقد أمرهم بالرّجوع إلى كتابه الكريم، وسنّة رسوله الشّريفة، وهذا يعني أنّه لابدّ من احتوائهما على مبادئ معيّنة، يستند إليها لمعرفة حكم الله تعالى، فيما استجدّ.

كذلك، تتميّز شريعة الله تعالى، بالكمال؛ حيث قال تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا [المائدة :03]، فالله تعالى قد أعلن « إكمال العقيدة، وإكمال الشّريعة معا،... فهذا هو الدّين،... ولم يعد للمؤمن أن يتصوّر أنّ بذا الدّين – بمعناه هذا - نقصا، يستدعي الإكمال، ولا قصورا يستدعي الإضافة، ولا محلية أو زمانية، تستدعي التّطور أو التّحوير، وإلاّ فما هو بمؤمن، وما هو بمقرّ بصدق الله، وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين »[2]؛فكلّ ما استجدّ... إذن وطرأ، من اختـلاف الأمـ ـكنة،

والأزمنة، فحكمه موكول إلى المتهدين الذين منحهم الإسلام سلطة التّشريع « ليتولّوا استنباط الأحكام التفصيلية، من أدلّتها؛ خاصّة كانت أم عامة، وهي تعتبر من مقتضيات التّشريع الإلهي، وفي دائرته، غير خارجة عنه، وإلاّ كانت باطلة »[1]، وهكذا يبقى الحكم دوما لله تعالى، لأنه لا يخرج عن نصوصه الثابتة، وإن لم تشر إلى الأحكام الطارئة، فإنّ الحكم فيها، لا يتعدّى المبادئ الّتي خطّتها تلك النّصوص، حتّى يبقى متّصلا بالمعين الإلهي غير متأثرا بالأهواء البشرية، وهو – أي الحكم – وإن لم يتّسم بقدسية الأحكام الثابتة، القطعية، نصّا ودلالة، إلاّ أنّه يستمدّ شرعّيته منها.

ثانيا: الإيمان بقيم الحكم على دعائم السلم والأمن

وبعد أن رأينا أن الإيمان بالله تعالى، يقتضي إقامة حكمه، بين عباده المؤمنين ،وذلك لإقرارهم بحاكميته عليهم، سنلاحظ في هذا المقام، أنّه يساعد على إرساء ذلك الحكم على قواعد السّلم والأمن، من خلال التّعاليم القاضية باعتماد العدل، والشورى وتحقيق المساواة، بين أفراد الأمّة، ممّا يكفل لها حياة

كريمة، هانئة، بلا غضب أو حقد أو غلّ، قد يؤدي إلى هزّ أركان الحكم، أو زعزعة دعائمه، ولنبدأ بالمبدأ الأول:

1- العدل

دعا الله – سبحانه وتعالى – رسوله – صلّى الله عليه وسلّم -، وعباده المؤمنين كافة، إلى إقامة العدل فيما بينهم – بل ومع عدوّهم أيضا – وذلك لما له من آثار طّيبة، تعود على الحكم، بالثّبات، والاستقرار، وعلى حياة المحكومين بالسّكينة، والرّضى؛ حيث قال تعالى:

... وإن حكمتت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحبّ المقسطين [المائدة : 42]، وقال تعـ ـالى : و قل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم [الشورى :15]، فهذا بيان من الله تعالى، إلى عباده، بأّنه قد منح رسوله – صلّى الله عليه وسلّم – بموجب إيمانه بالله تعـ ـالى، وبمـ ـا أنزل من كتاب؛ أّنه منحه « قيادة ذات سلطان، تعـ ـلن العدل في الأرض

---

(1):خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم لـ :الدريني.ص:343.

بين الجميع »[1]، والحقيقة، أنّ هذا العدل، لم يكن هدف الرّسالة الخاتمة وحسب،بل كان هدف الرسالات السّماوية كلها بعد الإيمان بالله تعالى[2]، يشهد لهذا قوله تعالى: لقد أرسلنا رسلنا بالبّينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الّناس بالقسط [الحديد :25]؛ فكلّ الرّسالات جاءت لتضع ميزان العدل ،ولتثبت أركانه في حياة الّناس ،لأنه «بغير هذا الميزان الإلهي، الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الّناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه، لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء »[3]

إذن دعوة الله – عزّ وجل – إلى العدل، إّنما هي دعوة إلى الحكم بالعدل المستمد من الوحي، لأّنه الوحيد المصان من اضطرابات الأهواء والشهوات والجهالات، وهو العدل الذي دعا إليه صراحة، فقال – عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُـ ـ ـ ـرُ بِٱلۡعَـ ـ ـ ـدۡلِ وَٱلۡإِحۡـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـسَانِ﴾ [النحل : 90]، هذا العدل الذي يكون « بتطبيق أحكام الشريعة، التي تضمّنت العدل في إعطاء الحقوق لأصحابا، وتنظيم العلاقات بين الّناس تنظيما عادلا،... وأحكام الشريعة، تضمّنها القرآن الكريم والسّنة المطّهرة، واجتهد المجتهدون المؤهلون فيما لم يرد فيه نصّ فيهما، بالاستناد إلى ما فيهما من قواعد كلّية ومقاصد وعلل »[4]

ولمّا كان إعطاء الحقوق وتنظيم العلاقات أمر مناط بالحكام، يخاطبهم الله تعـالى قـائلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : 58].

فهذه « الآية الكريمة تتضمّن خطابا إلى الحكّام جميعا، في أيّ موقع من مواقع الحكم في الدولة؛ سواء في السّلطة التنفيذية، أو السّلطة التشريعية، أو السّلطة القضائـية، إنّها تأمـرهم جميعا... .أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، يؤدونا كاملة غير منقوصة. وهي تأمر كلّ من يحكم بين النّاس أن يحكم بالعدل. »[1]، ثمّ يجيء التعقيب الأخير في الآية، يعلّق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [2] ، ولذا فليحذر كلّ من ائتمن على أمانة الله البصير، وليحذر كلّ من حكّم في أمر الله السّميع، وهكذا إن استطاع الحكـام تحقـيق « قاعدة العدل بين النّاس، في الحقوق والواجبات، في الشهادات والأقضية والأحكام، فإنم بذلك يحققّون للمجتمع الإنساني استقراره، وأمنه، وينـأون به عن الـجور أيا كـان نوعـه »[3] ،وطبعا « في ظل هذا الوضع ينتفي الغضب الذي يملأ الصّدور والحقد الذي يملأ النّفوس، وهي تحسّ بالظّلم، فلا يكون لمحاولات الانقضاض على النّظام والثورة عليه، دافع أو باعث »[4]، وهكذا يكون الإيمان بالله تعالى، الذي رسّخ معاني العدل بين المؤمنين، قد ساهم في إرساء الحكم على قاعدة متينة من قواعد السّلم والأمن، ألا وهي قاعدة العدل.

2- المساواة

لا شك في أنّ للمساواة بين الرّعية – أو بين النّاس أجمعين – دورا هامّا في استتباب الأمن والسّلام، وثبات الحكم والسّلطان، ذلك لأنه ما من شيء يستفزّ المشاعر، ويلهب نيران الغضب والحقد، أكثر من تفضيل شخص على آخر-أو فئة على أخرى-، وتمييزه عليه، لاعتبارات واهية، لا وزن لها عند أرباب الألباب والعقول، فهذا التّمييز والتفضيل إن استمر لفترة من الزّمن، فلن يستوعب الزّمن كلّه، كما أنّه إن سيطر على فئة واحتملته، فلن تحتمله الرّعية بأجمعها، ولهذا كان على الحكام أن يطبقوا مبدأ المساواة بين الرّعية، لضمان استمرارية

(3):النظم الإسلامية المعاصرة لـ:حسن عبد الحميد عويضـة.(دار الرشيد:الرياض- المملكة العربية السعودية،ط: 2 :1401هـ-1981م). ص:117.

(4):فن الحكم في الإسلام لـ:أبي زيد فهمي.ص:465.

حـكمهم وأمـن واستقرار بلدهم.و هنا يحسن التّنبيه إلى أن المؤمنين بمنأى تام عن المشكلة التّمييز تلك؛ فقد تشبّعوا بهدي القرآن الكريم، والسّنة الشريفة في هذا الأمر – وغيره – فهم يعلمون أنّ:

أ-الّناس كلّهم سواسية، فهم من أصل واحد، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيهَا النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الّنساء :01]؛ « ولو تذكّر الّناس هذه الحقيقة لتضاءلت في حسّهم كلّ الفروق الطّارئة، التي نشأت في حياتم متأخّرة، ففرّقت بين أبناء الّنفس الواحدة، ومزّقت وشائج الرحم الواحدة..واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا باستبعاد الصراع

العنصري، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت، وما تزال تتجرّع منه، حتّى اللّحظة الحاضرة، في الجاهلية الحديثة.» [1]

ب- الأمر الوحيد، الذي يؤخذ بعين الاعتبار عند التمييز بين الأفراد هو التقوى حيث قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات : 13]، فأكرم الناس عند الله «أتقاهم وهم أكثرهم طاعة وانكفافا عن المعاصي ،لا أكثرهم قرابة وقوما،ولا أشرفهم نسبا .» [2]

ج- الاختلاف بين الأمم والشعوب لهدف الّتعارف، وليس لهدف التنازع والّتفاخر والّتحارب؛ قال تعالى: ﴿يا أّيها الّناس إّنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ [الحجرات :13]؛ فالله تعالى يطلعكم «أّيها الّناس على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل، إّنها ليست للتناحروا والخصام، إّنما هي الّتعارف والوئام؛ فمّا اختلاف الألسنة

والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوّع لا يقتضي الّنزاع والشقاق،بل يقتضي الّتعاون للّنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللّغة والوطن، وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله »[1].

فإذا كانت هذه هي بنود المساواة، التي يقّر با المؤمنون، والتي دعا ولا يزال يدعو إليها الإيمان، فإّنه يجب على كل حاكم مؤمن، أن يطبقها بين الرّعية، ذلك لأّنه إن « كان هناك خطر على مبدأ المساواة، فإنّ الخطر لا يأتي من المساس بذلك المبدأ على الورق، ...، وإّنما الخطر يأتي نتيجة لانتهاك المساواة في واقع الحياة؛ فقد يتفاوت الأفراد في الخضوع للقانون تفاوتا كبيرا، فيخضع له الضعفاء، خضوعا كاملا، ويمزّقه الأقوياء تمزيقا كاملا »[2].

وحسبنا لنبرهن أن ما ندعو إليه ليس حبرا على الورق، وأنّ الإيمان حقّا، إّنما هو توافق الباطن مع الظاهر، وتلاؤم القلب مع القالب، حسبنا في ذلك موقف رسول الله – صلّى الله عليه وسلم -، الكريم، الذي روته عائشة - رضي الله عنها-؛ من أن قريشا أهمّهم شأن فاطمة بنت أسود المخزومية، التي سرقت، فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم - ؟ ثمّ قالوا: من يجترئ عليه إلا

أسامة بن زيد حبّ رسـ ـول الله – صلّى الله عليه وسلّم -، فكلّمه أسامة، فقال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم -: ((يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود الله؟))، ثمّ قام فخطب فقال: ((إنّـما أهلك الذين من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت مـ ـحمـ ـد سرقت ، لقطعت يدها)) (3)

إذن من أراد أن يمكّن لحكمه، وأن يؤمّن شعبه، وأن يحصل على رضى الله قبل ذلك كلّه، فليتّق الله في نفسه، وليطبّق ما أمر الله به على أرض الواقع، لا على مراكب الخيال.

3- الشورى

اعتنى القرآن الكريم،وكذا السنة الشريفة،بالشورى كمبدأ في الحكم، وكقاعدة رصينة يبني عليها استقراره وثباته؛ فقد دعا الله – سبحانه وتعالى رسوله الكريم – صلّى الله عليه وسلّم – لاعتماد الشورى قائلا: وشـ ـ ـ ـ ـ ـاورهـ ـ ـ ـ ـ ـ ـم في الأمـ ـ ـ ـ ـر [آل عمران : 159]؛ واستجاب صلّى الله عليه وسلّم – لأمر ربّه تعالى، حتى قال « أبو هريرة – رضي الله عنه: ما رأيت أحدا من النّاس،أكثر مشورة من رسول الله – صلّى الله عليه وسلم - »(1)، والشورى لا تكون في أحكام الشـ ـريعة مـ ـحدّدة، وإنّما تكون في عدد من الـالات منها؛ التشـ ـريع الاجتهادي، فيما أجازت فيه الشريعة الاجتهاد، والتّصرفات المالية كوضع الميزانية(2) .. إلخ.

ثمّ إنّه « إذا كان الله تعالى يقول لرسوله – صلّى الله عليه وسلم – وهو أكمل النّاس عقلا، وأغزرهم علما وأفضلهم رأيا وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فكيف بغيره؟»(3) ،إنّه من باب أولى أن يتقيد غيره با، ولهذا قال تعالى: والَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِهِمْ وأَقَامُوا الصلاَةَ وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ومِما رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [الشورى : 38]؛ أي الذين « أجابوا بالإيمان والطّاعة »(4)، من صفاتم الأصيلة كون أمرهم شورى بينهم؛ أي « لا ينفردون برأي حتّى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وذلك من فرط تدّبرهم وتيقظهم في الأمور»(4)، وقد جاء التـ يل الكريم بذا المبدأ لما له من فوائد جليلة نذكر منها ما يأتي:

أ- « أن فيها تسميحا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنّ من لـ ـه الأمر على النّاس، إذا جمع أهل الرّأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم، وأحبّوه، وعلموا أنّه ليس بمستبدّ عليهم، وإنّما ينظر إلى المصلحة الكلية، العامة للجميع، فبذلوا جهدهم، ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم»(1).

ب-أن في الشورى ضمان استقرار المجتمع، واستمرار الحكم، فهي تحول دون عصف الأهواء بالنّفوس، وتماديها في الطّمع، لأن ذلك لا يؤدّي إلاّ إلى الفساد والخراب الأكيدين[2]

ج- « أنّ بالاستشارة تنوّر الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار ت سببا لتوسيع العقول والمدارك.

د- أن الاستشارة تنتج الرّأي المصيب، ذلك أن صاحبها لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم »[3]

يّتضح مما سلف، أنّ اعتماد الشّورى من قبل المؤمنين، استجابة لله تعالى، واّتباعا لسّنة رسوله الكريم – صلّى الله عليه وسلّم -، يساهم بقسط وافر في إرساء الحكم على قواعد السّلم والأمن، نظرا لما يحمله مبدأ الشورى من معاني التواضع، والاحترام، والتقدير، الّتي يكّنها الحاكم لرعّيته، والتي تساهم في تمتين وتقوية الصّلة الرابطة بينهما؛ فلا يخشى الرّاعي انقلاب رعّيته عليه، كما لا تخشى الرّعية استبداد الحاكم وتسلّطه عليها.

المطلب الثالث

الإيمان أصل في تنظّيم العلاقة بين الرّاعي والرّعية.

صار من القائم في العقول الآن، أنّ الإيمان بالله تعالى، يقتضي الوقوف عند نواهي الله تعالى، وتنفيذ أوامره؛ ولمّا كانت هذه الأخيرة، تتضمّن توجيهات في شتى المجالات الإنسانية؛ كالمجال العسكري (الجهاد)، القضائي (إقامة الحدود...)، الاقتصادي (إدارة الأموال...)... الخ، فقد استوجب الأمر، وجود حاكم، تسند إليه السّلطة للّتمكن من إدارة كلّ تلك المجالات، وقد ثبت هذا، مّما يستفاد من قوله – صلّى الله عليه وسلّم -: ((إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَة فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدُهُمْ)) [1]، وهذا « دليل على أّنه يشرّع لكلّ عدد بلغ ثلاثة فصاعدا، أن يؤمّروا عليهم أحدهم، لأنّ في ذلك السّلامة من الخلاف... ؛ فمع عدم الّتأمير، يستبدّ كلّ واحد برأيه ويفعل ما يطابق هواه، فيهلكون، ومع الّتأمير يقلّ الاختلاف، وتجمع الكلمة. وإذا شرع هذا لثلاثة، يكونون في فلاة من الأرض، أو يسافرون، فمشروعّيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار، لفضّ الّتظالم، وفصل الّتخاصم أولى وأحرى» [2]

كما يثبت أيضا من قول الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم: ((مَنْ مَاتَ ولَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَة فَقَدْ مَاتَ مِيْتَةَ جَاهِلِيَّةٍ))(3)؛ « والمراد بميتة الجاهلية، وهي بكسر الميم، حالة الموت كموت أهل الجاهلية، على ضلال، وليس له إمام مطاع، لأنّهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنّه يموت كافرا، بل يموت عاصيا» [4]

وإذا اتّضح أنّ تنصيب الإمام – الحاكم -، صار واجبا من منطلق الإيمان، فإنّ الأمر لا يقف عند هذا وحسب، بل يتعدّاه إلى تنظيم العلاقة بين الحاكم ورعيّة، وذلك بواسطة التعاليم – الواجبة التّطبيق -، التي جاء بها القرآن الكريم، وكذا السّنة الشريفة، ووجّهاها للحاكم، أو للرّعية.

أمّا الحاكم، فبمجرد تقلّده منصب الحكم، فقد صار مسؤولا أمام الله تعالى على رعيّته ؛ يشهد لهذا، قول الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم - : ((ألاَ كُلكُمْ رَاعٍ، وكُلكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيتِهِ، والأَمِيرُ رَاعٍ...))[1]. « فالرّاعي هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاح من ائتمن على حفظه، فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه .و الرّعيّة؛ كلّ ما شمله حفظ الرّاعي ونظره، فالأمير الّذي على النّاس، راع فيمن ولي عليهم، ومسؤول عن رعيّته، هل راعى حقوقهم أم لا »[2]، ثمّ إنّ مسؤوليّته هذه، « يلقى نتائجها يوم الحساب والجزاء، فإن نصح للأمّة وعدل فيها وأدّى ما عليه نحوها من واجبات أوجبها الله عليه؛ فأنصف مظلومها، وحمى ضعيفها، ورعى سائر شؤونا، ودافع عن حوزتا، جازاه الله أحسن الجزاء، وكان له بذلك أعلى الدّرجات ممّا لا يكون لأعظم العباد المعتكفين على عبادة الله، وإن ظلم وغشّ وأساء كان له من الجزاء، ما لا ينال مثله ا لرمون من السّارقين والقتلة والفاسقين» .[3]

والحاكم، لن يتمكّن من آداء كلّ ما ألقي على كاهله من مسؤوليات، إلاّ إذا عمل على تحكيم شرع الله – سبحانه وتعالى -، وتجسيده على أرض الواقع؛ هذا الشرع، ّالّذي نصّب أصلا من أجل إمضائه، والعمل على تنفيذه؛ إذن فهذه هي مسؤوليته الأولى والأساسية، بعدها، يمكنه أن يحقّق كلّ مسؤولياته وفقا لهدي تلك الشريعة.

ثمّ، ثاني مسؤولية، يلقيها الله – سبحانه وتعالى – على عاتق الحاكم؛ هي الحكم بالعدل[1]؛ حيث قال عزّمن قائل -: وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل... [النساء:58]؛ وقد قال بعض المفسرين بأن هذه الآية الكريمة ،نزلت في الأمراء[2]، ،لأنم أكثر الناس عرضة للحكم بين الناس،ويدخل فيها بالمعنى جميع الخلق ولكي يتمكّن أولئك الحكّام، من إقامة العدل بين النّاس، نبّههم الله – سبحانه وتعالى – إلى أمرين، قد تزلّ الأقدام بما، ألا وهما: الحبّ الشّديد والبغض الشديد – أيضا -؛ فهذان الشعوران، قد يؤثران على الحاكم، فيجنح عن الحق، ويعدل عن الصّواب. فقال الله تعالى منبّها عن الشّعور الأول: يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين إن يكن غنّيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوو ا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيرا [النّـساء :135]. « والقوّام صيغة مبالغة؛ أي: كونوا في كلّ أحوالكم قائمين بالقسط؛ الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، والقسط في حقوق الآدميين، أن تؤدّي جميع الحقوق عليك، كما تطلب حقوقك،... ومن القسط آداء الشّهادة التي عندك على أيّ وجه كان،حتّى على الأحباب، بل على النّفس» [3].

أمّا شعور الكره أو البغض، فقد قال تعالى عنه: يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقّوى واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون [المائدة :8 0]؛ « والمعنى لا تحملّنكم شدّة بعضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحلّ،... تشفّيا ممّا في قلوبكم، اعدلوا هو أقرب للتقوى » [1] فالنّفس البشرية،« لا ترتقي هذا المرتقى قط، إلاّ حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله، حين تقوم لله، متجرّدة عن كل ما عداه، وحين تستشعر تقواه، وتحس أنّ عينه على خفايا الضمير وذات الصّدور... وبهذه المقوّمات في هذا الدّين، كان الدّين العالمي، الإنساني الأخير، الّذي يكفل نظامه للنّاس جميعا – معتقيه وغير معتنقيه – أن يتمتعوا في ظله بالعدل، وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه، ... مهما لاقوا من النّاس من بغض وشنآن» [2] .

ولمّا كان الحاكم، هو من يملك زمان الحكم بين يديه، في كل الحالات، كان أكثر النّاس عرضة لهذين الشعورين الناتجين في الغالب عن اتباع الهوى، ولهذا وجب عليه أن يلتزم الحذر والحيطة، قدر المستطاع حتى يوصم بالحاكم العادل، الذي رفعه لله تعالى مكانا عليّا، يتبّين من قول الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه:إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقه فأخفاها، حتى لا تعلم شماله، ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه))[3] وقال – عليه الصلاة والسلام - : ((إنّ المقسطين عند الله على منابر من النور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمن، الذين يعدلون في حكمهم، وأهلهم، وما ولوا))[4]،و قال أيضا ((أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـسط موفق،ورجل رحيم رقيق القلب لكل مسلم وعفيف متعفّف ذو عيال))[1]

وكذلك مما يساعد الحاكم على تجنب الظلم والتزام العدل ،الترهيب مما قد يصيبه من عاقبة شديدة؛ فقد قال الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم -: ((إنّ الله يملي للظّالم فإذا أخذه لم يفلته ثمّ، قرأ

وكذلـ ـ ـ ـك أخذ ربّك إذ ا أخذ القـ ـ ـرى وهي ظالـ ـمة إنّ أخـ ـ ـذه أليـ ـ ـ ـم شديـ ـ ـ ـ ـ ـ ـد
[هود:102]))[2]

كما قال – صلّى الله عليه وسلم – ((مَا مِنْ أَمِيرِ عَشْرَةٍ إلاَ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولاً لاَيفُكّهُ إلاَ العَدْلَ))[3]، فما القول فيمن أمر على الأمّة بأكملها؟!!

هكذا إذن ،يكون الايمان أساسا في تنظيم علاقة الحاكم برّعيتة؛ إنّها علاقة قائمة على التكليف، لا على التشريف، لأنها تحمل الحكام مسؤولية تنوء الجبال من حملها، ولا يمكن للإنسان أن يفي بحقها إلا بدى الله تعالى.

وأمّا علاقة الرّعية بحاكمها، فالإيمان يقيمها على أساسين: أولهما: الطّاعة، وذلك امتثالا لقوله تعالى؛ أَطِيعُوا الله وأَطِيعُو الرسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ [النّساء : 59]؛ « وطاعة أولى الأمر منكم... في حدود المعروف المشروع من الله، والذي لم يرد نصّ بحرمته، ولا يكون من المحرّم عندما يرد إلى مبادئ الشريعة، عند الاختلاف فيه، والسّنة تقرّر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين» [4] حيث قال الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - يقول: ((إنمـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـا الطـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـاعَةُ فِي المَعْرُوفِ))[1]و يقول أيضا: ((السَمْعُ والطَاعَةُ عَلى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَ أَوْ كَرِهَ، مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَ ا أَمَرَ بِمَعْصِيَة ٍ فَلاَ سَمْعَ ولاَ طَاعَةً))[2] ؛ « أي لا يجب ذلك – أي السمع والطاعة- بل يحرم على من كان قادرا على الامتناع »[3] ،أما إذا لم يأمر بمعصية، فطاعة الرعية للحـ ـكام تصير« ضرورية، لتمكين الدّولة من تنفيذ أهدافها،و تحقيق أغراضها.... إذ لا بد أن يكون للحاكم في مقابل التزامه بالشّريعة، وتقيّده بالشّورى، وتحمّله للمسؤولية، من حقوق تجاه الشّعب، ومن واجب للشعب تجاهه، ليتمكّن من إحقاق الحقّ وتأمين الأمن، وإقامة العدل، والدّفاع عن الأمّة، وأرضها ودينها» [4]

وأمّا ثانيهما فهي: الرّقابة والنّصح؛ وقد عرفت الرّقابة بأنا الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر [5]،لكن ما يتراءى لنا ،هو أنا تعني تتبع الأمور بعين المتفحص،التي تكشف عن الزلل فتقومه وتصلحه،وعن الصواب فتثمنه وتعضده ،و وسيلتها في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وإطلاق معنى الرقابة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،لعله يعود إلى أنا لا تبدو إلا به ...و الرقابة- بذا المعنى-واجبة على الأمّة، وحقّ لها في ذات الوقت؛ فأمّا كونا واجبة، فلأنّ الأمّة مأمورة بالرّقابة في كتاب الله، وسنّة رسوله – صلّى الله عليه وسلّم -، وأمّا كونا حقّ، فلأنّه يُمنع عن الحاكم – أو غيره – أنّ يصدّ الأمّة عن مزاولتها؛ إذ يصبح حين ذاك متعدّ على أمر الله، وعلى حقّ الأمّة أيضا.

وأمّـا كون الرّقابة واجب على الأمّة، فدليله وارد في القرآن الكريم بعدّة أساليب نذكر منها: 1- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فقد دعا الله تعالى إلى هذا المبدأ ، من خلال قوله:

ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون [آل عمران :104] « فهذا إرشاد من الله تعالى للمؤمنين، أن تكون منهم جماعة متصدّيه للدّعوة إلى سبيله ،و إرشاد الخلق إلى دينه» (1)

2-استحقاق اللّعنة بسبب ترك هذه الرّقابة؛ حيث قال تعالى: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (78) كانـــوا لا يتـــناهون عن منـــكر فـــعلوه لبـــــئس ما كانــــــــو ا يفــــــــعلون (79) [المائدة :78 – 79]، فبنو إسرائيل قد استحقّوا اللّعن والطّرد من رحمة الله تعــالى، لأنم "كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضا، فيشترك بذلك، المباشر وغيره، الذي سكت عن النّهي عن المنكر، مــع قدرتــه على ذلك، وذلك يدل على تــهاونم بأمــر الله ، وأن معصّيته خفيفة عليهم»(2) ، وبما أنّ الله – سبحانه وتعالى – لا يحابي أحدا، فهذا يعني أنّ كلّ من اقترف معصّية ترك الرّقابة، عوقب بما استحق من عذاب .

3- كون هذه الـــرّقابة، صفة مميّزة للمؤمنين عن الكافرين: يشهد لهذا قولــه تعــالى:

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إنّ المنافقين هم الفاسقون [التوبة :67]

و قال تعالى: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمــــون الصـــــّلاة ويؤتـــــون الـــــزّكاة ويطيـــــــــعون الله ورســـــوله أولئك سيرحمـــــهم الله إنّ الله عزيــــز حكيم [التوبة : 71]؛ إذ « لمّا ذكر الله تعالى – أنّ المنافقين بعضهم أولياء بعض، ذكر أنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضدّ ما وصف به المنـافقين »(1)، وبما تميّزوا به عنهم من ميزات، كالأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر.

وكما حفل القرآن الكريم، بالآيات الدّاعية إلى تلك الرّقابة، فإنّ السّنة المطّهرة لم تشذّ عن ذلك، بل دعت إليه، بشّتى الأساليب أيضا، والتي نذكر منها:

1-الدّعوة إلى الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر: كما ثبت ذلك في قوله – صلّى الله عليه وسلّم – ((من رأى منكم منكر ا فليغيّره، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان))[2]، وكذلك قوله – صلّى الله عليه وسلّم -: ((الدين النّصيحة))، قيل: لمن يارسول؟. قال: ((لله ولرسوله ولكـتابه ولـــــــــلأئمة ولـجماعة المسلمين))[3] « أمّا النّصيحة لأئمة المسلمين، فمعاونتهم على الحقّ، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم، وتذكيرهم، برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب النّاس لطاعتهم» [4]

2- الترغيب في الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر: إذ يتبيّن هذا من قول الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم ... ((أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر))[5]. وهذه من أعلى مراتب الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر حيث قال بعض العلماء: « وإنّما صار ذلك أفضل الجهاد، لأنّ من جاهد العدو كان متردّدا بين الرّجاء والخوف، لا يدري هل يغلب أو يغلب، وصاحب السّلطان، مقهور في يده؛ فهو إذا قال الحق يأمره بالمعروف، فقد تعرض لتلف، وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد، من أجل الخوف »[1]

3- الترهيب من ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ يشهد لهذا قول الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم: ((والّذي نفسي بيديه ، لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثمّ لتدعنه فلا تستجب لكم))[2]، « والمعنى: والله إن أحد الأمر واقع، إمّا الأمر والنهي منكم، وإمّا إنزال العذاب من ربكم، ثمّ عدم استجابة الدّعاء له في دفعه عنكم، بحيث لا يجتمعان، ولا يرتفعان، فإنّ كان الأمر والنهي، لم يكن العذاب، وإن لم يكن كان العذاب عظيم » [3]

وإذا كانت الرّقابة، واجبة على الأمّة، اتجاه كلّ أفرادها، فهي نحو الحكام أوجب وآكد، نظرا لخطورة المنصب الذي يتبوؤه، والذي يؤثر أيما تأثير على كافة أفراد أمّة.

ويمكن للأمة أن تقوم بذه الوظيفة – أو هذا الواجب – بواسطة ما توجهه للحكام « من مطالب لتحقيقها، أو استنكار لأمور يطلب منعها، ومعيار المعروف والمنكر، هو الشّرع من جهة، ومصلحة الرّعية من جهة أخرى »[4]

وبذه الأوامر الإلهية، الموجهة إلى الحكام وإلى الرّعية تنضبط العلاقة بينهما، ويمكن بذلك لخلافة الإنسان أن تقوم على الأرض، كما أرادها الله تعالى، وكما شاء لها أن تكون، أما إذا اختلت هذه العلاقة، باستبـداد الحكام، أو عدم تحكيم شرع الله، أو بعصيان الرّعية، أو تخاذلها

عن مراقبة حكامها، وتوجيههم، فإن هذا سوف يؤدي، -في معظم الأحوال -إلى عدم الاستقرار، وشيوع الفتنة، وبالتالي يؤدي إلى ضعف قدرة الأمّة على تجسيد الخلافة وتطبيقها على أرض الواقع.

الخـا تمة

في ختام هذا البحث المتواضع،نصل إلى النتائج الآتية:

1-أن الإيمان كل متكامل، يتكون من الاعتقاد، الذي يحتل من الإيمان مكانة القلب من الجسد،ويضاف إليه الإقرار والعمل، فيكتمل الإيمان، تماما كما يكتمل الجسد بكمال أعضائه-ويصير أكثر فاعلية، كلما تأكد ذلك الاعتقاد بالإقرار والعمل المتواصل، الذي يستغرق الحياة كلها،ثانية فأخرى.

2-أن الإيمان، إنما هو تجسيد للمنهج الذي خطه الله-عز وجل- لقيام خلافة الإنسان على هذه الأرض،هذا المنهج الذي تنبع منه كل التصورات الأساسية للعلا قات الكونية والإنسانية،ولهذا تجده يطال كافة مجالا ت الحياة الإنسانية،بمختلف توجيهاته وتعليماته، فيحدث بـا آثارا بارزة، تدل دلالة بينة على أن الإيمان يتعدى دائرة الاعتقاد الداخلي إلى فاعلية العمل الخارجي .

3-أن الإيمان بالله تعالى، قد يتعرض للنقص، نتيجة لأسباب متعددة ؛فردية واجتماعية تساهم في تثبيط فاعليته، وعرقلة مساره؛أما الفردية فيمكن حصرها في:الإقبال على سبل الفساد كالغفلة واتباع الشهوات والأهواء،وطول الأمل.ثم في مقابل ذلك الإعراض عن سبل الصلاح؛ كهجر القرآن الكريم، وهجر الذكر، وهجر التفكر والنظر.

أما الأسباب الاجتماعية فأبرزها : التأسيس للحرية المطلقة، التي تتملص من كل الضوابط،وتجعل المجتمع يعيش بلا هاد ولا هدف.ثم انحصار الدعوة الإسلامية، التي كان من المفروض أن تكون بمثابة المولد للإيمان.ثم أخيرا قوة التيارات المضادة لها، التي تسعى إلى اجتثاث الإيمان من أصوله الضاربة في عمق المجتمع .

4-أن الإيمان يمكن زيادته وتفعيله، بحيث تتجلى أبعاده في مجالات الحياة الإنسانية جميعها، وذلك باعتماد أساليب معينة منها:

- الإيمان بأسماء الله تعالى ومعرفتها حق المعرفة،فهي أعظم ما يصلح به القلب، وتنشط به الأعضاء، في طاعة الله تعالى.
- ترويض النفس وتعويدها على تقوى الله، بالترغيب حينا،والترهيب حينا آخر. -اتخاذ النبي-صلى الله عليه وسلم- قدوة حسنة ومعلما هاديا إلى صراط الله المستقيم،وسلما للرقي في منازل القرب منه تعالى.

باعتماد هذه الأساليب يمكن الوصول إلى تحقيق أبعاد الإيمان الوظيفية،وتجسيدها على أرض الواقع،والتي يتمثل أبرزها فيما يأتي:

5- أن الإيمان يؤثر على النفس البشرية، مما يؤكد بعده النفسي؛ بحيث أنه قادر على إحداث التوازن النفسي، الذي يضبط مشاعر النفس الإنسانية، وينأى بها عن كل الاضطرابات، فيجعلها نفسا مطمئنة، قادرة على بناء المجتمع؛ وذلك بترسيخ ثقة العبد بالله أولا، ثم بنفسه، وكذا بالعمل على استمرارية صلته وقربه من الله تعالى. وفي الوقت ذاته، يبني منها النفس القوية، القادرة على الحفاظ على ما شيدته، التي لا تهزها المحن ولا تزعزعها الشدائد.

6-أن تجليات البعد الفكري للإيمان تتمثل في:

- كون الإيمان خير محراب يحتضن العلم، بدليل دعوة الله المتكررة إلى طلب العلم، وإلى إعمال العقل بشتى الأساليب؛ كتحرير العقول أسارها، وفتح مجال الفكر واسع أمامها، بل وترغيبها في طلب العلم النافع، ورفع أهله مكانا عليا. ويكفي دليلا على ذلك، أنه تعالى جعل العقل هو مناط الاعتقاد والتكليف، وأنه افتتح أول آية أنزلها بما يعلي شأن العلم والعلماء، فقال تعالى :﴿ اقرا باسم ربك الذي خلق (1) خلق الأنسان من عـ ـلق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعـ ـلم (5)﴾ [العلق :1-5].
- كون الإيمان خير حافظ من الجهل،؛ذلك أن الله تعالى،قد ذم كل ما من شأنه أن يعطل العقل، أو يشل حركته، أو كل ما قد يؤدي إلى حبس العلم، ونشر الجهل، ولذلك ذم التقليد، واتباع الهوى، والظن، وزيارة العرافين أو السحرة ...إلخ .حيث قال تعالى: ﴿ أفلم يتدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ [المؤمنون :68]، وقـال أيضا : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا(43) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا(44) ﴾ [الفرقان:44].

7-أن تجليات البعد الاجتماعي للإيمان تتمثل في:

- أن الإيمان يضفي على المجتمع سمة الربانية؛نتيجة لتبني المؤمنين إرشاد الله تعالى، وتوجيهه للمجتمع، وبيانه لكل صغيرة وكبيرة لها علاقة به، سواء تعلق الأمر بالأسرة،أو بعلاقات أفرادها؛بعضهم ببعض،أو بالعلاقات الاجتماعية.
- أن الإيمان يؤسس للمجتمع المتحاب؛بحيث يصل أفراده بآصرة الحب الخالص، الذي ينبع من محبة الله تعالى، ومحبة رسوله الكريم-صلى الله عليه وسلم- القائل :((ثلاث منكن فيه وجد حلاوة الإيمان:أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله،

...))،والقائل-أيضا-:((لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا،ولا تؤمنوا حتى تحابوا،أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم. ؟ أفشوا السلام بينكم)).

- أن الإيمان يشيد المجتمع المتكافل ماديا ؛بحيث يصير كل فرد قادر من أفراده،كفيل لعجزة مجتمعه،وذلك تجسيدا لقول الرسول-صلى الله عليه وسلم-((المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا)).
- أن الإيمان يشيد المجتمع المتكافل معنويا-أيضا-؛بحيث يسعى كل فرد مؤمن إلى نشر الفضائل بين إخوته، ودرء الرذائل، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا،تجسيدا لقوله تعالى :﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

8-أن تجليات البعد الأخلاقي تتمثل في:

- أن الإيمان قوة دافعة للتحلي بمكارم الأخلاق، فالرسول-صلى الله عليه وسلم –يقول ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).
- أن الإيمان قوة حافظة من مساوئ الأخلاق، رادعة عنها، وذلك ببيان مساوئها، والتحذير من مقاربتها، والترهيب من الخوض فيها.

9- تجليات البعد الاقتصادي للإيمان تتمثل في:

- أن الإيمان يولد حافزا ذاتيا، وباعثا داخليا،لدى الفرد المؤمن، يجعل منه الفرد العامل النشط، الذي يسعى إلى عمارة الأرض، خضوعا لأمر الله تعالى القاضي بإقامة الخلافة على أرضه.

- الإيمان يسلح العامل المؤمن بمكارم الأخلاق،التي تجعله يسعى إلى تحقيق رفاهيته،ورفاهية مجتمعه على حد سواء.

- الإيمان يولد العزيمة على العمل الاقتصادي، ويدعو إلى مباشرته،ودليل ذلك دعوة الله مباشرة إلى مزاولته، ثم لفت الانتباه إلى ما في الأرض من ثروات يجب استغلالها، أو فرض سيادته عليها .

- الإيمان يدعو بالعمل المتقن، ويرفعه إلى مصاف العبادة، فقضى على التنافر القائم بين العبد والروح، الذي لطالما بينته بعض المذاهب وأسس التوازن بينهما، فكما تلبي حاجات الروح، يجب أيضا أن تلبي حاجات الجسد.

-الإيمان يرسخ في فكر العباد أن المالك الفعلي للمال هو الله تعالى، فالله يقول ﴿ له ملك السماوات والأرض﴾ [البقرة : 107]، وما إسناده إلى العباد إلا مجازا، فهم مستخلفين فيه وحسب، فلا داعي لأن تطغى نفوسهم أو تغتر، لأننا في واقع الأمر لا تملك من المال الذي بين يديها شيئا، ليس هذا وحسب بل عليها أن تتصرف فيه وفق الأمر التي يحددها المالك الحقيقي له.

الإيمان يرسخ في فكر المؤمن بأن المال إنما هو وسيلة لعمارة الأرض لا لخرابا وأنه بذلك لا يكسب بذاته، و إنما ليوظف، ولهذا قضت تعاليمه الله تعالى بإنفاقه وتحريم اكتنازه، و ليس غاية يتهالك البشر لجمعها واكتنازها.

10- تجليات البعد السياسي تتمثل في :

-الإيمان بالله تعالى، يقتضي تطبيق حكمه في كافة مجالات الحياة، وذلك بامتثال أوامره والإعراض عما نى عنه، ويوكل الأمر إلى المجتهدين فيما لا نص فيه، وذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿ وإن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ [المائدة : 49]، وهذا سوف يؤدي إلى استقرار الحكم ومن حلال تطبيق التعاليم القاضية باعتماد العدل والشورى، والمساواة بين أفراد الأمة.

الإيمان أصلا في تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم إذ يوجب على الأول، تنفيذ أوامر الله تعالى وإمضائها، والعدل بين أفراد رعيته، كما يقتضي الإيمان أن تطع الرعية الحاكم في غير معصية الله، وأن تعينه على الخير، وتنبهه إلى الزلل أو الخصام الذي قد يصدر عنه .

الإيمان بالله تعالى يرسي الحكم على قواعد السلم والأمن والاستقرار وذلك بما يزرعه في معتنقيه من مبادئ العدل والشورى والمساواة.

فهرس المصادر والمراجع

❀ القرآن الكريم.

1-أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة لـ:عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع.(مكتبة أضواء السلف:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:1: 1420هـ-2000م).

2-أثر الذنوب في هدم الأمم و الشعوب لـ:محمد محمود الصواف.(مؤسسة الرسالة:ببيروت-لبنان،ط: 9: 1409هـ-1989م).

3-أدب الدنيا والدين لـ:أبي الحسن علي البصري الماوردي.(تح:محمد صباح،دار مكتبة الحياة:بيروت-لبنان،ط:1986م).

4-أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي لـ:علي محمد جريشة ومحمود شريف الزيبق.(دار الاعتصام:القاهرة-مصر،دط،دت) .

5-أساليب التشويق والتعزير في القرآن الكريم لـ:حسين جرنو محمود جلو.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان ودار العلوم الإنسانية:دمشق-سوريا،ط:1: 1414هـ-1994م).

6-أسماء الله الحسنى لـ:حسين محمد مخلوف. (دار الشهاب : باتنة-الجزائر، دط، دت).

7-أصول التربية الإسلامية وأساليبها لـ:عبد الرحمن النحلاوي. (دار الفكر:دمشق-سوريـا، ط:1 : 1399هـ-1979م).

8-إحياء علوم الدين لـ:أبي حامد الغزالي محمد بن محمد بن أحمد الطوسي.(دار صادر : بيروت لبنان، ط : 1 : 2000م).

9- اقتصادنا في ضوء الكتاب والسنة لـ:محمد حسن أبي يحي.(دار عمار:الأردن-عمان،ط:1: 1409 هـ-1989م).

10-اقتصادنا لـ:محمد باقر الصدر.(دار التعارف:بيروت-لبنان،ط:1411هـ-1991م).

11-الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام لـ:مصطفى حلمي.(المؤسسة الفنية للطباعة والنشر:الجيزة-مصر،ط: 1407هـ-1987م).

12-الأسماء والصفات لـ:لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي . (تح:عماد الدين أحمـد حيدر،دار الكتاب العربي:بيروت-لبنان،ط:2: 1415هـ-1994م).

13-الاستقامة لـ:ابن تيمية.(تح:محمد رشاد سالم،دار جامعة الإمام محمد بن سعود:المدينة المنورة-المملكة العربية السعودية،ط:1: 1403هـ).
14-الإسلام والوعي الحضاري لـ:أكرم سالم.(دار المنارة:كجدة:المملكة العربية السعودية،ط:1987 م).
15-الإسلام وتنظيم النشاط الإقتصادي وضمان العمل والعيش للناس لـ:صادق مهدي السعيد.(مكتبة الأقصى:عمان-الأردن،ط:1403هـ_1983م).
16-الإسلام والفكر العلمي لـ:محمد مبارك.(دار الفـكر:بيروت-لبنان،ط:2: 1400هـ-1980م).
17-الإسلام في حياة المسلم لـ: محمد البهي.(دار الفكر:بيروت-لبنان،دط،دت).
18-الإنسان الكون بين القرآن والعلم لـ:عبد العليم عبد الرحمن خضر.(عالم المعرفة:جدة-المملكة العربية السعودية،ط:1: 1403هـ-1983م).
19-الإيمان لـ:محمد بن اسحاق بن يحي بن منده.(تح:علي بن محمد بن ناصر،مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:3: 1407هـ-1987م).
20-الإيمان والتقدم العلمي لـ:هاني رزق وخالص جبلي.دار الفكر المعاصر:بيروت-لبنان،دار الفكر:دمشق-سوريا،ط:1: 1421هـ-2000م).
21-الإيمان والحياة لـ:يوسف القرضاوي. (مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:9: 1403هـ-1983م).
22-بحر العلوم لـ:أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي.(تح:علي محمد معوض وآخرين.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1413هـ-1993م).
23-بدائع الفوائد لـ:ابن قيم الجوزية.(تح:معروف مصطفى وآخرين،دار الخير:دمشق-سوريا ، بيروت-لبنان،ط:1: 1414هـ-1994م).
24- بصائر ذوي التمييز في لطائف كتاب الله العزيز لـ:مجد الدين حمد بن يعقوب الفيروزبادي.(المكتبة العلمية:بيروت-لبنان،دط،دت).
25-بجة الناظرين فيما يصلح الدنيا والدين لـعبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله.(دار طيبة:الرياض:المملكة العربية السعودية،ط:2: 1406هـ-1986م).

26-البحر المحيط لـ:محمد بن يوسف ؛أبي حيان الأندلسي.(تح:عادل أحمد عبد الموجود وآخرين،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1413هـ-1993م).

27-البعد الحضاري للعقيدة الإسلامية بين نظرة الإنسان وتوجيه القرآن الكريم لـ:نبيل مشكاريني.(رسالة ماجستير:قسم أصول الدين،إشراف:عمار جيدل،سنة:2000-2001م).

28-تاج العروس لـ:محمد مرتضى الزبيدي.(مطبعة حكومة الكويت:الكويت،ط:2: 1415هـ-1994م).

29- تاج العروس لـ:محمد مرتضى الزبيدي.(دار صادر:بيروت-لبنان،دط،دت).

30-تبصرة الغافل وتذكرة العاقل لـ:محمد الطيب المريني.(تح:بسام محمدبارود، المـــع الثقافي:أبوظبي-الإمارات العربية،ط:1: 1999م).

31-تجديد الدعوة الإسلامية؛التحدي والرهان لـ:عمار جيدل.(زاعـــياش:بوزريعـة-الجزائر،دط،دت).

32-تحفة الأحوذي ؛شرح جامع الترمذي لـ:أبي العلي محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري.دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:3: 1399هـ-1979م).

33-تفسير البيضاوي:أنوار التنـزيل وأسرار التأويل لـ:ناصر الدين أبي سعيد عبد الله أبي عمر محمد الشيرازي البيضاوي.(تح:عبد القادر عرفات،دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:1416هـ-1996م).

43-تفسير القرآن العظيم لـ: أبي الفداء إسماعيل بن كثير.(دار الفكر:بـيروت-لـبنان،ط:1401 هـ-1981م).

35-تقريب التهذيب لـ:أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.(تح:مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1413هـ-1993م).

36-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لـ:عبد الرحمن بن ناصر السعدي.(تح:عبد الرحمن ابن معلا اللويحق،مؤسسة الرسالة :بيروت-لبنان،ط:1: 1423هـ-2002م).

37-التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية:البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي لـ:محمد عز الدين توفيق.(دار السلام:القاهرة-مصر،ط:1: 1418هـ- 1998م).

38-التبشير والاستعمارفي البلاد العربية لـ :مصطفى خالديوعمرفروخ.(المكتبةالعصرية:صيدا-لبنان،ط: 1982م 39-التعريفات لـ :علي بن محمد السيد شريف الجرجاني.(تح:عبد المنعم حنفي،دار الرشاد:القاهرة-مصر،دط،دت).

40-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لـ :وهبة الزحيلي.(دار الفكر المعاصر:بيروت-لبنان،و دار الفكر:دمشق-سوريا،ط:1: 1411هـ -1991م).

41-التحرير والتنوير لـمحمد الطاهر بن عاشور.(الدار التونسية:تونس،المؤسسة الوطنـية للكتاب:الجزائر،دط،دت).

42-التكامل في الإسلام لـ :أحمد أمين.(دار المعـرفة:بيروت-لبنـان،ط:2: 1406 هـ -1986م).

43-التوحيد لـ :ابن منصور الماتريدي.(تح:فتح الله خليف ،دار المشرق:بيروت-لبنان،ط:2دت)

44-الجامع لأحكام القرآن لـ :القرطبي.(تح:أحمد عبد الحليم البردوني،دار الكتب المصـرية: القاهرة-مصر،ط:3،دت).

45-الجواهر الحسان في تفسير القرآن لـ :عبد الرحمن الثعالبي.(تح:أبي محمـد الغمـاري الإدريسي،الحسيني ،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1416 هـ -1996م).

46-حاشية الشهاب؛المسمى عناية القاضي وكفاية الراضي لـ :شهاب الدين أحمد بن محمد عمر الخفاجي .(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1417هـ -1997م).

47-حول المنهج الإسلامي في التنمية الاقتصادية لـ :عبد الحميد الغزالى .(دار الوفاء:المنصورة-مصر،ط:1: 1409هـ -1989م).

48-الحجة في بيان المحجة لـ :أبي القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل،التيمي،الأصبهاني. (تح:محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي،دار الرية:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:2: 1419هـ -1999 م)

49-الحركة التنصيرية في الجزائر بعد الاستقلال لـ :يمينة صالح.(رسالة ماجستير:تخصص أصول الدين،كلية أصول الدين:الجزائر،إشراف:إبراهيم التهامي،ت:1419هـ -1999م).

50-الحرب النفسية بيننا وبين العدو الإسرائيلي لـ :أحمد نوفل.(دار الشهاب:باتنة-الجزائر،ط:1988 م).

51-الحكم بما أنزل الله لـ:عبد الرحمن بن صالح المحمود.(دار طيبة:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:2: 1420هـ-1999م).
52-خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم لـ:فتحي الدريني.(مؤسسة الرسالة: بيروت-لبنان،ط:2: 1407هـ1987م).
53-خصائص الاقتصاد الإسلامي وضوابطه الأخلاقية لـ:محمود محمد بابللي.(المكتب الإسلامي:بيروت-لبنان،دمشق-سوريا،ط:1: 1408هـ-1988م).
54-خلافة الإنسان بين الوحي والعقل لـ:عبد اليد النجار.(دار الغرب الإسلامي:بيروت-لبنان،ط: 1407هـ-1987م).
55- خلق المسلم لـ:محمد الغزالي.(دار الرحاب:الجزائر،ط:1422هـ-2002م).
56- الخطر الداهم على العرب والمسلمين لـ:حسن رمضان فحلة.(دار الهدى:عين مليلة-الجزائر،دط،دت).
57-دراسات في السيرة النبوية لـ:حسين مؤنس.(الزهراء للإعلام العربي:القاهرة-مصر،ط:2: 1405 هـ-1985م).

58-دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية لـ:محمد عبد الله دراز.(دار القلم:الكويت،ط: 1400هـ-1980م).

59-دستور الأسرة في ظلال القرآن لـ:أحمد فائز.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:3: 1403هـ-1983م).
60-دستور الأخلاق في القرآن الكريم لت:محمد عبد اله دراز.(تح:عبد الصبور شاهين،مؤسسة الرسالة ودار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ودار البحوث العلمية:الكويت،ط:9: 1416هـ-1996م).
61-دعوة إلى تدبر القرآن الكريم:كيف ولماذا؟ لـ:مختار شاكر كمال.(دار البشير:عمان-الأردن،ط:1 : 1415هـ-1995م).
62-دلائل التوحيد لـ:محمد جمال الدين القاسمي.(دار النفائس:بيروت-لبنان،ط:1412هـ-1992 م).

63-الداء والدواء لـ:ابن قيم الجوزية.(مكتبة الصفا:القاهرة:مصر،ط:1: 1422هـ-2002م).

64-الدر المنثور في التفسير المأثور لـ :عبد الرحمن جلال الدين السيوطي.(دار الفكر:بيروت-لبنان،ط: 1414هـ-1993م).
65-الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة لـ :محمد عزة دروزة.(المكتب الإسلامي:بيروت-لبنان،ودمشق-سوريا،ط:1404هـ-1984م).

66-الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية لـ :الطيب برغوث.(دار البعث:قسنطينة-الجزائر،ط:1: 1406 هـ-1985م).

67-الدعوة:قواعد وأصول لـ :جمعة أمي عبد العزيز.(دار الصديقية:حسـين داي-الجزائر،ط:2: 1989م).
68-الدين:بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان لـ :محمد عبد الله دراز.(دار العلم:الكويت،ط:1402 هـ-1982م).

69-الديباج لـ :عبد الرحمن بن أبي بكر ؛أبي الفضل السيوطي.(تح:أبي إسحاق الجويني الأثري،دار ابن عفان:المملكة العربية السعودية،ط:1416هـ-1996م).نقلا عن قرص الألفية للسنة النبوية.
70-رقابة الأمة على الحكام لـ :علي محمد حسنين.(المكتب الإسلامي:بيروت-لبنان،ومكتبة الخاني:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:1: 1408هـ-1988م).
71-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لـ :أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي.(دار إحياء التراث العربي:بيروت-لبنان،دط،دت).
72-روضة المحبين ونزهة المشتاقين لـ :شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،دط،دت).
73-رسالة في تحقيق التوكل لـ :ابن تيمية.(دار مصر،تح:محمد رشا ورفيق سالم،دت).نقلا عن قرص:مكتبة العقائد والملل.

74-الرسول والعلم لـ :يوسف القرضاوي.(دار الصحوة للنشر:القاهرة-مصر،دط،دت).
75-الرسالة المحمدية لـ :سليمان الندوي.(مكتب دار الفتح:دمشق-سوريا،المكتب الإسلامي: بيروت-لبنان،ط:3: 1401هـ-1991م).
76-سنن ابن ماجه لـ :محمد بن يزيد القزويني.(تح:محمد فؤاد عبد الباقي،دار الفكر:بيروت-لبنان،دط،دت).

77-سنن البيهقي الكبرى لـ:أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ،أبي بكر البيهقي.(تح:محمد عبد القادر عطا،مكتبة دار الباز:مكة-المملكة العربية السعودية،ط: 1414هـ-1994م).
78-سنن الترمذي لـ:محمد بن عيسى ،أبي عيسى الترمذي،السلمي.(تح:أحمدمحمد شاكر وآخرين،دار إحياء التراث العربي:بيروت-لبنان،دط،دت).
79-سنن الدارقطني لـعلي بن عمر أبي الحسن الدارقطني البغدادي.(تح:عبد الله هاشم اليماني المدني،دار المعرفة:بيروت-لبنان،ط: 1386هـ-1966م).
80-سنن الدارمي لـ:عبد الله بن عبد الرحمن أبي محمد الدارمي .(تح:فواز أحمد وخالد السبع،دار الكتاب العربي :بيروت-لبنان،ط:1: 1407هـ).
81-سنن النسائي لـ:أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي.(تح: عبد الفتاح أبي غدة،مكتب المطبوعات الإسلامية:حلب-سوريا،ط:2: 1406هـ-1986م).
82-سنن أبي داود لـ:سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي.(تح:محمد محي الدين عبد الحميد،،دار الفكر:بيروت-لبنان،دط،دت).
83-سيرة النبي-صلى الله عليه وسلم- لـ:ابن هشام.(تح:محمد محي الدين عبد الحميد،دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:1401هـ-1981م).
84-السلوك الاجتماعي في الإسلام لـ:حسن أيوب.(دار السلام:القاهرة-مصر،ط:1: 1422هـ-2002م).
85-شذرات الذهب في أخبار من ذهب لـ:ابن الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي.(المكتب التجاري للطباعة:لبنان،دط،دت).
86-شرح الزرقاني لـ:محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1 : 1411 هـ).
87-شرح سنن ابن ماجه لـ:السيوطي،عبد الغني،فخر الحسن الدهلوي.(قديمي كتب خانة:كراتشي،دط،دت).
88-الشفا بتعريف حقوق المصطفى لـ:القاضي عياض؛أبي الفضل عياض اليحصبي .(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،دط،دت).
89-الشهب اللامعة في السياسة النافعة لـ:عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي الفاسي.(دار المدار الإسلامي:لبنان،ط:2002م).

90-صيد الخاطر لـ:جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي.(تح:عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1412هـ-1992م).
91-صحيح مسلم بشرح النووي لـ:النووي.(دار الريان للتراث:الإسكندرية:مصر،ط: 1407 هـ-1987م).
92- صحيح مسلم بشرح النووي لـ:النووي.(دار إحياء التراث العربي:بيروت-لبنـان،ط:2 : 1392هـ).
93-صحيح مسلم لـ:ميلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.(تح:محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي،دط،دت).
94-صحيح البخاري لـ:محمد بن اسماعيل ؛أبي عبد اله الحجازي الجعفي .(تح:مصطفى ديب البغا،دار بن كثير :بيروت-لبنان،واليمامة- ،ط:3: 1407هـ-1987م).
95-صحيح ابن حبان لـ:محمد بن حبان ن حمد أبي حاتم التيمي البستي.(تح:شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:2: 1414هـ-1993م).
96-طريق الإيمان لـ:عبد اليد عزيز الزنداني.(مطبعة ماليزيا،دط،دت).
97-الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لـ:أبي عبد الله؛محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.(دارالفكر:بيروت-لبنان،دط،دت).
98-علم النفس النبوي لـ:قاسم شهاب صباح.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:1: 1421هـ-2000م).
99-عـون المعبود:شرح سنن داودلـ:محمد شمس الحق آبادي؛أبي الطيب.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:2: 1415هـ).
100-العلاقات الأسرية في الإسلام لـ:محمد عبد السلام محمد.(مكتبة الفلاح:الكويت،ط:1: 1401 هـ-1981م).
101-العمـل الاقتصادي من وجهة نظر الإسلام لـ:رؤوف شلبي.(دار الضياء:قسنطينة-الجزائر،دط،دت).
102-فتح البيان في مقاصد القرآن لـ:أبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1420هـ-1999م).
103-فتح الباري:شرح صحيح البخاري لـ:أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.(دار المعرفة:بيروت-لبنان،دط،دت).

104-فتاوى مهمة لعموم الأمة لـ:عبد العزيز بن باز ومحمد بن صالح العثيمين.(تح:إبراهيم الفارس،دار العاصمة:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:1395هـ-1975م).نقلا عن قرص:مكتبة العقائد والملل.

105-فلسفة التربية في الإسلام :انتماء وارتقاء لـ:أحمد رجب الأسمر.(دار الفرقان:عمان-الأردن،دط،دت).

106-فن الحكم في الإسلام لـ:مصطفى أبي زيد فهمي.(دار المطبوعات الجامعية،ط:3،دت).

107-في ظلال القرآن لـ:سيد قطب.(دار الشروق:بيروت-لبنان،والقاهرة-مصر،ط:16: 1410 هـ-1990م).

108-في المجتمع لـ:محمد أبي زهرة.(دارالفكر العربي:القاهرة-مصر،دط،دت).

109-في العقيدة والأخلاق لـ:محمد عبد التواب السيد يوسف وآخرين.(الدار الإسلامية للطباعة والنشر:المنصورة-مصر،ط:1410هـ-1990م).

110-فيض القدير :شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير لـ:محمد عبد الرؤوف المناوي.(دار الفكر:بيروت-لبنان،دط،دت).

111-الفوائد لـ:ابن قيم الجوزية.(دار الكتـب العلمية:بيروت-لبنان،ط:2: 1393هـ- 1973 م).

112-الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر:مشكلات الأسرة والتكافل لـ:محمد البهي.(دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:3: 1973م).

113-الفكر الأخلاقي؛دراسة مقارنة لـ:عبد الله الشرقاوي.(دار الجيل:بيروت-لبنان،ومكتبة الزهراء:القاهرة-مصر،ط:1: 1410هـ-1990م).

114-قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن لـ:نديم الجسر.(طرابلس،دط،دت).

115-قواعد وأحكام في الاقتصاد الإسلامي لـ:يوسف العظم.(منشورات العصر الحديث،ط:9: 1404هـ-1983م).

116-القاموس المحيط لـ:مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزبادي،الهيئة المصرية العامة للكتاب:مصر،ط:1400هـ-1980م).

117-القرآن وعلم النفس:نداء الفطرة الإيماني لـ :عبد العـلي الجسماني.(دار السوريـة للعلوم:بيروت-لبنان،ط:1: 1420هـ -2000م).
118-القرآن الكريم والنظر العقلي لـ: فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل.(المعهد العلمي للفكر الإسلامي:و.م.أ،ط:1: 1413هـ -1993م).
119-كشاف اصطلاحات الفنون لـ:محمد علي بن علي بن محمد التهانوي.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1418هـ -1998م).
120-كليات رسائل النور:الكلمات لـ:بديع الزمان سعيد النورسي.(ترجمة:إحسان قاسم الصالحي،دار سوزلر للنشر:اسطنبول-تركيا،ط:3: 1419هـ -1998م).
121-الكامل في التاريخ لـ :ابن الأثير.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:3: 1980م).
122-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل لـ:محمد بن عمر الزمخشري.(دار الكتاب العربي:بيروت-لبنان،ط:3: 1407هـ -1987م).
123-الكليات لـ :أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:2: 1413 هـ -1993م).

124-لسان العرب المحيط لـ :ابن منظور.(دار الجيل:بيروت-لبنان،ط:1408هـ -1988م).
125-ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لـ:أبي الحسن علي الحسيني الندوي.(مكتبة الرحاب:الجزائر،ط:10: 1408هـ -1987م).
126-مباحث في إعجاز القرآن لـ:مصطفى مسلم.(دار المنارة:جدة-المملكة العربية السعودية،ط:1: 1408هـ -1988م).
127-مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية :جمع:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه أحمد.(دار المعارف:الرباط:المغرب،دط،دت)
128-مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم لـ:عماد الدين خليل.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط:1405هـ -1985م
129-مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي لـ:عبد العزيز فهمي هيكل.(دار النهضة العربية:بيروت-لبنان،دط،دت).
130-مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام لـ:سعيد سعد مرطان.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،ط: 1 :1422هـ -2002م).

131-مسند أحمد بن حنبل لـ:أبي عبد الله الشيباني.(مؤسسة قرطبة:مصر،دط،دت).
132-مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام لـ:يوسف القرضاوي.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان:ط: 1405هـ-1985م).
133-معجم مفردات ألفاظ القرآن لـ:أبي القاسم الحسين بن المفضل؛الراغب الأصفهاني.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1 : 1418هـ-1997م).
134-معجم المؤلفين لـ:عمر رضا كحالة.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،دط،دت).
135 -المعجم الكبير لـ: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.(تح:حمدي بن عبد ا ليد السلفي،مكتبة العلوم والحكم:الموصل-العراق،ط:2 :1404هـ-1983م).
136-المعجم الأوسط لـ:أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.(تح:طارق بن عوض الله،دار الحرمين-القاهرة،دط،دت).
137-مفاتيح الغيب لـ:فخر الدين الرازي .(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1411هـ-1990م).

138-مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة لـ:ابن قيم الجوزية.(دار الجيل:بيروت-لبنان،ط: 1414هـ-1994م).
139- مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة لـ:ابن قيم الجوزية.(دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،دط،دت).
140-مقومات ا لتمع المسلم لـ:فاروق أحمد الدسوقي.(المكتب الإسلامي:بيروت-لبنان،و مكتبة فرقد الخاني:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:2: 1406هـ-1986م).
141-من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لـ:زغلول النجار.(مكتبة الشروق الدولية ومكتبة الأسرة:مصر،ط:2020م).
142-مناهج الدعوة وأساليبها لـ:علي جريشة.(دار الوفاء:منصورة-مصر،ط:1: 1407هـ 1986م).
-
143-مناهل العرفان في علوم القرآن لـ:محمد عبد العظيم الزرقاني.(تح:مكتبة البحوث والدراسات،دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:1: 1996م).نان،ط:1: 1996م).

144-منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى لـ:أنس أحمد كرزون.(دار نور المكتبات:جدة-المملكة العربية السعودية ودار ابن حزم:بيروت-لبنان،ط:1421هـ-2001م).

145-منهج القرآن في التربية لـ:محمد شديد.(مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان،القاهرة-مصر،ط:1402 هـ-1982م).

146-منهج القرآن في إصلاح المجتمع لـ:

147-منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين لـ:عز الدين بليق .(دار الفتح:بيروت-لبنان،ط:3: 1404هـ-1984م).

148-موازين القرآن الكريم لـ:عز الدين بليق.(دار الفتح:بيروت-لبنـان،ط:1: 1403هـ-1983م).

149-موقف العقل والعلم العالم من رب العالمين وعباده المرسلين لـ:مصطفى صبري.(دار إحياء التراث العربي:بيروت-لبنان،دط،دت).

150-المجتمع والحياة لـ:علي عبد المنعم عبد الحميد.(دار القلم:الكويت ط:1: 1401هـ-1981م).

151-المستدرك على الصحيحين لـ:محمد بن عبد الله ؛أبي عبد الله الحاكم النيسابوري.(تح:مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1411هـ-1990م).

152-المفردات في غريب القرآن لـ:الراغب الأصفهاني.(دار المعرفة:بيروت-لبنان،ط:1: 1418 هـ-1998م)

153-المقصد الأسنى في شرح أ سماء الله الحسنى لـ:عبد العزيز الدريني.(مطبعة محمد علي صبيح:ميدان الأزهر الشريف-مصر،ط:1،دت).

154-المقصد الأسنى في شرح أ سماء الله الحسنى لـ:أبي حامد الغزالي.(تح:عبد الوهاب،دار الجفان والجابي:قبرص،ط:1: 1407هـ-1987م).نقلا عن قرص:مكتبة العقائد والملل.

155-نعمة الله في خلق الإنسان كما يصوره القرآن الكريم لـ:عزت محمد.(مكتبة الرياض:المملكة العربية السعودية،ط:1: 1404هـ-1984م).

156-نظام الأسرة في الإسلام لـ:محمد أمان بن علي الجامي.(المكتب الإسلامي:بيروت-لبنان ودمشق-سوريا،ط:1: 1140هـ-1981م).

157-نظام الإسلام:الاقتصاد؛مبادئ وقواعد عامة لـ:محمد المبارك.(دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:3: دت).

158-نظام الإسلام:الحكم والدولة لـ:محمد المبارك.(دار الفكر:بيروت-لبنان،ط:2: 1401هـ-1981م).
159-نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي لـ:ظافر القاسمي.(دار النفائس:بيروت-لبنان،ط:6: 1411هـ-1991م).
160-نيل الأوطار لـ:محمد بن علي بن محمد الشوكاني.(دار الجـيل:بيروت-لبنان،ط:1973م).
161-النظم الإسلامية والمذهب المعاصرة لـ:حسن عبد الحميد عويضة.(دار الرشيد:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:2: 1401هـ-1981م).
162-النهج الأسمى في شرح الأسماء الحسنى لـ:محمد محمود النجدي.(مكتبة الإمام الذهبي:حولي-الكويت،ط:2: 1415هـ-1994م).
163-هيمان الزاد إلى دار المعاد لـ:محمد بن يوسف الوهبي.(سجل مطابع العرب:سلطنة عمان،ط: 1406هـ-1986م).
164-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لـ:ابن خلكان.(تح:إحسان عباس،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،دط،دت).
165-وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم لـ:عبد العزيز بن ناصر الجيل.(دار طيبة:الرياض-المملكة العربية السعودية،ط:2: 1419هـ-9819م).
166-الوافي لـ:عبد الله البستاني.(مكتبة لبنان:بيروت-لبنان،ط:1990م).
167-الوسيط في تفسير القرآن الـيد لـ:أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.(تح:عادل أحمد عبد الموجود وآخرين،دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان،ط:1: 1415هـ-1994م).

فهرس الآيات

بِالصَّبْرِ..."				
" وَبَشِّرِ الصابِرِينَ..."	157	البقرة	02	101
" وَالذِينَ آمَنُوا أَشَد حُبّاً ... "	165	البقرة	02	15، 179-180
" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبِعُوا مَا أَنزَلَ... "	170	البقرة	02	136
" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ..."	179	البقرة	02	127
" كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ.. "	180	البقرة	02	259
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا كُتِبَ..."	183	البقرة	02	215
" وَعَلَى الذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ...."	184	البقرة	02	195
" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَني فَإِني ..."	186	البقرة	02	105
" الْحَج أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ... "	197	البقرة	02	216
" مَنْ يَقُولُ رَبنَا آتِنَا... "	201	البقرة	02	210
"وَالْمُطَلقَاتُ يَتَرَبصْنَ بِأَنفُسِهِن..."	228	البقرة	02	164
" وَلَهُن مِثْلُ الذِي عَلَيْهِن بِالْمَعْرُوفِ..."	228	البقرة	02	166
" وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ..."	231	البقرة	02	89
"وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُن..."	233	البقرة	02	167
"كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ..."	249	البقرة	02	116
" وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ..."	253	البقرة	02	51
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِما..."	254	البقرة	02	12
" اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَي الْقَيومُ..."	255	البقرة	02	45
" وَلَكِنْ لِيَطْمَئِن قَلْبِي..."	260	البقرة	02	92
" مَثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ..."	261	البقرة	02	256
" مَثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ..."	262-261	البقرة	02	194-193
" مَثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ..."	265	البقرة	02	191
"الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ..."	274	البقرة	02	256

" الذِينَ يَأْكُلُونَ الربا لا َيقُومُونَ..."	275	البقرة	02	282
"يَا أيهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ..."	282	البقرة	02	241
"لِلهِ مَا فِي السمَاوَاتِ..."	284	البقرة	02	254
" لا يُكلفُ اللهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا..."	286	البقرة	02	89
" الم اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَي الْقَيومُ ..."	1،2	آل عمران	03	45
" زُينَ لِلناسِ حُب الشهَوَاتِ ..."	14	آل عمران	03	6
" شَهِدَ اللهُ أَنهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ..."	18	آل عمران	03	18
" وَيُحَذرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ..."	28	آل عمران	03	89
" قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبونَ اللهَ فَاتبِعُونِي..."	31	آل عمران	03	53182،
" وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً..."	85	آل عمران	03	165
" وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمةٌ..."	104	آل عمران	03	294
" وَلا تَكُونُوا كَالذِينَ تَفَرقُوا..."	106105،	آل عمران	03	37
" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ..."	110	آل عمران	03	58، 108، 196
" وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكلِ الْمُؤْمِنُونَ..."	122	آل عمران	03	115
" وَلِتَطْمَئِن قُلُوبُكُمْ بِهِ..."	126	آل عمران	03	92
"إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَس الْقَوْمَ..."	142140،	آل عمران	03	111
"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ... "	145	آل عمران	03	49109،
" وَاللهُ يُحِب الصابِرِينَ..."	146	آل عمران	03	101
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا..."	156	آل عمران	03	49
" وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ..."	159	آل عمران	03	285
" وَلا تَحْسَبَن الذِينَ قُتِلُوا..."	169،171	آل عمران	03	109
" الذِينَ قَالَ لَهُمُ الناسُ..."	173،174	آل عمران	03	119

" وَلاَ يَحْسَبن الذِينَ يَبْخَلُونَ..."	180	آل عمران	03	257
" كُل نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..."	185	آل عمران	03	109
" وَمَا الْحَيَاةُ الدنْيا إلا مَتاعُ الْغُرُورِ..."	185	آل عمران	03	46
"إن فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..."	190	آل عمران	03	124
"يَا أيهَا الذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا... "	200	آل عمران	03	117
"يَا أيهَا الناسُ اتقُوا رَبكُمُ..."	01	النساء	04	90، 161، 284
"إن الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً..."	01	النساء	04	47
" فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النسَاءِ..."	03	النساء	04	162
" وَلا تُؤْتوا السفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ..."	05	النساء	04	255، 262
" وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ..."	14	النساء	04	277
" وَعَاشِرُوهُن بِالْمَعْرُوفِ..."	19	النساء	04	166
" الرجَالُ قَوامُونَ عَلَى النسَاءِ..."	34	النساء	04	164
" فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِن..."	34	النساء	04	167
"وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً..."	36	النساء	04	174، 175
"إن اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدوا الْأَمَانَاتِ..."	58	النساء	04	282
" وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناسِ..."	58	النساء	04	290
"يَا أيهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ..."	59	النساء	04	268
" فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ..."	59	النساء	04	273
" وَأَطِيعُوا الرسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ..."	59	النساء	04	292
" وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا لِيُطَاعَ..."	64-65	النساء	04	268
" قُلْ مَتَاعُ الدنْيَا قَلِيلٌ..."	77	النساء	04	5
" مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ..."	79	النساء	04	89
" وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا..."	81	النساء	04	68

" وَتَوكلْ عَلَى اللهِ..."	81	النساء	04	115
" وَالصلْحُ خَيْرٌ..."	128	النساء	04	211
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوامِينَ..."	135	النساء	04	290
" وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ..."	141	النساء	04	118
" فَأما الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ..."	173	النساء	04	109
"يَا أَيهَا الناسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ ..."	174-175	النساء	04	58
" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ ..."	03	المائدة	05	280
"وَاذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ..."	07	المائدة	05	67، 209
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا كُونُوا ..."	08	المائدة	05	290
" وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا..."	09	المائدة	05	60
" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَي آدَمَ..."	32-29	المائدة	05	104-103
" فَطَوعَتْ لَهُ نَفْسُهُ..."	0	المائدة	05	89
" فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ..."	42	المائدة	05	278
" وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ..."	42	المائدة	05	281
" وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ..."	44	المائدة	05	277
" فَلاَ تَخْشَوُا الناسَ وَاخْشَوْنِ..."	44	المائدة	05	278
" وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَن النفْسَ ..."	45	المائدة	05	89
" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَق..."	50-48	المائدة	05	274
" فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ..."	48	المائدة	05	278
" وَأَن احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ..."	49	المائدة	05	272
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا..."	54	المائدة	05	179181 ،
" فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ..."	54	المائدة	05	182

53	05	المائدة	54	"يُحِبهُمْ وَيُحِبونَهُ..."
294	05	المائدة	79-78	" لُعِنَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ..."
194	05	المائدة	89	" لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللغْوِ فِي أَيمَانِكُمْ..."
136	05	المائدة	104	" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ..."
71	05	المائدة	105	"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ..."
50	05	المائدة	114	" وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرازِقِينَ..."
89	05	المائدة	116	"تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ..."
47	05	المائدة	119	" وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ..."
51	06	الأنعام	83	" وَتِلْكَ حُجتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ..."
89	06	الأنعام	93	" أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ..."
272	06	الأنعام	114	" أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً..."
42	06	الأنعام	122	" أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ..."
57	06	الأنعام	132	" وَلِكُل دَرَجَاتٌ مِما عَمِلُوا..."
51	06	الأنعام	151	" وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ... "
276	07	الأعراف	03	"اتبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبكُمْ...."
96	07	الأعراف	11	" وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُم صَورْنَاكُمْ..."
211	07	الأعراف	28	"إِن اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ..."
6	07	الأعراف	32	" قُلْ مَنْ حَرمَ زِينَةَ اللهِ..."
49	07	الأعراف	34	"فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ..."
239	07	الأعراف	85	"فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ..."
273	07	الأعراف	96	" أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ..."
251	07	الأعراف	129	"وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ..."

"الذِينَ يَتبِعُونَ الرسُولَ النبِي الأُمي..."	157	الأعراف	07	59
"وَلَكِنهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرضِ وَاتبَعَ هَوَاهُ..."	175	الأعراف	07	137
"أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ..."	185	الأعراف	07	129
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا...."	27-28	الأنفال	08	11
"وَاعْلَمُوا أَنمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ..."	28	الأنفال	08	260
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتقُوا اللهَ..."	29	الأنفال	08	224
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ..."	45-46	الأنفال	08	116
" وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا ..."	46	الأنفال	08	37
" وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ..."	66	الأنفال	08	116
" وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافةً ..."	122	التوبة	09	129
" قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ..."	24	التوبة	09	16 -17، 184
" وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذهَبَ وَالْفِضةَ..."	34-35	التوبة	09	257
"إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ..."	40	التوبة	09	113
" انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا..."	41	التوبة	09	12
" قُلْ هَلْ تَرَبصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى..."	52	التوبة	09	117
"إِنمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذبَهُمْ بِهَا ..."	55	التوبة	09	89
"إِنمَا الصدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ..."	60	التوبة	09	193، 255
" الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ..."	67	التوبة	09	294
" وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ..."	71	التوبة	09	196 ، 294-295
" خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً..."	103	التوبة	09	216
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا..."	119	التوبة	09	218

" لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ..."	128	التوبة	09	90
" وَمَا يَتبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنّاً..."	36	يونس	10	139
" قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السمَاوَاتِ ..."	101	يونس	10	24- 25 ، 129
" وَمَا مِنْ دَابةٍ فِي الْأَرْضِ ..."	06	هود	11	235، 50
" وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ..."	42-47	هود	11	12- 13
" هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ..."	61	هود	11	244
وَاسْتَغْفِرُوا رَبكُمْ ثُم تُوبُوا إِلَيْهِ ..."	90	هود	11	52
" وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبكَ إِذَا أَخَذَ..."	102	هود	11	292
" فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ..."	116	هود	11	197- 198
" قَالَ بَلْ سَولَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ..."	18	يوسف	12	89
" مَعَاذَ اللهِ..."	23	يوسف	12	9
" وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدتْ قَمِيصَهُ..."	25	يوسف	12	9
" وَهُوَ الذِي مَد الْأَرْضَ..."	03	الرعد	13	25
" وَالذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ..."	25	الرعد	13	225
" الذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِن قُلُوبُهُمْ..."	28	الرعد	13	99
" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً..."	38	الرعد	13	162
" اللهُ الذِي خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..."	32	إبراهيم	14	124
" اللهُ الذِي خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..."	32-34	إبراهيم	14	234
" وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ..."	53	النحل	16	254
" فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ..."	61	النحل	16	109
" وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ..."	72	النحل	16	90
"إِن اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ..."	90	النحل	16	211، 282
" مَنْ عَمِلَ صَالِحاً..."	97	النحل	16	105

"إنمَا يَفْتِري الْكَذِبَ..."	105	النحل	16	219
"إن هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أقْوَمُ..."	09	الإسراء	17	59
" وَكُلَ إنْسَانٍ ألْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ..."	13-14	الإسراء	17	210
" وَلا تُبذرْ تَبْذِيراً..."	26-27	الإسراء	17	225، 262
" وَقَضَى رَبكَ ألا تَعْبُدُوا..."	23-30	الإسراء	17	204 -205
" وَقَضَى رَبكَ ألا تَعْبُدُوا ..."	24	الإسراء	17	171
" وَلا تَجْعَلْ يَدكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ..."	29	الإسراء	17	261
" ذَلِكَ خَيْرٌ..."	35	الإسراء	17	211
" وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ..."	39	الإسراء	17	205
" وَإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا..."	61	الإسراء	17	96
" وَلَقَدْ كَرمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ..."	70	الإسراء	17	98- 99، 161
" وَنُنَزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء..."	82	الإسراء	17	104
" وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحَداً..."	26	الكهف	18	273
" وَاتَبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً..."	28	الكهف	18	137
" وَالْبَاقِيَاتُ الصالِحَاتُ..."	45	الكهف	18	137
" وَإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا..."	50	الكهف	18	96
" وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً..."	57	مريم	19	52
" فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ..."	59	مريم	19	07
"إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ ..."	60-63	مريم	19	64
" فَوَربكَ لَنَحْشُرَنهُمْ وَالشيَاطِينَ..."	68-72	مريم	19	63
"إن الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا..."	96	مريم	19	179
" كُلُوا وَارْعَوْا أنْعَامَكُمْ ..."	54	طه	20	127
" وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالِحَاتِ..."	75-76	طه	20	65

" وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَي..."	111	طه	20	45
" اقْتَرَبَ لِلناسِ حِسَابُهُمْ ..."	03-01	الأنبياء	21	05
" وَلَيَنْصُرَن اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ..."	41-40	الحج	22	198
" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..."	46	الحج	22	127
" وَلِيَعْلَمَ الذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..."	54	الحج	22	123
" أَلَمْ تَرَ أن اللهَ سَخرَ لَكُمْ ..."	64	الحج	22	98
" ثُم أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ ..."	49-45	المؤمنون	23	102
" أَفَلَمْ يدبرُوا الْقَوْلَ ...."	68	المؤمنون	23	136
"إِن الذِينَ يُحِبونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ..."	19	النور	24	164
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا..."	21	النور	24	08 -07
" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضوا مِنْ أَبصَارِهِمْ...."	30	النور	24	30 ،09
" وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِن ..."	31	النور	24	30 ،10
" وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ..."	32	النور	24	163
" وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ..."	33	النور	24	254
" أَلَمْ تَرَ أن اللهَ يُسَبحُ..."	41	النور	24	124
" وَيَقُولُونَ آمَنا بِاللهِ وَبِالرسُولِ..."	50-47	النور	24	267
" قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ..."	53	النور	24	68
" وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ..."	55	النور	24	61
" وَقَالَ الرسُولُ يَا رَب إِن قَوْمِي ..."	30	الفرقان	25	21
" أَرَأَيتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ..."	44-43	الفرقان	25	138
" وَتَوَكلْ عَلَى الْحَي الذِي لا يَمُوتُ..."	58	الفرقان	25	115 ،46
" وَعِبَادُ الرحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ..."	63	الفرقان	25	102
" وَالذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ..."	67	الفرقان	25	261

" قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا ..."	51-42	الشعراء	26	110
" فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ..."	66-60	الشعراء	26	114
" وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ ..."	215	الشعراء	26	181
" مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ ...."	89	النمل	27	62
" رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ..."	24	القصص	28	259
" وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ...."	50	القصص	28	137
"إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ..."	78-76	القصص	28	17
" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ..."	77	القصص	28	243
" كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ..."	88	القصص	28	17
" وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..."	07	العنكبوت	29	60
" وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ..."	45	العنكبوت	29	215
" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..."	58	العنكبوت	29	65
" وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ..."	60	العنكبوت	29	51، 235
" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ ..."	21	الروم	30	90، 162، 166
"بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ..."	29	الروم	30	137
" فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ..."	38	الروم	30	174
" وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ..."	47	الروم	30	118
" وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ..."	18	لقمان	31	101، 103
"إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ...."	18	لقمان	31	103
" أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ...."	20	لقمان	31	98، 178، 245
" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا..."	21	لقمان	31	136
" وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ ..."	13	السجدة	32	89
" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ..."	21	الأحزاب	33	75
" مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ..."	24-23	الأحزاب	33	220 -221
" فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ... "	32	الأحزاب	33	9 –10

" وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ..."	36	الأحزاب	33	276- 277
" وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِ شَيْءٍ..."	52	الأحزاب	33	47
"إِن اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ... "	64-66	الأحزاب	33	67
" قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السمَاوَاتِ ..."	24	الأحزاب	33	50
"يَا أَيهَا الناسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ ... "	3	الأحزاب	33	50
" أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ... "	60-61	يس	33	208
" وَلا تَتبِعِ الْهَوَى فَيُضِلكَ..."	26	ص	38	137
" إِذْ قَالَ رَبكَ لِلْمَلائِكَةِ ..."	70-77	ص	38	101- 102
" إِذْ قَالَ رَبكَ لِلْمَلائِكَةِ ..."	71-72	ص	38	94- 95
" قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ... "	75	ص	38	94
" اللهُ يَتَوَفى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..."	42	الزمر	39	90
" وَيَوْمَ تَقُومُ الساعَةُ أَدْخِلُوا ..."	46	غافر	40	102
" اللهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ... "	64	غافر	40	95
" هُوَ الْحَي لا إِلَهَ إِلا هُوَ ..."	65	غافر	40	45- 46
" حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرحْمَنِ الرحِيمِ ..."	1-4	فصلت	41	78- 79
" وَمَا رَبكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ ... "	46	فصلت	41	104
" سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ..."	53	فصلت	41	129
" وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ..."	10	فصلت	41	235
" وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ ..."	10	الشورى	42	273
" وَقُلْ آَمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ ..."	15	الشورى	42	281
" وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ..."	30	الشورى	42	72
" اللهُ الذِي سَخرَ لَكُمُ الْبَحْرَ..."	12-13	الجاثية	45	245
" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ... "	23	الجاثية	45	138
" وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدنْيَا ..."	24	الجاثية	45	139

" الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ..."	28	الجاثية	45	
" وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السمَاوَاتِ ..."	37	الجاثية	45	102
" فَاعْلَمْ أَنهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ ..."	19	محمد	47	122، 136
" فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَليْتُمْ ..."	22-23	محمد	47	173
" أَفَلا يَتَدَبرُونَ الْقُرْآنَ ..."	24	محمد	47	22
" فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السلْمِ ..."	35	محمد	47	114 -115
" مُحَمدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذِينَ مَعَهُ ..."	29	الفتح	48	181
" وَلَكِن اللهَ حَببَ إِلَيْكُمُ ..."	7	الحجرات	49	58
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا...."	11-12	الحجرات	49	205
"يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا ..."	12	الحجرات	49	225
"إِن أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ ..."	13	الحجرات	49	104، 284
"يَا أَيهَا الناسُ إِنا خَلَقْنَاكُمْ ..."	13	الحجرات	49	284
" مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ..."	18	ق	50	47
" لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ ..."	22	ق	50	20
"إِن اللهَ هُوَ الرزاقُ ..."	58	الذاريات	51	50
" أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ ..."	32	الطور	52	127
" كُل مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبكَ ..."	26-27	الرحمن	55	47
"إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ..."	1-3	الواقعة	56	48
"يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُل شَيْءٍ ..."	2	الحديد	57	49
" وَأَنفِقُوا مِما جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ..."	7	الحديد	57	254
" أَلَمْ يَأْنِ لِلذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ ..."	16	الحديد	57	25
" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَينَاتِ ..."	25	الحديد	57	282
" وَرَهْبَانِيةً ابْتَدَعُوهَا ..."	27	الحديد	57	6

" فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِينَ ..."	4	المادلة	58	195
" رْفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ..."	11	المادلة	58	51، 133
" لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلا فِي قُرىً ..."	14	الحشر	59	119
" هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ ..."	23	الحشر	59	102
" قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ..."	4-6	الممتحنة	60	76
" ا أيهَا الذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ..."	2-3	الصف	61	66
" مَثَلُ الذِينَ حُملُوا التوْرَاةَ ثُم لَمْ ..."	5	الجمعة	62	22
"وَاللهُ خَيْرُ الرازِقِينَ ..."	11	الجمعة	62	50
" قُلْ إِن الْمَوْتَ الذِي تَفِرونَ مِنْهُ ..."	08	الجمعة	62	127
" فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاةُ ..."	10	الجمعة	62	242
"يَا أيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ ..."	9-11	المنافقون	63	18
" خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَق ..."	03	التغابن	64	95
" وَمَنْ يَتقِ اللهَ ..."	04	الطلاق	65	101
" يا أيهَا النبِي جَاهِدِ الْكُفارَ ..."	09	التحريم	66	181
"يَا أيهَا الذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ ..."	06	التحريم	66	170
" هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً ..."	15	الملك	67	244
" أمنْ هَذَا الذِي يَرْزُقُكُمْ ..."	21	الملك	67	50
" نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ..."	01	القلم	68	128
" وَإِنكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ..."	04	القلم	68	77
"إِنا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنا أَصْحَابَ ..."	17-20	القلم	68	19
" خُذُوهُ فَغُلوهُ ..."	30-34	الحاقة	69	190
" عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ..."	20	المزمل	73	44

" إنا خَلَقْنا الْإِنْسَانَ ..."	3-2	الإنسان	76	213
" وَيُطْعِمُونَ الطَعَامَ عَلَى حُبِهِ ..."	9-8	الإنسان	76	191
" وَيْلٌ لِلْمُطَفِفِينَ ..."	3-1	المطففين	83	239
" كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ..."	14	المطففين	83	70
" وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ ..."	26	المطففين	83	104
" إنَهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ..."	14-13	البروج	85	52
" وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ ..."	5-1	الفجر	89	127
" وَتُحِبونَ الْمَالَ حُباً جَماً ..."	20	الفجر	89	15
"يَا أيَتُهَا النفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ ..."	27	الفجر	89	92
" وَنَفْسٍ وَمَا سَواهَا ..."	10-7	الشمس	91	213
" ووَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ..."	08	الضحى	93	259
" وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ ..."	04	الشرح	94	52
" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبكَ الذِي خَلَقَ..."	01	العلق	96	127
" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبكَ الذِي خَلَقَ ..."	2-1	العلق	96	12
" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبكَ الذِي خَلَقَ ..."	19-1	العلق	96	202
" كَلا إِن الإنْسَانَ لَيَطْغَى ..."	7-6	العلق	96	203
" كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالناصِيَةِ ..."	16-15	العلق	96	204
" وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَهَ مُخْلِصِينُ..."	05	البينة	98	255
" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ خَيْراً..."	8-7	الزلزلة	99	55، 58
" وَإنَهُ لِحُبِ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ..."	08	العاديات	100	259
" أَلْهَاكُمُ التكَاثُرُ ..."	2-1	التكاثر	102	18
" أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذبُ بِالدينِ ..."	7-1	الماعون	107	191

فهرس الأحاديث

((ما تركت بعدي في الناس................))..	9-8
((ما اجتمع رجل بامرأة.....................))	31
((ما من مسلم يصيبه........................))	111
((ماظنك باثنين الله ....))	113
((مازال جبريل يوصيني ....))	176
((ما تقرب إلي عبدي................))	183-182
((ماأعددت لها.......................))	185
((ماآمن بي من بات..................))	192
((ما من عبد يستر ....))	269
((ما من أمير عشرة..............))	292
((ما بعث الله نبيا.................))	247
((ما أكل أحد طعاما..............))	247
((ما كسب الرجل.............))	247
((ما يزال الرجل يسأل ....))	248
((ما عال من اقتصد..............))	261
((من أحيا سنتي......................))	77
((من سلك طريقا...............))	130
((من أتى كاهنا............))	140
((من أتى عرافا............................))	140
((من لم يدع قول الزور.............))	215
((من رزقه الله امرأة صالحة.............))	163
((من كان يؤمن بالله........................))	176
((من رأى منكم منكرا...............))	295
((من احتكر فهو خاطئ.................))	240
((من احتكر طعاما عاما.....................)).	240
((مثل المؤمنين في توادهم.................))	190-189، 188

فهرس الأعلام

الموضوع الصفحة